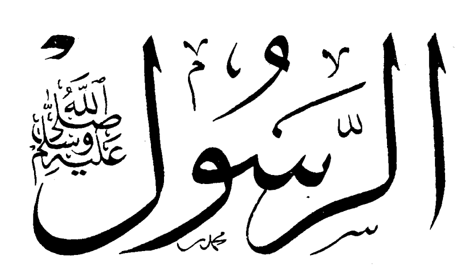
دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة

الله . الرسول . الإسلام



سعيد حوى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة

من بين هذه المخلوقات التى تعد بالبلايين يظهر هذا الانسان بشكل متميز جداً، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالما وحده تنطوى فيه العوالم ويبقى بعد ذلك بقية من التفرد . .

ونواحى هذا التفرد فى الانسان كثيرة نشير إلى ما يلى منها :

١ - فى خلقته : قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين : ٤] فما من شئ فى الإنسان إلا وقد ركب وصور على أحسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله، قارن بين الإنسان وبين أى مخلوق آخر من حيث الخلقة تجد تشابها فى ما لابد منه للحى كحى، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز : يد الإنسان تمتاز على يد أى مخلوق آخر، ولولا هذا لما كانت حضارات، وقامة الانسان وانتصاب جسمه لا يشبهه فيه غيره، وبشرة الإنسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز، وهو فى الإنسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر إلى الشعر إلى الأنف إلى الأذن إلى الوجه إلى القدم إلى أى شئ . .

٢ - فى علمه : قال تعالى ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة : ٣١] وقال : ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : ٥] فالإنسان وحده أعطى ملكة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره . فالمادة لا تعقل أصلا، وكذلك النبات، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود طعامه وشرابه وسفاده، والخطر الذى يتهدده، ولا يتعلم شيئا إلا بصعوبة . أما الإنسان فيعقل ذاته ويعقل غيره، ويركب ويحلل، يعرف الأشياء، ولماذا وجدت وكيف وجدت وكيف يستفاد منها، وليعرف القوانين التى

تربط بين الأشياء أي التي تخضع لها الأشياء، وآثار علم الإنسان واضحة جلية وتميز الإنسان في ذلك واضح جلي.

٣- في إرادتـــه: قال تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾ [الإنسان:٣] أن العلم شئ سلبي، والذي يجعله إيجابيا، هو الإرادة، وكلما كانت الإحاطة في موضوع أتم كان مجال الاختيار أوسع ولما كان الإنسان أكثر علما فهو أوسع إرادة، ومجال الإرادات أمامه أكثر وهو بالتالي يملك أكبر قدر من الإرادة. ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من أسلوب فإذا ظلم قد يعفو أو ينتقم وقد يكظم غيظه أو يظهره وقد يؤخر الانتقام لتسنح له الفرصة وقد يجبن. وقد يترفع وقد يسف وقد يرد بالمثل وقد يطغى وقد وقد.. مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد، أما الحيوان فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضآلة عدد مواقفه ومحدوديتها.. وهكذا فتميز الإنسان في صفة الإرادة واضح جلي.

٤- في مكانته وإمكاناته: إن مكانة الإنسان في الوجود هي السيادة، وذلك أن كل شئ مسخر له: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [لقمان:٢٠]. ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود:٦١] وإمكانيات الإنسان تبلغ أن تستفيد من طاقات هذا الكون. فقدرة الإنسان هائلة يكفي لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع حتى فأسا بينما صنع الإنسان الأقمار الصناعية والقنابل الذرية..

٥- في ملكة البيـان عنده: قال تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن:١-٤] إن الحيوانات كلها لا تخرج من أفواهها إلا أصوات مبهمة، أما الانسان فإنه يستطيع أن يخرج هذه الأصوات وزيادة على ذلك فإنه يستطيع أن يخرج سبعا وعشرين حرفا تتركب منها مليارات الكلمات في كل لغات العالم يتكلم بها الإنسان. فيسخر ويضحك ويبكي ويفسد ويصلح ويشعر أو ينثر ويبين عن خلجات الخاطر وإشراقة الوجدان، وقوانين الكون والسماء والأرض، ويبغي وينشد، إن تميز الإنسان في ملكة البيان من أبرز خصائصه..

٦- في عقله وإدراكه وخياله وتصوره: أن الحيوان يشترك مع الإنسان في حواسه ولكن الإنسان يمتاز عنه إدراكا وتصورا وخيالا أرقى وأعلى. فالإنسان والحيوان يشاهدان زرقة البحر ولكن شتان بين النظرتين. فزرقة البحر ألهم بسببها الإنسان شعرا ونثرا وعلما ومتعة وتأملات وإشارات إلى أشياء كثيرة، وتضع السم للذبابة في ماء السكر فتأكل منه وتموت وتأتي الأخرى والأخرى ويمتن جميعا ولا يخطر لواحدة منهن أن تتعظ، ترى كم إنسانا يأكل من طعام مات منه غيره ورآه؟ . .

٧- في استعداده الأخلاقي: هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة، أخلاق راقية وأخلاق منحطة، أخلاق فاضلة وأخلاق مرذولة، والإنسان عنده استعداد لأن يتدنى فيكون أخبث الموجودات أو يتعلى فيكون مثال طهر. وعنده استعداد ليكون في أحد حيزي الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين الحيوان يبقى ذا خلق واحد في الغالب، فالغل والحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والطمع والبذخ والبطر والفخر والخيلاء والصلف والمداهنة والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقسوة والفظاظة والجفاء والطيش وقلة الحياء وقلة الرحمة، ثم أضداد هذه المعاني كلها وأمثال هذه وهذه كثير كل ذلك، مما يمكن أن يتخلق به الإنسان ومن ثم كان استعداد الإنسان الأخلاقي سمة بارزة تميزه عن أي مخلوق آخر. .

والسؤال الآن هو: ماذا يترتب على الانسان نتيجة لهذا التفرد؟

إن القاعدة على قدر ما تعطى تطالب ضمن استطاعتك هي قاعدة هذا الموضوع، فإن الله جلت حكمته الذي سخر الكون للإنسان قد رتب على ذلك أن جعل الانسان هو المسئول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة:٣٦] وقال: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون:١١٥] وقال: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب:٧٢] فالله عز وجل جعل الإنسان بهذا التفرد خليفة في الأرض ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ**

خليفةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣٩] والاستخلاف يعنى ما يلى:

١- أن المستخلف فى الملك ليس مالكا أصيلا.

٢- أن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو.

٣- ألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له.

٤- أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريده هو.

وهذا كله يعنى أن الإنسان ليس حراً بل هو عبد لله الذى أقامه هذا المقام فى الوجود قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ [الذاريات: ٥٦] فسيادة الإنسان على الكون فى مقابل عبوديته لله. وما لم يعط الإنسان عبوديته لله يكون قد أقام نفسه مقام الجماد والنبات والحيوان غير المسئولين. لذلك نرى القرآن قد ألح على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنفال: ٥٥] وقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] وقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[محمد: ١٢] ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾[الجمعة: ٥] وقال: ﴿ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تتركه يَلْهَثْ ﴾[الأعراف: ١٧٦] إن القيام بأمر الله هو وحده الذى يطلق طاقات الإنسان كلها فى طريقها الصاعد نحو الكمال، وترك أمر الله يعنى إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة..

ولا يقوم الانسان بأمر الله إلا اذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به، ولا يتم للإنسان هذا إلا بمعرفة الرسول الذى يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل إنسان على حدة ليبلغه أمره بل اقتضت حكمته أن يصطفى من الناس رسولا يقوم بهذا نيابة عنه ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ [الحج: ٧٥] وفى ذلك حكم منها:

١- أن الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم، ولم يعط كل إنسان مثل هذا ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] إذ أن حكمة الله اقتضت ألا تجعل الناس درجة واحدة إذ لا تستقيم الحياة البشرية بذلك. فمن للمهن، ومن للحرف ومن لقضاء حاجات الناس، ومن للخدمة ومن للسيادة ومن للتبعية، إذا كان الناس على نسق واحد قال تعالى: ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا** ﴾ [الزخرف: ٣٢] وكانسجام مع هذا القانون العام اصطفى الله بشرا ليكونوا رسلا ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢] .

٢- إن امتحان الإنسان واختباره هدف أساسى من أهداف التكليف ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك: ٢] وامتحان الإنسان هدف آخر ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٢٠]. ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣] وانسجاما مع هذا جرت سنة الله أن يختار انسانا رسولا ليبتلى الآخرين به. إنه الاختبار العظيم الذى من نجح به تخلص من رجس الحسد، وشهوة الاستعلاء وتمحص خالصا للحق محبا له. ولأهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسل امتحنوا بهذا المعنى ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا** ﴾ [آل عمران: ٨١] .

٣- ومن أهم ما امتحن به الإنسان تكليفه بالإيمان بالغيب الذى قام على صدق

المخبر به الدليل وهذا لا يتـــم إلا إذا كان بين الله وخلقه واســـطة هو الرسول، هـذا مع ملاحظة أن الرســل ممتحنون بشيء من هذا ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** ﴾[الشورى: ٥١] ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي** ﴾[الأعراف: ١٤٣] وإذن كـانت حكمة الله أن يصطفى رسلا من البشر يعرفهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه لتتحقق بذلك إنسانيتهم ولتتطهر بذلك أنفسهم، وليعيشوا محققين ما من أجله خلقوا..

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود وهى مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح، إلى الكمال بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيوانى أو مادى أوغريب عن فطرتها، حتى تصبح ربانية ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾[آل عمران: ٧٩] ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة: ١٥١] ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً** ﴾[النساء: ١٧٢] .

وبعد: كيف نعرف نحن بقية البشر رسل الله؟ إن معرفة الرسول واتباعه يترتب عليها هدايتى واستحقاقى ثواب الله بينما جهلى وكفرى به حال وجوده ودعوته لى يترتب عليها بقائى على ضلالى واستحقاقى عذاب الله فى الدنيا والآخرة لذلك كان مهما جدا أن أعرف كيف أهتدى إلى الرسول، وبدون معرفة هذا قد يلتبس على الأمر فأعتبر غير الرسول رسولا فأضل أو أجهل الرسول فأعذب ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾[الإسراء: ١٥] ..

لذلك فقد جعل الله للرسل علامات يعرفون بها. هذه العلامات هى:

١- الصفات الشخصية لصاحب الرسالة: فليس من المعقول أن يكون الرسول

كذابا إذ أن الكذاب لا يصدق فى الأمور العادية فضلا عن مثل هذه القضية الكبرى فالأخلاقية العالية سمة لابد منها لإنسان مرسل من عند الله ليطهر البشر من كل شر ويدله على كل خير. فإذا ما كان شريرا تظهر عليه صفات الأشرار فأنى يجعله الله محل دعوته، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلها أو غير ذكى إذ المغفل أو عادى الذكاء لا يسلم له الناس عقولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول، ومهمة الرسول لا تقوم إلا إذا كان أكبر الناس عقلا وفطنة كى يستطيع إقامة الحجة على الناس، كما أنه ليس من المعقول أن يدعو الرسول الى شئ ويكون سلوكه مخالفا لما إليه يدعو. فهو يدعو الى طاعة الله فليس من المعقول أن يعصيه ويدعو إلى ترك معصيته فلا يعقل ألا يطيعه إذا كان صادقا. فينبغى إذن أن يكون مظهرا كاملا للطاعة وترك المعصية. كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولا ولا تكون عنده إمكانية تبليغ الرسالة المكلف بها إلى أصحابها. وبدون هذا لا تقوم الحجة على الناس وهذا يحتاج إلى شخصية فذة عظيمة. إذ دعوة الرسل ليست كغيرها من الدعوات التى ترضى شهوات البشر، بل هى دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية وعلى هذا فأمام عملية التبليغ عقبات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها إلا صادق مع الله. ثم الرسول هو قدوة البشر فى طريقهم إلى الله، فلابد أن يكون أرقى البشر فى كل جانب من جوانب الحياة وعنده دائما الحل الأمثل للبشر.

٢- المعجزات: والمعجزات هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد الرسول أو النبى. وهى علامة على الرسالة لأنها تخرج من عالم الأسباب كلها، بحيث يعجز الإنسان كإنسان أن يأتى بها وذلك أن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين الكون، وقدرة الله وحدها هى المطلقة، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على أن له صلة مع الله. ويخلط الناس عادة بين المعجزة التى هى علامة رسالة الرسول وبين السحر وآثار الرياضة الروحية، والذى نحب أن نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التى تخضع لقوانين هذا الكون وإن كانا مجهولين إلا للقليل من الناس ولكن أى إنسان تعلم علم السحر يستطيع أن يفعل ما يفعل وكذلك فيما يتعلق بآثار الرياضة الروحية، فلعالم الروح قوانينه التى من اكتشفها قد

تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الأسباب العادية إذ أن أى إنسان يستطيع أن يفعل ما فعلوه إذا سلك نفس طريقهم. أما المعجزة فلا علاقة لها بعالم الأسباب أصلا فليست كأثر عن علم أو تجربة أو قانون إذ من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر أن يأتى بها.

إن المعجزة تكون بقدرة الله الذى يقول للشيء كن فيكون. إن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأبرص وقد يشفى البرص على يد طبيب ولكن الفارق بين الحالتين أن ذلك بقدرة الله وهذا بمعرفة القوانين التى بثها الله بالكون. إن الإنسان يستطيع بذكائه وإمكانياته أن يستخرج الماء من أعماق الأرض أو أن يركب بالوسائل المعروفة من الأوكسجين والهيدروجين ماء، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع، وبين الماء الذى خرج بضرب عصا موسى أو نبع حيث وضع محمد ﷺ أصابعه كالفارق بين صنع الله وصنع الإنسان، صنع الله بكلمة كن وصنع الإنسان بالعمل والجهد والآلة والفكر والعلم والأسباب وربط القانون بالقانون، وهكذا استطاع الإنسان أن يجاوز سطح الأرض، ويسير بالفضاء، ولكن الفارق بين هذا وبين عروج محمد رسول الله إلى السماء كالفارق بين كل ما صنع الله وصنع المخلوق، العروج كان بكلمة الله وصعود الإنسان الى هذا الفضاء، كان بالارتقاء بالأسباب. فالمعجزة إذن لا دخل لأى سبب كونى فيها سواء أكان روحيا أو ماديا أو أى شئ آخر. ومن هنا كانت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله..

٣- النبوءات: النبوءة هى الإخبار عن المستقبل وكون وقوعها دليلا على صحة دعوى الرسالة يعود إلى أن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضى ومحجوب عن المستقبل، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان، وما كان ويكون، فكون الرسول يخبر عما سيكون ويقع كما أخبر، فذلك دليل على أن له صلة بالله، وكما أن المعجزة تخرج عن عالم الأسباب حتى تصلح دليلا، فكذلك هنا المقصود بالإخبار عن الغيب مما ليس له علاقة بنتائج تترتب على مقدمات أو توقعات دلت عليها طوالع، فهذا يستطيعه كثير من الناس بما أوتوا من حكمة وحنكة وخبرة ومعرفة وتجربة..

٤- الثمرات: إن ثمرات الرسول تدل عليه من انسجام دعوته مع قواعد

الفطرة، الى الاخلاقية العظيمة التى تظهر على أتباعه، كان يحكم الحق القوة، ويظهر الوفاء على الغدر، وإن كان فى الغدر منفعة وتصبح نفس الإنسان منضبطة انضباطا كاملا بالخير، فيؤدى الحقوق ويقيم الواجبات ويعيش لله وبالله عادلا فى دنياه حريصا على آخرته، تفجرت طاقاته كلها، وسارت فى طريقها الصحيح، فنمت ملكاته العليا كلها وانضبطت ملكاته الدنيا جميعا. إن ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافا جوهريا عن ثمرات أى دعوة أخرى حتى لتكاد الفطرة تحس بحدسها إذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لابد أن يكون وراءه عناية ربانية خاصة..

٥- **البشارات**: إن الأنبياء كلهم رسل الله الواحد الأحد، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق فتكون نبوءة للأول وتمهيدا للثانى. وليس هذا شرطا فى كل رسالة ولكنه متوقع وجوده ومتأكد حصوله وقد يذكر بالبشارة اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو كلاهما والبشارة يستأنس بها إذا وجدت بقية العلامات..

فهذه علامات خمس يتمم بعضها بعضا نتعرف بها على صدق مدعى الرسالة ونمتحن كل رسالة بها..

قدمنا هذا الكلام بين يدى الأبواب الخمسة التى لها علاقة بهذه القضايا الخمس والتى نتحدث بها عن رسالة النبى العربى محمد ﷺ وثبوتها. هذه الرسالة التى ختم الله بها النبوة ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ونسخ بها كل شريعة سابقة وكلف الإنسانية كلها بها، بحيث لا يستحق أحد رحمته إلا إذا التزم بها، ومن لم يلتزم بها استحق عذابه. وتم بها انتقال الرسالة من طور القومية إلى طور الإنسانية الشاملة، إذ أن رسل الله قبل محمد كانوا يبعث الواحد منهم الى قومه خاصة. وبعث محمد إلى الناس عامة. فاصبحت الإنسانية كلها ببعثته ملزمة بشريعة واحدة هى شريعته وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذى هدى إليه وإلا فإنه يكون من الضالين. ولما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الأهمية. جعل الله عزوجل فيها ومعها من واضحات الأدلة ومشرقات البراهين الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحاج أو شبهة لأحد.

هذه الأبواب الخمسة. ستجد إن شاء الله فى كل واحد منها ما يؤكد لك هذا

المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشك معه أن محمدا رسول الله وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته .

وهذه الأبواب الخمسة على الترتيب التالي :

الباب الأول : الصفات .

الباب الثاني : المعجزات .

الباب الثالث : النبوءات .

الباب الرابع : الثمرات .

الباب الخامس : البشارات .

وبذلك ينتهي المبحث الثاني من مباحث هذا الكتاب ليبدأ المبحث الثالث وهو الإسلام دين الله وشريعته التي بلغنا إياها رسوله ﷺ وبذلك نكون قد عرفنا المكلف وهو الله في المبحث الأول والتكليف وهو الإسلام في المبحث الثالث ومبلغ التكليف والقدوة فيه وهو الرسول في المبحث الثاني وهو هذا فإلى الباب الأول من هذا المبحث .

* * *

الباب الأول

الصّفات

بدأنا بهذا الباب بقصد التعريف على جوانب فى شخصية الرسول من ناحية ومن ناحية أخرى كى يكون بمثابة مفتاح للأبواب الأخرى وقد حاولنا أن نمشى فيه على الترتيب التالى :

١ - **مقدمة** : نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليتضح كيف أن تركيبه الجسمى متناسب مع الرسالة التى كلف بها .

٢ - **الفصل الأول** : ويبحث فى الصفات الأساسية للرسل وكيف كان للرسول منها أعلى ما يتصور فى حق بشر .

٣ - **الفصل الثانى** : ويبحث فى كون الرسول هو القدوة العليا للبشر فى كل جانب من جوانب الحياة لأنه كان فى كل جانب فى الذروة العليا من الكمال .

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمى .

وجعلنا الفصل الأول تحت عنوان : الصفات الأساسية .

وجعلنا الفصل الثانى تحت عنوان : القدوة العليا .

ونأمل ألا ننتهى من هذا الباب إلا وقد اتضح لطالب الحق أن محمدا لا يمكن أن يكون إلا رسول الله حقًا ﷺ .

* * *

المقدمة

تكوين الرسول الجسماني

إن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له. ومظهر يوحى بثقة مطلقة لا حد لها وهذا ما ينعقد عليه إجماع من يشاهدوه عليه الصلاة والسلام.

أخرج الدارمي والبيهقي عن جابر بن سمرة قال: رأيت النبي في ليلة اضحيان (أى مقمرة مسفرة) فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن في عيني من القمر.

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى في وجهه وما رأيت أحدا أسرع في مشيه منه كأن الأرض تطوى له أنا لنجهد وأنه غير مكترث.

وأخرج الشيخان عن البراء قال: كان رسول الله بعيد ما بين المنكبين يبلغ شعره شحمة أذنيه ما رأيت شيئا أحسن منه.

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة في وصف وجه رسول الله قال: بل مثل الشمس والقمر مستديرا.

وأخرج الشيخان عن البراء قال: كان رسول الله أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير.

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له صف لنا رسول الله قال: كان أبيض مليح الوجه.

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال: قلت للربيع بنت معوذ صفي لي رسول الله قالت: لو رأيته قلت الشمس طالعة.

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله.

وأخرج أبو موسى المدينى فى كتاب الصحابة عن أمد بن أبد الحضرمى قال: رأيت رسول الله فما رأيت قبله ولا بعده مثله.

وأخرج الدارمى عن ابن عمر قال: ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوأ من رسول الله.

وأخرج أحمد والبيهقى عن محرش الكعبى قال: اعتمر النبى من الجعرانة ليلا فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة.

ومن شعر عمه أبى طالب فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد والبيهقى عن على قال: كان النبى ليس بالذاهب طولا وفوق الربعة إذا جاء مع القوم غمرهم أبيض ضخم الهامة (أى الرأس) أغر أبلج أهدب الأشفار (أى طويل شعر العين أسوده) كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ لم أر قبله ولا بعده مثله.

ومن وصف هند بن أبى هالة له: كان رسول الله فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.. عظيم الهامة رجل الشعر.. أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن. بينهما عرق يدره الغضب (الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر) أقنى العرنين (العرنين الأنف أو ما صلب منه والقنا طول الأنف ودقة أرنبته واحدداب وسطه) له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم (الأشم الطويل قصبة الأنف) كث اللحية أدعج (الدعج شدة سواد العين) سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان (أى لأسنانه رونق وغير متراكبة) دقيق المسربة (أى خفيف شعر ما فوق السرة) كأن عنقه جيد دمية فى صفاء، معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن والصدر عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين.. أنور المتجرد. طويل الزندين رحب الراحة.. شثن الكفين والقدمين سابل الأطراف (أى طويل الأصابع) خمصان

الأخمصين.. ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب واذا التفت التفت جميعا خافض الطرف نظره الى الأرض أكثر من نظره الى السماء..

وكان إذا مس أحداً أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب.

أخرج أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: اشتكيت بمكة فدخل على رسول الله يعودنى فوضع يده على جبهتى فمسح وجهى وصدرى وبطنى فما زلت يخيل الى أنى أجد برد يده على كبدى حتى الساعة.

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال: مسح رسول الله خدى فوجدت ليده بردا وريحانا كأنما أخرجها من جونة عطار. وأخرج الشيخان عن أنس قال: ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله ﷺ.

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبى.

أخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وعن أبى رمثة التميمى قال: أتيت النبى ومعى ابن لى فأريته فلما رأيته قلت: هذا نبى الله.

ويقول عبد الله بن رواحة فى وصفه:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر

هذه بعض آثار مما ورد فى وصف تكوينه الجسمى نقلناها بين يدى صفاته وكمالاته الخلقية العظيمة لتتضح صورته من جميع جوانبها عليه السلام.

* * *

الفصل الأول

الصفات الأساسية

إنه لابد لكل رسول لله أن يكون متصفا بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلا للرسالة. وهذه الصفات الأربع هى:

١ـ الصدق المطلق الذى لا ينقض فى كل حال. بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقا للواقع إذا وعد أو عاهد أو جد أو داعب أو أخبر أو تنبأ واذا انتقضت هذه الصفة أى نقض، فإن دعوى الرسالة تنتقض من أساسها لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق، والرسول الصادق لا يمكن أن تجد فى جزء من أجزاء كلامه شيئا من الباطل فى أى حال من الأحوال وفى أى جانب من الجوانب.

٢ـ الالتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله إذ مهمة الرسالة تبليغ الناس ما كلفهم به الله فإذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكاليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكليف وهذا دليل كذبه فى دعوى الرسالة. إذ الرسول الذى يتصل به الله أعرف بجلال الله وبالتالى لا يعصى له أمر لأن عصيان أمر الله خيانة، وغير الأمناء ليسوا أهلا لحمل رسالة الله.

٣ـ التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بسخط الناس أو تعذيبهم أو إيذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو ارجافهم، والاستقامة على أمر الله وعدم الانحراف عنه. مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلك. إذ بدون التبليغ لا تظهر الرسالة وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر. والخضوع لضغط الناس أو لإغرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله. إذ لا يبلغ رسالة الله إلا من رغب بالله عن غيره وكان الله وحده هو العظيم عنده ولا يبالى بغير رضاه.

٤ـ العقل العظيم إذ لا يسلم الناس ولا يتبعون إنسانا إلا إذا كان أرجحهم عقلا

ليطمئنوا على أنه لا يسير بهم فى الطريق الخاطئ كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذى فى رسالته، خاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقول الكبيرة ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمنتفعين بالانحراف. فلابد أن يكون الرسول أذكى الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كى تقوم به الحجة.

فإذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لإنسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التى يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى، كان ذلك برهانا ودليلا على صحة الدعوى اذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ولا يوجد تعليل لحرارة الالتزام غير التسليم، وعدم الانصراف عن التبليغ مع توفر دواعى الانصراف لا تعلل إلا بالإخلاص للدعوة وصاحبها، ودعوة حجتها معها، وصاحبها قادر على إقامة الحجة فى أى جانب من جوانبها فيها دليل حقيقتها.

وسنرى فى هذا الفصل كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان المثل الأعلى فى كل صفة من هذه الصفات بحيث لا تستيطع أن تدرس واحدة منها عنده إلا وتسلم أن صاحبها رسول الله حقا. وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبدأ بصفة الصدق عنده عليه الصلاة والسلام.

١ - صدقه عليه السلام

وطريقتنا فى استعراض هذه الصفة أن نأتى بالشهادات عليها وهذه الشهادات ثلاث:

(أ) شهادة الخصوم.

(ب) شهادة الأتباع.

(ج) شهادة الواقع، وشهادة الواقع تتمثل فى أربع: فى الإخبار وفى الوعد، والعهد، وفى المزاح والمداعبة وفى النبوءات.

(أ) شهادة الخصوم:

وشهادة الخصوم فى هذا الفصل لها وزنها الكبير، إذ تدلك على مبلغ الثقة التى

كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر فأنكر دون وجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذى قلناه:

«أخرج البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنى أمشى أنا وأبو جهل فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبى جهل: يا أبا الحكم هلم الى الله ورسوله أدعوك إلى الله. فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل على فقال: والله إنى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شئ. أن بنى قصى قالوا: فينا الحجابة. قلنا نعم ثم قالوا: فينا السقاية قلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة فقلنا: نعم ثم قالوا: فينا اللواء فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب قالوا: منا نبى. والله لا أفعل» وأخرجه ابن أبى شيبة بنحوه.

وأخرج الترمذى عن على أن أبا جهل قال للنبى ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى ﴿ **فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام:٣٣].

وأخرج ابن عساكر عن معاوية (رضى الله عنه) قال: خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفا هند وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لى اذ سمعنا رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتى يركب محمد فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيهة ثم التفت إلينا فقال: يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتمتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار. وأنا أقول لكم بحق وانكم لأول من أنذرتم ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [فصلت:١-٢]. حتى بلغ ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت:١١] فقال له أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟ قال نعم ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبى سفيان: ألهذا الساحر أنزلت ابنى قال: لا والله ما هو بساحر ولا كذاب» وأخرجه الطبرانى أيضا.

وروى البخارى ومسلم قصة أبى سفيان عند هرقل كما حدث بها أبو سفيان

ابن عباس ومنها سؤال هرقل لأبى سفيان هذا: «قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. قلت لا» وفى آخر القصة يقول هرقل لأبى سفيان: «وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب عل الناس ويكذب على الله تعالى».

وأخرج الشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد ﷺ على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قال أبو لهب: تبا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبدا وهذا الذى يعلل لنا:

١- ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحدا فواحدا طوعا لا إكراها أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب.. ذلك لأنهم ما كانوا يشكون فى أن محمدا صادق، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فانكروه. حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ﷺ فتولد عن ذلك إيمان.

٢- ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان: فبعضهم لم يؤمن إلا آخرا بعد أن غلب كبقايا قريش فإنهم أخيرا غلبوا للاسلام، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات. حتى إذا دخلوا فيه تسليما للأمر الواقع وإذا بهم مخلصون لرسول الله كأتم ما يكون الإخلاص. ومتفانون فى الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات. من بعدها تبينوا أن محمدا هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساسا لإخلاصهم فى طريقهم الجديد الذى ساروا به بعد ذلك فرحين.

وبعد فهذه شهادة خصوم: بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة وبعضهم مات

على كفره ولكن الجميع حتى فى أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمدا ﷺ صادق.

(ب) شهادة الأتباع:

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلى:

١- أن رسول الله ﷺ كان دائم الخلطة لأصحابه فى طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومجالسهم وهو عليه السلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف، وبعض الصحابة خالط الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين.

٢- وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغرارا ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم، بل بعضهم من مكة التى كان العرب سنويا يقصدونها للحج، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة. وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهنى.

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا فى حياة الرسول ﷺ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولا وأكثرهم دهاءا وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم بعد ذلك فى الأمة الإسلامية.

فإذا ما اجتمعت هاتا الناحيتان: الخلطة الدائمة. وذكاء المخالطين، فإن أمر الكاذب يفتضح، وأمر الصادق يتضح.

والظاهرة الواضحة فى حياة الصحابة أنهم كلما ازدادوا برسول الله ﷺ خلطة ازدادوا به إيمانا وتصديقا بل أكثرهم اختلاطا به أكثرهم إيمانا به وطاعة له وقد بلغ هذا معهم لدرجة أنه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول ﷺ أحب إليهم من الحياة، وانفاق المال أحب إليهم من إمساكه، والطاعة أحب إليهم من المعصية. ودين الرسول ﷺ أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن. وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل إذ لولا التصدق لما كان شئ من هذا. فقد قتل منهم الابن

أباه، وأراد الأب قتل ابنه فعلام يفعلون هذا لولا أن إيمانهم برسول الله وتصديقهم به وصل الى ذروة الذرى. وهذه أمثلة كل منها يعتبر أثرا من آثار التصديق الكامل ودليلا عليه نذكرها بلا تعليق وفى كل منها شهادة من صاحبها. بعد تجربة على أن محمدا ﷺ صادق لاشك فى ذلك:

١ـ أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسى عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ ـ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ـ ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال: يا أبا بكر إنا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا الى الله والى رسول الله ﷺ. وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه. ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله. ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب. فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه. ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ فقالت: والله ما لى علم بصاحبك. فقال: اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك الى ابنك، قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا. فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ قالت: هذه

أمك تسمع. قال: فلا شئ عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم. قال: فإن لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ. قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون. ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بولدها، وأنت مبارك فادعها الى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها الى الله فأسلمت.

٢- وأخرج إبن إسحاق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه قال: أى قريش أنقل للحديث؟ فقيل له جميل بن معمر الجمحى فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل _ وأنا غلام أعقل كل ما رأيت _ حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ﷺ؟ قال: فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش _ وهم فى أنديتهم حول الكعبة _ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال يقول عمر من خلفه: كذب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلع فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم القتال فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر. قال: فمه! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. قال: فو الله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه. قال فقلت لأبى _ بعد أن هاجر الى المدينة _ يا أبت: من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة _ يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أى بنى: العاص بن وائل السهمى. وهذا إسناد جيد قوى _ كذا فى البداية.

٣- وأخرج البخارى فى التاريخ عن مسعود بن خراش رضى الله عنه بينما نحن

نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شابا موثقا بيده في عنقه. قلت: ما شأنه. قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - صبأ. وامرأة وراءه تدمدم وتسبه. قلت من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أمه.

٤- وأخرج البيهقي وابن سعد والحارث وابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه: أن صهيبا رضي الله عنه: أقبل مهاجرا نحو النبي ﷺ فتبعه نفر من قريش مشركون، فنزل فانتضى كنانته فقال: قد علمتهم يا معشر قريش أني أرماكم رجلا بسهم، وأيم الله لا تصلون الى حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه. ثم شأنكم بعد ذلك وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي. قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك فدلهم، فأنزل الله على رسوله القرآن: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧] حتى فرغ من الآية. فلما رأى النبي ﷺ صهيبا قال: ربح البيع يا أبا يحيى .. ربح البيع يا أبا يحيى! وقرأ عليه القرآن.

٥- وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما خرج الى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما. فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد (رضي الله عنهما) إنه لابد لأحدنا من أن يقيم فأقم مع نسائك. فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به أني أرجو الشهادة في وجهي هذا. فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ الى بدر. فقتله عمرو بن عبد ود. وأخرجه أيضا ابن المبارك عن سليمان وموسى ابن عقبة عن الزهري، كما في الإصابة.

٦- وأخرج الطبراني عن ابن عمر _ أن عمر _ رضي الله عنهما، قال يوم أحد لأخيه: خذ درعي يا أخي! قال أريد من الشهادة مثل الذى تريد، فتركاها جميعا، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح.

٧- وأخرج ابن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدى ابن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - وقد ألقوا بأيديهم.

فقال: فما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فوموا. فموتوا على ما مات عليه رسول الله. ثم استقبل القوم. فقاتل حتى قتل.

٨- وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه وقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام. وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى. فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. فقلت له: يا سعد. إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام. قل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص الى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف. قال: وفاضت نفسه - رحمه الله - قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. ثم أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: من ينظر لي ما فعل سعد ابن الربيع - رضي الله عنه - فذكر الحديث بنحو منه _ وقال: فقال سعد: أخبر رسول الله ﷺ أني من الأموات، وأقرئه السلام وقل له: يقول سعد: جزاك الله عنا، وعن جميع الأمة خيرا.

٩- وأخرج البيهقي عن مالك بن عمير رضي الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية. قال: جاء رجل الى النبي ﷺ فقال: أني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم. فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح _ أو حتى قتلته. فسكت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ثم جاء آخر فقال: إني لقيت أبي فتركته وأحببت أن يليه غيري. فسكت عنه. قال البيهقي وهذا مرسل جيد.

١٠- وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطم فقال: غبر علينا ابن أبي كبشة. فقال ابنه عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه: يا رسول الله والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه؟ فقال: لا، ولكن بر أباك واحسن صحبته. قال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات.

١١- وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن

عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص رضى الله عنه ومربه: إنى آراك تظن أنى قتلت أباك. انى لو قتلته لم أعتذر اليك من قتله. ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام ابن المغيرة، فأما أبوك فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحدث عنه وقصد له ابن عمه على فقتله. كذا فى البداية. وزاد فى الاستيعاب والاصابة: فقال له سعيد ابن العاص: لو قتلته لكنت على الحق وكان على الباطل، فأعجبه قوله.

١٢- وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال: لما قدم أبو سفيان ابن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ فقام فدخل عل ابنته أم حبيبة رضى الله عنها. فلما ذهب ليجلس على فراش النبى ﷺ طوته دونه. فقال: يا بنية! أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدى شر. وذكر ابن اسحاق نحوه بلا إسناد، كما فى البداية وزاد: فلم أحب أن تجلس على فراشه.

١٣- وأخرج الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة. وقالوا: قتل محمد حتى كثرت الصوارخ فى ناحية المدينة. فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها _ أى قتلى _ لا أدرى أيهم استقبلت به أولا. كلما مرت على أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك أخوك زوجك ابنك. تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ يقولون: أمامك حتى دفعت الى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا أبالى إذ سلمت من عطب.

هذه نصوص تبين لك مدى الإيمان برسول الله ﷺ عند أتباعه المخالطين له مما يدلك على أن تصديقهم لرسول الله ﷺ بلغ حدا لا مثيل له.

(ج) وأخيرا شهادة الواقع:

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الانسان يصل بامتحانه إلى اليقين الذى لا يخالطه شك ونعنى بهذا أن يقوم الانسان بإجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن

الرسول من قول أو فعل. فاذا ما وجد أن كل قول أو فعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق. لم يبق أمام الانسان الا طريق واحد هو الايمان والتصديق. وسنرى فى الباب الثانى القادم أن الاختبار الكامل للقرآن يجعلك على مثل الشمس وضوحا أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله، وسنرى فى الباب الثالث إن شاء الله أن الاختبار الكامل لنبوءاته، يدلك على أن المستقبل كان كشفا لها وتوكيدا. أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنها لا تخرج عن الحق والصدق، ونماذج من وعوده وعهوده وصدقه فيها، ونماذج من أحاديثه التى يستطيع الإنسان أن يعرف صدقها بالاختبار، لنرى العجب فى مطابقة ما عرفه إنسان عصرنا بعد التجربة، لما نطقت به شفتا رسول الله من عصور. ثم نختم هذا الموضوع بالتذكير أن المصدر الوحيد الذى نستطيع أن نأخذ عنه العلم بالغيبيات بثقة هو رسول الله. فهو الحجة وحده فى هذا، وكلامه حجة على غيره فيه، مع مناقشة بعض القضايا التى لها علاقة بهذا الأمر ونبدأ باستعراض ما ذكرنا:

١ - نماذج من صدقه فى مزاحه ومداعباته:

إن الناس عادة لا يلتزمون الصدق فى المزاح ولكن رسول الله داعب صادقا ومازح صادقا **وألزم أمته الصدق فى كل** حال. أخرج احمد عن أنس بن مالك: أن رجلا أتى النبى فاستحمله فقال رسول الله: إنا حاملوك على ولد ناقة فقال: يا رسول الله.. ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله: وهل تلد الابل الا النوق. رواه أبو داوود والترمذى. وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى فقالت: إن زوجى يدعوك قال: ومن هو؟ أهو الذى بعينه بياض؟ قالت والله ما بعينه بياض فقال: بلى إن بعينه بياضا فقالت لا والله. فقال: ما من أحد الا وبعينه بياض. هو أراد البياض المحيط بالحدقة وهى فهمت البياض على الحدقة الذى يكون الرجل أعور به.

وأخرج أحمد عن أنس: أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا، وكان يهدى النبى الهدية من البادية فيجهزه النبى إذا أراد ان يخرج. فقال رسول الله: إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه وكان رسول الله يحبه وكان رجلا دميما. فأتاه رسول الله وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال: أرسلنى من هذا؟ فالتفت

فعرف النبى فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبى حين عرفه وجعل رسول الله يقول: من يشترى العبد؟ فقال: يا رسول الله اذن والله تجدنى كاسدا فقال رسول الله: لكن عند الله لست بكاسد. أو قال: لكن عند الله غال. رواته ثقات فانت ترى من سياق الحديث أنه عنى بالعبد عبد الله وكلنا عبد الله.

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن الحسن قال: أتت عجوز النبى فقالت: يا رسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة فقال: يا أم فلان أن الجنة لا تدخلها عجوز فولت تبكى فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٦].

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن أنس قال: قال لى رسول الله يا ذا الأذنين. قال أبو أسامة يعنى يمازحه. وكل إنسان له أذنان فانت ترى من هذه الأمثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالا لطيفا، على غير المتعارف. ففهم المخاطب فيهما كانت فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقا.

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا.. قال: إنى لا أقول إلا حقا. انها نبوة صدق وما كان للنبوة ان يكون للباطل عندها أو معها نصيب.

٢- نماذج من صدقه فى وعوده وعهوده:

أخرج أبو داوود عن عبد الله بن أبى الخنساء قال: «بايعت النبى ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك. فنسيت يومى والغد فاتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يا فتى لقد شققت على. أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك».

وأخرج ابن حبان والحاكم: «كان ﷺ جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: ان لى عندك موعدا يا رسول الله. قال: صدقت فاحتكم ما شئت. قال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها. قال: هى لك وقال: احتكمت يسيرا..».

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى فى قضية إسلامه وكيف انه عندما كان مشركا تولى مطالبة الرسول ﷺ بالجلاء عن مكة فى عمرة القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول جويطب: «ولما قدم رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو لأن نخرج رسول الله ﷺ إذا مضى الوقت، فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا: قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح: يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا»..

وهذه فقرات من كتاب (بطل الأبطال) يحلل فيها صاحبه بعض مواقف الوفاء بالعهد والوعد التى وقفها رسول الله ﷺ يقول: «قبل سنة من هدنة الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله. واشتد بذلك الكرب وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا، ولكن الله نصر عبده، وأعزه وألقى الرعب فى قلوب المشركين، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الاسلام بقيادة رسول الله يزحف الى مكة، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلها الى محمد ﷺ. وها هو ذا عروة بن مسعود الثقفى رسولها يعود إليها يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة:

«إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه».

كان محمد فى منعة وقوة ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب، ويقول: لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم إياها. فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش لعقد الهدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن وهو أن محمدا يسلم الى قريش من لجأ اليه من المسلمين بغير إذن وليه ولا يطلب تسليم من لجأ الى قريش من أتباعه.

ذلك الشرط أهاج اصحاب محمد ﷺ حتى أن عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة الى أبى بكر وتارة أخرى الى الرسول ويقول: ألسنا المسلمين! أليسوا المشركين! ألست رسول الله!.. فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ فيقول الرسول: أنا عبد الله

ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ويقول أبو بكر: أشهد أنه رسول الله. فقبول المسلمين هذه الشروط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم وبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ولم يكتب العقد ولم يمض جاءهم أبو جندل مستصرخا يرسف في قيوده وابو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك ــ أى فرغنا من المناقشة ــ قبل أن يأتيك هذا. قال محمد: صدقت. وأبو جندل ينادى: يا معشر المسلمين! أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ تصوروا ذلكم المقام. مقام محمد وهو الشجاع الذى حدثتكم عن شجاعته المنقطعة النظير وهو القوى الذى خرج من المدينة زاحفا بجيش. سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوره وهو يرى أقرب أصحابه (فى حالة تذمر) ثم تصوروا لاجئا يرسف فى القيود وهو من أبناء الأعزة فى قريش يرسف فيها (اتباعا) لمحمد ودين محمد ثم انظروا إليه لا يحتال ولا يتردد ولما يكتب ولما يمض يقول لسهيل صدقت لقد لجت القضية ويرد صاحبه باكيا إلى أعدائه تصوروا كل ذلك ثم ليكتب الى من يشاء بمثل واحد تاريخ البشر كله كهذا المثل يضربه محمد فى رعاية الكلمة التى قالها ولما تكتب ولما تمض».

ويقول صاحب الكتاب ذاكرا مثلا آخر:

ثم انظروا الى وفائه للمشركين أيضا: كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل فى عقد محمد وعهده، ومن شاء دخل فى عقد قريش وعهدها. فدخلت خزاعة على شركها فى عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفتها بكرا عليها. ذهب عمرو بن سالم الخزاعى يطالب (رسول الله) بالعهد ويطلب (منه) نصر حلفائه فوقف على رسول الله وهو فى المسجد ينشده ويقول:

يارب إني ناشد محمــــــدا حلف أبينا وأبيه الأتـــــلدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا وادع عباد الله يأتوا مـددا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا أن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سببا (فى تجهيز أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف) هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله) لأعداء الملة وقد عاهدهم . . أو قبل محالفتهم على غيرهم » .

هذه نماذج من صدقه فى وعده وعهده وسواها كثيرفما حدث أن وعد رسول الله أو عاهد فأخلف أو غدر . روى البخارى أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر أجاب أبو سفيان : لا ــ فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر » .

إن الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول عليه السلام منزه عن ذلك، ومن النماذج القليلة التى ذكرناها، ترى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل الى ما وصل اليه الرسول فى الوفاء، لشرف الكلمة، إلا إذا كان تلميذا من تلامذته، يقتدى به . لقد كانت كلمة الرسول هى الضمان الذى ما بعده ضمان، حتى أن ألد خصومه وأعرقهم فى عداوته كان لا يتردد إذا تأكد أن محمدا أمنه أن يلقى نفسه فى أحضان المسلمين، ثقة منه أن كلمة محمد ضمان لا يعد له ضمان . ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا، إنها صفة الصدق عند الأنبياء لا تتخلف .

٣- نماذج من حديثه الذى صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

(أ) قال عليه السلام فى الحديث الصحيح : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى احد جناحيه داء وفى الآخر دواء » .

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم تكن معروفة قديما، أولاهما أن الذباب ناقل داء وهذا شئ أصبح الآن معروفا لدى الجميع أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز . والثانية وهى التى يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك وهذا تحقيق كتبه الدكتور عز الدين جوالة حول الموضوع ننقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

« قبل الخوض في هذا الموضوع لنتذكر ما يلي :

١- من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات يكون في سمها نفع ودواء، فقد يجتمع الضدان في حيوان واحد فالعقرب في إبرتها سم ناقع، وقد يداوى سمها بجزء منها وفي ذلك يقول العلماء « وقد وجدنا لمكون أحد جناحي الذباب داء والآخر شفاء ودواء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع فطرته شواهد ونظائر . منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في إبرتها السم الناقع، والعقرب تهيج الداء بإبرتها ويتداوى من ذلك بجرمها » .

٢- وفي الطب يحضر لقاح من ذبيب الأفاعي والحشرات السامة يحقن به لديغ العقرب أو لديغ الأفعي . بل وينفع في تخفيف آلام السرطان أيضا .

٣- إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأسا على عقب فالبنسلين استخرج من العفن والاستربتومايسين من تراب المقابر . . الخ أو بمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر . أما والحالة كذلك، فهل يمتنع عقلا ونظريا أن يكون في الذباب هذه الحشرة القذرة، والتي تنقل القذر طفيلي أو جرثوم يخرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله .

٤- من المعروف في فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساما ضد هذا الذيفان، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتي مر ذكرها، ولها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب الى الطعام أو الشراب . فإذا وقعت في الطعام فما علينا إلا أن نغمس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التي تنقلها وتقضي علي الأمراض التي تحملها » .

وبعد كلام الدكتور عز الدين يستمر فينقل تحقيقا للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين في إثبات ما في الحديث ننقل بعضا منه، يقولان :

«ما تقوله المراجع العلمية :

فى عام ١٨٧١ وجد الأستاذ الألمانى « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلى من جنس الفطريات سماها « امبوزاموسكى » وهو طفيلى يعايش الذبابة على الدوام وبالتدقيق فيه وجده من نوع من الفطور التى تسمى « انتوموفترالى » تنتمى الى أهم فصيلة فى الفطور الأشنية وهى المسماه بالفطور الأشنية المرتبطة أو المتحدة، وهو من النوع الثانى للفطر المسمى الفطور الأشنية الطفيلية وهذا طفيلى يقضى حياته فى الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتى ذكرها . ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلى لهذا الفطر، وفى هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية، فيزداد الضغط الداخلى للخلية من جراء ذلك، حتى اذا وصل الضغط الى قوة معينة لا تحتملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور الى خارجها بقوة دفع شديدة، تدفع البذور الى مسافة ٢ سم خارج الخلية، على هيئة رشاش مصحوبا بالسائل الخلوى . وعلى هذا إذا أمعنا النظر فى ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

(أ) مجالا من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

(ب) ويشاهد حول القسم الثالث والأخير من الذبابة على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة . والتى خرجت منها البذور وقد برز منها رؤوس الخلايا المستطيلة التى مر ذكرها . وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب إليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذى يعيش فى بطن الذبابة منها :

١- فى عام ١٩٤٥ أعلن أكبر أستاذ فى علم الفطريات وهو « لانجيرون » أن هذا الفطر الذى يعيش دوما فى بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة « أنزيم » قوية تحلل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض .

٢- فى عام ١٩٤٧-١٩٥٠ تمكن العالمان الأنجليزيان « آرنشتين وكوك »والعالم السويسرى « روليوس » من عزل مادة سموها « جافاسين » استخرجوها من فصيلة

الفطور التى تعيش فى الذباب وتبين لهم أن هذه المادة مضادة للحيوية تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزونتاريا والتيفوئيد.

٣- وفى عام ١٩٤٨ تمكن «بريان وكورتيسر وهيمنغ وجيفرس ماكجوان» من بريطانيا من عزل مادة مضادة للحيوية أسموها «كلوتيزين» وقد عزلوها عن فطريات تنتمى الى نفس فصيلة الفطريات التى تعيش فى الذباب وتؤثر فى جراثيم غرام السالبة كالتيفوئيد والديزونتاريا.

٤- وفى عام ١٩٤٩ تمكن عالمان انجليزيان هما «كومسى وفارمر» وعلماء آخرون من سويسرا هم «جرمان وروث واثلنجر وبلاتنر» من عزل مادة مضادة للحيوية أيضا أسموها «انياتين» عزلوها من فطر ينتمى الى فصيلة الفطر الذى يعيش فى الذباب ووجدوا لها فعالية شديدة جدا، وتؤثر بقوة على جراثيم غرام موجب وسالب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا.

٥- وفى عام ١٩٤٧ عزل «موفيتش» مواد مضادة للحيوية من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة، فوجدها ذات مفعول قوى على الجراثيم السالبة لصبغة غرام، كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدها ذات مفعول قوى على الجراثيم المسببة لأمراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة. وأن جراما واحدا من هذه المادة يمكنه أن يحفظ أكثر من ١٠٠٠ لتر من اللبن المتلوث بالجراثيم المذكورة.

والخلاصة.. يستدل من كل ما سبق أنه:

١- يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك، فيحمل بأرجله أو يمج كثيرا من الجراثيم المرضية الخطرة.

٢- يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام، أو هذا الشراب، فيلوثه بما يحمل من سم ناقع، أو يتبرز عليه فيخرج مع ونيمها تلك الجراثيم الدقيقة الممرضة.

٣- فإذا حملت الذبابة من الطعام. وألقيت خارجه دون غمس، بقيت هذه الجراثيم فى مكان سقوط الذبابة، فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعا. دخلت فيه الجراثيم. فاذا وجدت أسبابا مساعدة، تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طريحا للفراش.

٤- أما إذا غمست الذبابة كلها، أو مقلت فى الطعام فماذا يحدث؟ إذا غمست الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطا داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدى لانفجار الخلايا، وخروج الانزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتلة له. فتقع على الجراثيم التى تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها، ويصبح الطعام طاهرا من الجراثيم المرضية.

٥- وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيرا للحديث النبوى المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها فى السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذى يكافح ما تحمله من داء.

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه ﷺ.

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والأقذار بأرجله من النفايات والكنف والمزابل إلى الأطعمة والأشربة، والى فتحات الوجه والتنفس فيسبب الأمراض المعدية من تيفوئيد وسل وكوليرا وغيرها، وهذا ما أخبر عنه المصطفى ﷺ من أن بأحد جناحى الذبابة داء.

والداء يجب الوقاية منه والبعد عنه، ولا يكون ذلك إلا بمكافحة الذباب وإبادته والاحتراس منه.

ويقرر العلم الحديث أيضا كما رأينا أن فى الذباب طفيليا له ذيفان ضد الجراثيم، ويفتك بها بشدة وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جرثومه الا بعد وصول توتره الى درجة معينة، يكفى لبلوغه الضغط عليه بغمسه ولو فى الشراب أو الطعام. وهذا ما ورد فى الحديث عنه ﷺ، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٣، ٤].

(ب) عن عائشة أن فاطمة بنت أبى حبيش سألت النبى ﷺ فقالت: إنى أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة؟ فقال: «لا.. إن ذلك دم عرق، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسلى وصلى».

المسألة هنا كما يلى: للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر والدم الذى يخرج منها فى هذه الحالة يسمى

دم حيض وهذه المرأة يخرج منها الدم دائما وكانت تتصور أن هذا الدم كله دم حيض ولكن الرسول أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق.

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون الآن فى هذه الناحية؟

يقولون: إن الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه إلى نزيف يحدث فى بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم، ودم الحيض الذى يخرج منه فهل كان حديث أهل الاختصاص فى عصرنا الا مصدقا لما قاله عليه السلام من عصور لم يكن هذا فيها معروفا؟

(ج) روى مسلم عن طارق الجعفى أنه سأل النبى عن الخمر فنهاه عنه فقال: إنما أصنعها للدواء فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء».

إن هذا الحديث يذكر أن الخمر من أسباب المرض وليست من أسباب الشفاء. فماذا يقول الأطباء فى عصرنا؟ ننقل للجواب على هذا ما ذكره صاحب كتاب «روح الدين الإسلامي» فى هذا الموضوع وقد نقل هو قسما من بحثه عن كتاب «الاسلام والطب الحديث» يقول:

«الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة جدا فى جسم الإنسان فى عملية هضم المواد السكرية.. ولها فوائدها طبيا ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا (وطبعا الحديث لم يذكر أن ما يجرى داخل الجسم من عملية التخمر فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فإن زاد عن ذلك أحدث ضررا خصوصا إذا كان التعاطى لمدة طويلة، فإنه يحدث التهابا مزمنا فى الأعصاب وفى الكلى، وتصلبا فى الشرايين وتحجرا فى الكبد، وضعفا فى القلب ورب سائل يقول: لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط؟ (وطبعا لا يسأل هذا السؤال إلا إنسان يجهل أن الجسم متى اعتاد على الكحول، طلبه وغلب الإنسان، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلف عن أغلب المواد فى أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا فى قوة الارادة والحكم، وتزداد به الانفعالات النفسانية، وهذا هو الخطر، لأن الشخص يصبح شخصا آخر، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية، ومع علمه بضرر الزيادة فى حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه، وهو

تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشئ منه حركة انتعاش ولكن ضعف الارادة المتولدة منه يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر.

وإن تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول الى الدم للشخص البالغ، وهذا القدر يوجد فى كأس واحدة من الويسكى أو الكونياك، وقد لا يصل الشخص الى درجة السكر، ولكن على كل حال له أثر ملموس فى حالة الشخص الجسمية والعقلية، وإذا فحص الشخص فى هذه الحالة، نجد أن درجة إدراكه وتقديره قد تغيرت فعلا، فهو مثلا إذا كتب على الآلة الكاتبة، زادت أخطاؤه عن المعتاد، واذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور. وقد ثبت من الاحصائيات أن أكثر من ١٣ فى المائة من حوادث المرور سببها الخمر.

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئا من الارتفاع فى ضغط الدم، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه، ثم إذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجانا يزيد فى الضغط لدرجة ينفجر معها شريان فى المخ، يسبب شللا قد ينجو منه الشخص جزئيا أو لا ينجو كلية، إذ من المعلوم أن الشخص الذى ضغطه الدموى مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء فى حياته، لأن أى هيجان يزيد فى ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شريانى، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه، وبالتالى لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء.

والخمر تحدث عند غير المتعود عليها احتقانا فى المعدة، قد يسبب غثيانا أو قيئا، وإذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهابا فى المعدة وعسر هضم يمتد الى بضعة أيام.

ويرى بعض الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا، فهى ضارة بالخميرات فى طول القناة الهضمية. وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا. والخمر لها تأثير فى الوراثة. فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم، ضعفاء البنية ناقصى العقول، ويكون لديهم ميل الى الاجرام ودافع الى الشر. وأن من يبحث فى كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة. إذ يجد للخمر نصيب الأسد فى ذلك.

لقد أصبحت فكرة التداوى بالخمر محض خرافة وتأكد كونها داء بعشرات الطرق، وأقل ما فيها ما ذكره «بتنام» فى كتابه أصول الشرائع: النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفى الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون.

ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول لا ينقضها شئ لأنها محض الحق والصدق الذى لا تزيده الأيام إلا تثبيتا وتأكيدا.

(د) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله» رواه مسلم، وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله من داء الا أنزل له دواء» رواه البخارى. وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام» أخرجه أبو داوود. هذه الأحاديث تلح على أن لكل داء دواء فماذا قال الواقع؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم أن ذلك حق لا مرية فيه، ففى كل يوم يكشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف. ولعلك تلاحظ أن العلماء مقبلون على محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الواثق أنه لابد أن يكون لكل داء دواء وإن جهلوه الآن، ولكن لابد واجدوه. فأخذت هذه القضية مأخذ البديهية فى أذهانهم، وفى ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله لا تنتقض بل هى الصدق كل الصدق.

(هـ) مما قرره علماء الظواهر الطبيعية فى عصرنا أن ما ينزل سنويا من الأمطار فى العالم لا يتغير مقداره بتاتا، فلا يزيد ولا ينقص ولو مقدار بسيطا، وعللوا ذلك بأن ما تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة. والعوامل الأخرى التى تشارك فى وجود ظاهرة المطر تبقى ثابتة بالنسبة لمجموع الكرة الأرضية. فعلى هذا تكون نسبة بخار الماء فى الجو سنويا ثابتة ونسبة الأمطار بالتالى لا تتغير بتاتا فى كل عام، وأما ما نراه من كون المطر ينزل فى منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين، فهذا لا يؤثر على جوهر القضية، لأنه ينقص فى مكان على حساب زيادته فى مكان آخر، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وإن اختلت بالنسبة لكل منطقة على حدة.

وانظر بعد هذا الذى قدمناه إلى هذا الأثر تجد أن علماء عصرنا ما زادوا على أن

أكدوا مضمونه ليكون جزءا من شهادة الواقع على صدق الرسول عليه السلام والأثر هو : « ما عام بأمطر من عام » .

(و) روى أبو داوود والترمذى عن ابن عباس حديث دخوله وخالد ابن الوليد مع رسول الله على ميمونة . ومن الحديث قال : قال ﷺ : « من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه، ومن سقاه الله لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شئ يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن » .

إن هذه الحقيقة التى أشار إليها الحديث وهى كون الحليب هو الغذاء الكامل وأى غذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد، أصبحت الآن تجدها فى أى كتاب عن علم التغذية يصدر الآن، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب، وتقدمت الإنسان دالة له على ما ينفع ويضر، فان النتيجة التى أوصلت إليها إنسان عصرنا فى هذا الموضوع كانت متناسقة تماما مع ما أشار إليه الرسول فى الحديث بشكل واضح، وهذه الحقيقة على بساطتها تدلك كيف أن الكلمة النبوية كلها حق وصدق لا يزيدها مرور الأيام إلا ثباتا .

(ز) نشر الدكتور « جراد فنتسر » فى مجلة كوسموس الألمانية مقالا تحت عنوان : الأخطار التى تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منها .

جاء فيه :

« إن ازدياد شغف الناس بالكلاب فى هذا العهد الأخير، يضطرنا الى لفت الأنظار للأخطار التى تنجم عن ذلك وخاصة إذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وتقبيلها، والسماح لها بلحس الأيدى وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها . فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم، ومنافاته للآداب، لا يتفق وقوانين الصحة فان الأخطار التى تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها، فإن الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها إلى الإنسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى حد العدوان على حياته » .

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجما لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشريطية .

وقد رؤى فى إقليم فريزلند بهولندة حيث تستخدم الكلاب فى الجر، ان فى كل مائة منها ١٢ إصابة. ووجد فى اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة فى كل ٤٣ شخصا من أهاليها. وشوهد أن هذه النسبة تزيد فى استراليا إذ ثبت وجود شخص فى كل ٣٩ شخصا من سكانها مصابا بها. وثبت كذلك أنها كانت سببا مباشرا للكثير من الأمراض فى الأقطار الأخرى.

ثم يقول: ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب، وتعويد الأطفال التوقى منها. فلا تترك تلعق أيديهم ولا يجوز إبقاء الكلاب بمجال نزهة الأطفال، وميادين رياضتهم، ويجب أن لا تطعم الكلاب فى الأوانى المعدة لأكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم. وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الانسان ومشربه».

وإن من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر، لأنه أكثر من غيره تلوثا، فمثلا الستربتومايسين والتتراسكلين والنيوماسين، وكلها من مبيدات الجراثيم استفيد من التراب فى استخراجها لوجود ذيفان فى جراثيمه يقضى على أنواع من الجراثيم الأخرى.

ضع ما مر كله فى ذهنك واقرأ هذا الحديث:

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب». انك ترى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث.

٤- وأخيرا: فإنه ما من كلمة قالها رسول الله إلا وكان الحق والصدق ملأها. ولكن كلام رسول الله ينقسم الى قسمين:

١- ما له علاقة بالغيب.

٢- ما له علاقة بالمشهود المحسوس.

فالنوع الثانى فقط هو الذى يستطيع الانسان أن يختبره فإذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول مع جعل الله علامات أخرى تكون دليل صدقه فى أمر

الغيب، هى المعجزات والنبوءات. فرسول ثبت صدقه فى كل شئ مع هذه المؤيدات فلا يبقى مجال أمام الإنسان إلا التسليم له.

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة الصدق عنده عليه السلام:

الملاحظة الأولى: أن معرفة صحة الحديث، وتأكد ثبوته عن رسول الله. ينبغى أن يسبق دراسة المضمون. لأن كثيرا من الكلام دسَّ عليه وقد قام العلماء بتمحيص الصحيح من كل ما روى عنه عليه السلام كما سيمر معنا فى كتابنا «جند الله ثقافة وأخلاقا» فلابد من الرجوع الى ما أثبتوه أولا، ليكون تحليل المضمون قائما على أساس سليم، وينبغى أن يتوفر هذا فى كل دراسة لها علاقة برسول الله.

الملاحظة الثانية: أن بعض الألفاظ فى اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية الى مدلولات شرعية، فصارت تطلق على كلا المدلولين، وقد تستعمل فى القرآن وفى حديث الرسول تارة بالاستعمال الأول، وتارة بالاستعمال الجديد فلابد لدارس النص من أن يتأكد أولا من نوعية استعمال اللفظ فى النص الخاص الذى يدرسه. فمثلا كلمة «السماء» ذكرت أحيانا فى القرآن للدلالة على المعنى اللغوى وهو كل ما علا. وذكرت أحيانا للدلالة على السماء التى هى سكن الملائكة وفيها ما فيها من عالم الغيب فلابد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعرف بواسطة القرائن أولا المقصود الحقيقى من اللفظ فى هذا المحل. وقد أخطأ كثيرون بفهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهى ليست كذلك، وأنكروا قضايا هى من باب الحقائق، وهم فى كلا الحالين متوهمون، وجعلوا توهمهم من الاسلام، فحملوا الاسلام ما ليس منه جهلا.

الملاحظة الثالثة: ان بعض الأمور تكون نتيجة لعوامل كثيرة، كل عامل من هذه العوامل يكون سببا من عدة أسباب مؤثرة فيه، وفى هذه الحال. لو ذكر إنسان سببا فقط ولم يذكر الآخر لا يعنى هذا أنه ينفى البقية. فمثلا قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعب والضجر والعادة والملل، وقد تجتمع هذه الأسباب كلها عند إنسان، فلو قلت لهذا الإنسان: الحر جعلك تكسل لا يعنى هذا أننى أنفى الأسباب

الأخرى لكسله، وهناك كثير من القضايا ربطها الله بأسباب حسية وأسباب غيبية كالموت مثلا . فإن له سببا حسيا هو المرض وآخر غيبيا هو قبض الروح من قبل الملك الموكل بذلك، وأمور كثيرة من هذا النوع، والقرآن والحديث قد يتحدثان فى موقف عن السبب الحسى لقضية، وقد يتحدثان فى موقف آخر عن السبب الغيبى لها ولا يعنى أن ذكر أحدهما فى موطن نفى الثانى .

ومن هنا نجد أن كثيرين من الناس يتوهمون فى فهم بعض النصوص، فتراهم إذا قرأوا نصا يتحدث عن السبب الغيبى فقط لقضية لها سبب حسى كذلك، أنهم ينفون السبب الحسى أو العكس فى القضايا المقابلة، وذلك جهل عظيم يقابله جهل الذين يثبتون السبب الحسى فقط، ولا يثبتون معه السبب الغيبى الذى أخبرنا به الرسول الصادق . إن القوارع والجوائح والمصائب التى تصيب بنى البشر لها أسبابها العادية، ولا يتنافى هذا مع كونها بقدرة الله وإرادته انتقاما من الناس بما صنعوا وتذكيرا لهم حتى يرجعوا، قال تعالى : ﴿ **ولاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ** ﴾ [الرعد : ٣١] .

الملاحظة الرابعة : تمتلئ كتب التصوف الإسلامى بالحديث عن انكشاف بعض عوالم الغيب للناس من الصوفيين ويقولون : إن أى إنسان يفعل ما يفعلون يصل الى مثل الذى يصلون اليه من مثل هذه المشاهدات التى تزيد فى يقين الانسان، ويلاحظ أن من الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسا مجمعا على توثيقهم وصدقهم . وهذا لاشك من جملة المؤكدات لصدق رسالة الرسول . ولكنا نحب هنا أن نذكر بعض الضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قبوله من هذا الكلام فنقول :

١- أن إمكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة . أشار اليها الرسول ﷺ ووقعت لبعض الصحابة، فقد روى أحمد قول رسول الله لأصحابه وهو يسمع عذاب القبر : « لو لا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » . وقد روى مسلم قول رسول الله ﷺ لأبى بكر وحنظلة : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة ساعة وساعة » . وأخرج البخارى عن

أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبا منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه الى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: وتدرى ما ذلك؟ قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر اليها الناس، لا تتوارى منهم». وأخرج الشيخان والترمذى عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن».

٢- لكنا لا نستطيع قبول كلام يدعى صاحبه أنه رأى من مثل هذا إلا بشروط منها:

(أ) أن يكون ممن تقبل شهادته فالفاسق والمبتدع والضال جميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم فى مثل هذه القضايا.

(ب) وأن يكون هذا الإطلاع كأثر من آثار التزامه بشريعة الله، وسنة رسول الله. فلا نقبل كلام إنسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقا لم يشرعه لنا رسول الله، لأنه بعمله فسق والفاسق لا شهادة له.

(ج) وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقا مع ما أخبر عنه رسول الله فى هذه القضية، لأن رسول الله ﷺ وحده الذى لا يمكن أن يكون فى كلامه خطأ، ولأن الله جعله الحجةعلى الناس فى كل شئ فلا نقبل كلام إنسان ينقضه نص.

(د) وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئا تستحيل مشاهدته شرعًا فى قوانين كوننا الحالية. أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة فمن توفرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشوفات، فلا علينا لو قبلنا كلامه إذ لا مبرر لتكذيبه، ولم يعرف عنه الا الصدق، ولعل الفارق بين العقل الخرافى والعقل العلمى هو التثبت لا الانكار دون مبرر، فهذا نوع من المرض العقلى يشبه المرض الآخر.

الملاحظة الخامسة: أن هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج إلى تحليل ووضع لها فى محلها الصحيح:

١- ظاهرة الأحلام.

٢- ظاهرة التنويم المغناطيسى.

٣- ظاهرة تحضير الأرواح.

٤- ظاهرة الاتصال بعالم الجن.

٥- ظاهرة التلباثى.

هذه الظواهر أخذت محلها الآن فى معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الإيمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا، بصرف النظر عن تعليل هذه الظواهر، إلا أنها جميعا تشير الى قضية واحدة هى وجود عالم غيبى كما أخبر الرسل، تمثل هذه الظواهر جزءا منه.

فانكشاف شئ من المستقبل البعيد للانسان وهو فى حالة النوم، ووقوعه فى كثير من الأحيان حرفيا دون أن يكون فى بعض الحالات تفكير مسبق عنه، دليل على وجود علم محيط بالمستقبل، هو غيب بالنسبة لنا.

وظاهرة التنويم المغناطيسى تدل بشكل لا يقبل الجدل، على وجود الروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص، فالانسان فى حالة النوم المغناطيسى، تكون حواسه كلها معطلة، وحتى الأفعال الانعكاسية كذلك تكون فى حالة شلل تام، حتى لو وخزت النائم بإبرة فانه لا يظهر عليه أى شعور، ومع ذلك فانك تسأله عن أشياء بعيدة عنه، فيحدثك عنها وكأنه يراها وهو لا يعرفها فى حالة اليقظة، ولا يستطيع لو كان مستيقظا أن يجيب على أى سؤال مما أجاب عليه وهو نائم، فإذا استيقظ من هذا النوع من النوم فانه لا يتذكر شيئا مما سئل عنه وأجاب. وهذه نقول عجيبة سجلت فى حالات التنويم المغناطيسى:

نقل «بيو» فى كتابه: المخاطبات على التنويم المغناطيسى هذه المحاورة بين منوم ومنومة كما نقلها «شارول» قالت المنومة «هل تسمع ما يأمرنى به؟» فقال الدكتور: من هو الذى يأمرك؟ فقالت هى: ألست تسمعه فقال: كلا، لم أسمع شيئا ولم أر أحدا. فقالت: حقيقة لأنك نائم وأنا يقظى. فقال لها الدكتور: كيف ذلك أتدعين

أنى نائم وأنت يقظى، مع أنك تحت تأثير إرادتى فى الحالة المغناطيسية، إنك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلمينى، وأنك متمتعة بنوع من الإرادة، ولكنك فى الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحى جفنيك. فقالت: إنى أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظى تماما على مثل الحالة التى سنكون عليها جميعا فى يوم ما لأفسر لك ذلك. إن كل الذى تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالا غليظة مادية، فلا يمكن أن تميز إلا أشكالها الظاهرة، ولكن جمالها الحقيقى محجوب عنك تماما أما أنا ففى حالة وقوف وظائف أعضائى الآن وفى حالة حرية روحى من علائقها الاعتيادية، فإنى أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك إلى أن قالت: وأنى بمجرد الارادة استطيع أن أسمع الأصوات ا لبعيدة عنى ولو كان بينى وبينها مائة فرسخ. وبالإختصار فإنى لا أحتاج أن تأتى الأشياء إلى أنا بل أذهب إليها حيثما كانت، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أى انسان آخر لا يكون فى الحالة التى أنا عليها.

ونقل «أكزاكوف» فى كتابه: المذهب الروحى وفن استحضار الأرواح ما يلى:

إن زوجة الانجليزى الشهير «دومرجان» معتادة على تنويم امرأة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الى المحل الذى تعينه لها فقالت لها يوما وهى تحت تأثير النوم المغناطيسى: اذهبى الى منزلى القديم فقالت المنومة: قد فعلت وطرقت الباب بشدة. قالت زوجة دومرجان: فذهبت فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها. وسألت عما حصل فى تلك اللحظة فأجابنى السكان بأنهم سمعوا طرقا شديدا على الباب. فذهبوا اليه فلم يجدوا أحدا فعلموا أن ذلك فعل الأشقياء من الأطفال.

وينقل أكزاكوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تحضير الأرواح، هى أنه كان يحضر روحا مع ثلة من إخوانه، وكانت الواسطة امرأة شهيرة هى مدام «دسبرانس» فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة التى هى المرأة قد فقدت أطرافها السفلى تماما. وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم فى غاية الدهشة. فلم يجدوا لأطرافها أثرا ثم لما ذهبت الروح عادت اليها أطرافها. وقد شاهد مثل هذه الحادثة التى فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه علماء آخرون.

وظاهرة تحضير الأرواح كظاهرة التنويم المغناطيسى أصبحت منتشرة فى كل مكان فى العالم. وهى تدل بمجملها على وجود عالم الغيب. إذ الأرواح التى تحضر: قسم منها يذكر أنه أرواح بشر. وأخرى تذكر أنها أرواح جن، وهى كما رأيت فى بعض مظاهرها، تريك كيف أن بعض الأجسام لا ترى مع وجودها إذا كانت فى حالة روحية معينة.

واما ظاهرة التلباثى وهى الظاهرة التى تحدث لبعض الناس. إذ يشاهدون حوادث بعيدة جدا بشكل خارق، فهى كذلك تدل على أن فى الانسان شيئا غير الجسد، وأما ظاهرة الاتصال بالجن وهى ظاهرة موجودة بشكل واضح فى بعض المناطق ولها خصائصها الغريبة. فهى تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذى أخبر عنه الرسل. هذه الظواهر كلها تشير وتؤكد إلى أن هناك عالم غيب ولكن هذه الظواهر كلها لا يصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقا من طرق الهداية إذ ما من واحدة منها فيها ضمانة على أنها طريق سليم للمعرفة إذ يختلط بها الكذب بالصدق، والحق بالباطل، وروح الشيطان بروح الإنسان. وليست هناك مسئولية محددة، كما ان للدجل فى كثير من أحوالها نصيبا. لذلك يبقى أمام الانسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب. هو طريق الرسول المؤيد بالمعجزة من عالم الغيب، وهى شهادة ضمان كاملة على الحق. عدا عن كون البلاغ يأتينا عن مصدر ثقة مسئول مشاهد لنا معروف. وما دام الرسول وحده هو المصدر الوحيد للمعرفة فى موضوع عالم الغيب. فينبغى أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه. ليعرف حكم الجواز أو عدمه، كما ينبغى أن يعرض ما يأتينا منها على هديه ليعرف وجه الحق فيه، ولا يصح أبدا أن نعتبر أمثال هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقا من طرق الهداية المستقلة.

الملاحظة السادسة: أن سبب التزامنا ا لكامل بقول الرسول كمقياس وحيد للحق، هو أنه وحده الذى كلفنا الله باتباعه وتصديقه، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التى جعلها مؤيدة لها، وشاهد صدق عليه. فكان هذا ضمانا لنا بأنه على الحق والصدق اللذين لا شبهة فيهما. لأن الله وحده هو المحيط علما بكل

شئ، والمنزه عن كل خطأ، وهذا رسوله الذى ينطق بأمره ووحيه، فهو كذلك منزه عن الخطأ والباطل برعاية الله وتعليمه. وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق فى كل كلمة قالها رسول الله.

ذكرنا هذه الملاحظات الستة فى معرض الحديث عن صفة الصدق عند رسول الله لأن الذى يصرف بعض الناس عن الايمان شبهة لها علاقة بواحدة من هذه الملاحظات، كذلك الذى يستبعد وجود عالم غيبى، أو كذلك الذى أشكل عليه نص، أما لأن النص غير صحيح النسبة لرسول الله أو لعدم حمل الحديث على المعنى المراد أو لقصور الأطلاع وهكذا..

وعلى كل فإن ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها. وإلا فإن هذا البحث كله بأبوابه الخمسة كله برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذى يثلج القلب بإذن الله ببرد اليقين.

والآن ننتقل لاستعراض الصفة الأساسية الثانية للرسل وحظه الأكمل منها عليه الصلاة والسلام وهى:

٢- التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو إليه عليه السلام:

شهدت البشرية فى تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع. بين المقال والفعال، بين الدعوى والحقيقة، وكان دائما المثال والمقال والدعوى، أكبر من الواقع والفعال والحقيقة، وهذا شئ يعرفه من له أدنى معرفه بالتاريخ والحياة، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة فى واقع أتباع الرسل المخلصين وعلى عكسها تماما فى حياة الرسل، إذ فى حياة الرسل تجد أن واقعهم أعظم من كل تصور نظرى، فهم وحدهم الذين دعوا الانسانية إلى أعظم قمم السمو، ومثلوا هم بسلوكهم العملى هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب، وهذا بحد ذاته من أدلة صدقهم. إذ الالتزام بالسمو لا تطيقه النفس البشرية عادة ما لم تتهذب هذه النفس بدافع الخضوع لأمر الله بعد الإيمان به، ومعرفة أمره، ويستطيع الإنسان أن يعرف هذا بالتجربة، إذا شاهد أحوال الكافرين، فمثلا قد يحاول كافر أن يقلد مسلما فى صلاته متظاهرا بالإيمان، فاذا ما راقبت مثل هذا وجدته عمليا لا يبقى على حالة واحدة بالتطبيق، كما أن تطبيقه

يكون بسيطا جدا، ولو لم يكن فى وضع يراه الناس فإنه لا يفعل شيئا أصلا، فعندما ترى فى المقابل الرسل بعبادتهم العجيبة الكثيرة لله، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما فيه من مشقة أو جهد، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة فذلك لاشك دليل صدق لا يدحض.

ولما كان الكلام هنا خاصا بالحديث عن محمد رسول الله، وظهور هذا فى حياته العملية على أعلى ما يخطر بعقل بشر، رأينا أن نختار بعضا من الأوامر القرآنية التى وجهها الله لرسوله فى قضايا متعددة لنرى كيف كان قيام رسول الله بها دليلا كاملا على أنه رسول الله، وحرصنا أن تكون الأوامر التى ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله كل أمر أمر به بشكل كامل. بحيث لا يكون تنفيذه لأمر مضيعا لأمر آخر، كما نرى عند بعض الناس، إذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله فى العبادة مثلا، مفرطين ببقية أوامر الله وتكاليفه، لكن رسول الله كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق اليه، مع إحاطته وعدم تفريطه بأى جانب من جوانب الاسلام الذى كلف به، وأمر أن يدعو إليه، حتى أن الدارس المنصف لحياته فى هذا الجانب لا يتمالك الا أن يشهد أنه رسول الله حقا يقول الجلندى ملك عمان لما بلغه أن رسول الله يدعوه الى الاسلام: (والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود وأشهد أنه نبى).

والأوامر التى اخترناها لرؤية تطبيقه العملى لها هى ما يلى:

(١) قوله تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [الزمر:٦٦]

(٢) قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [البقرة:٢١٩]
﴿ **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [طه:١٣١]

(٣) قوله تعالى: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر:٨٨]

(٤) قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾
[التوبة:٧٣]

(٥) قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلنر نماذج من تطبيقه لكل أمر من الأوامر الآنفة الذكر مع ملاحظة أن كل أمر من أوامر الله له، كان يقوم به على مثل هذا. بحيث لا تجد أمرا من أوامر الله إلا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر لأنه أعلى إنسان مثل ا لعبودية لله على الأرض.

(١) نماذج من تنفيذه للأمر الأول:

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]:

أخرج الشيخان عن عائشة قالت: كان النبى يقوم ا لليل (أى مصليا لله) حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «أفلا أكون عبدا شكورا»!

وذكر المغيرة عن رسول الله مثل هذا.

وأخرج البخارى عن عائشة أن رسول الله كان يصلى إحدى عشرة ركعة (أى فى الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضطجع على شقة الأيمن حتى يأتيه المنادى للصلاة.

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: «صليت مع النبى ليلة فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء قيل: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه».

وأخرج مسلم عن حذيفة قال: «صليت مع النبى ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلى بها فى ركعة (أى بالبقرة) فمضى فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه السور تعدل سدس القرآن) يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربى العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ثم قام طويلا قريبا مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربى الأعلى فكان سجوده قريبا من قيامه».

وروى مسلم عن عائشة قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة (أى قيام الليل) من وجع أوغيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ».

وأخرج مالك والترمذى وأبو داوود عن عائشة قالت: فقدته ﷺ من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد يقول: « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ».

وأخرج البخارى عن أنس قال: كان رسول الله يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشأ أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما الا رأيته ».

وروى الترمذى عن عائشة قالت: « كان رسول الله يتحرى صوم الاثنين والخميس ».

وروى النسائى عن ابن عباس قال: « كان رسول الله لا يفطر أيام البيض فى حضر ولا سفر ».

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال: « كان رسول الله يعتكف العشر الأواخر من رمضان ».

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت: « كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله وأيقظ أهله وجد وشد المئزر ».

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت: « لم يكن النبى يصوم من شهر أكثر من شعبان فانه كان يصوم شعبان كله وفى رواية: كان يصوم شعبان إلا قليلا ».

وعن ابن مسعود قال: قال لى رسول الله: اقرأ على القرآن فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً** ﴾ [النساء: ٤١] فقال: حسبك فالتفت فاذا عيناه تذرفان (أى يبكى) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داوود ومالك.

وعن عائشة قالت: « كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه ».

وروى أبو داوود والترمذى باسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم».

وروى مسلم عن الأغر المزنى أن رسول الله قال: «أنه ليغان على قلبى وأنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة».

وقال الحسن بن على: سألت أبى عن دخول رسول الله (أى الى بيته) فقال: «كان دخوله لنفسه مأذونا له فى ذلك وكان إذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة».

وهذه نماذج متممة لما تقدم عن مناجاته لله وذكره له فى بعض أحواله:

عن جويرية زوج النبى أنا رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال: مازلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته».

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ اذا كبر للصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ، فقلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى، سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول: «اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد» أخرجه الخمسة إلا الترمذى وهذا لفظ الشيخين.

زاد أبو داوود والنسائى فى أوله: «اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى سجوده: «اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله، أوله وآخره، سره وعلانيته».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى» يتأول القرآن، أى يطبق ما جاء فى القرآن من أمر الله.

وفى أخرى لمسلم وأبى داوود والنسائى كان يقول فى ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح».

وعن جابر رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ركع قال: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعى وبصرى ولحمى ودمى وعظامى لله رب العالمين» أخرجه النسائى.

وعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ اذا رفع ظهره من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شئ بعد» أخرجه مسلم وأبو داوود والترمذى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدتين: «اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى» أخرجه أبو داوود والترمذى واللفظ له.

وعن على رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سجد قال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين» ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا أنت».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول بعد التشهد: «اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ليلة حين فرغ من صلاته يقول: «اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها أمرى،

وتلم بها شعثى وترد بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتلهمنى بها رشدى، وترد بها ألفتى، وتعصمنى بها من كل سوء. اللهم أعطنى إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة. اللهم انى أنزل بك حاجتى، وإن قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت الى رحمتك، فأسألك يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور. اللهم ما قصر عنه رأيى، ولم تبلغه مسألتى ولم تبلغه نيتى من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك، فانى راغب إليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين.

اللهم يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد. اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك حربا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك. اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان. اللهم اجعل نورا فى قلبى، ونورا فى قبرى، ونورا من بين يدى، ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى، ونورا فى دمى، ونورا فى مخى، ونورا فى عظامى، اللهم أعظم لى نورا، وأعطنى نورا، واجعل لى نورا سبحان الذى تعطف العز وقال به، سبحان الذى لبس المجد وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم. سبحان ذى المجد والكرم سبحان ذى الجلال والإكرام».

وعن ثوبان رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم يستغفر ثلاثا ويقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحى، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك الحق، والجنة حق،

والنار حق، والنبيون حق، ومحمد - ﷺ - حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت».

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول إذا أمسى: أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله. لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير. رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها. رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب أعوذ بك من عذاب فى النار، وعذاب فى القبر، وإذا أصبح قال ذلك: أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله».

عن أنس رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى الى فراشه قال: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا. وكفانا وآوانا فكم من لا كافى له ولا مؤوى».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ اذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ المعوذتين، وقل هو الله أحد، ويمسح بهما وجهه وجسده، يفعل ذلك ثلاث مرات فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من الليل قال: لا إله الا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك، اللهم زدنى علما. ولا تزغ قلبى بعد اذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

وعن على رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجعه: اللهم انى أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك الجد. سبحانك اللهم وبحمدك».

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال:

بسم الله توكلت على الله. اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نظلم أو نظلم. أو نجهل أو يجهل علينا».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك. ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا وأجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكثر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».

وعن مالك «أنه بلغه أن رسول الله ﷺ إذا وضع رجله فى الغرز وهو يريد السفر يقول: بسم الله اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل. اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر. اللهم انى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر فى المال والأهل».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ اذا قفل من السفريكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات، ثم يقول: لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير آيبون تائبون، عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وعن عبد الله الخطمى رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ودع أحدا قال: أستودع الله دينكم وأمانتكم، وخواتيم أعمالكم».

وله فى أخرى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك».

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أقبل الليل عليه فى السفر قال: يا أرض ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب. ومن ساكن البلد ووالد وما ولد».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب:

لا اله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر يقول : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث وقال : ألظوا بياذا الجلال والإكرام » .

عن الخدرى رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا استجد ثوبا قال : اللهم لك الحمد أنت كسوتنى هذا – ويسميه – : أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ اذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة يقول : اللهم انى أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ إذا خرج من الخلاء قال : غفرانك » .

عن فاطمة بنت الحسين بن على عن جدتها فاطمة الكبرى رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد – ﷺ – وقال : رب اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك، واذا خرج صلى على محمد – ﷺ – وقال : رب اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » .

عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمن والايمان، والسلامة والاسلام، ربى وربك الله » .

وعن قتادة رضى الله عنه قال : « أنه بلغه أن النبى ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاث مرات، آمنت بالذى خلقك ثلاث مرات، ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا » أخرجه أبو داوود .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه: اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير. واجعل الموت راحة لى من كل شر».

وعن أنس رضى الله عنه قال: «كان أكثر دعاء النبى ﷺ: اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

عن أنس رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات».

وعن أنس أيضا رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الجذام والبرص، والجنون ومن سئ الأسقام».

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

وعنه رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه، فقلت له فى ذلك، قال: أخبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه». فقد رأيتها: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً** ﴾

[النصر: ١ - ٣]

هذه نماذج من عبادته عليه الصلاة والسلام لله شكرا. وهذا كله ولم نذكر إقامته للصلوات الخمس ولا لرواتبها، ولم نتعرض لكل ما أثر عنه من عبادة لله جل جلاله، فهل بلغ احد فى عبادة الله وشكره ما بلغه رسول الله، وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقوع والحصول بهذا الكمال والجلال، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الانسجام والتوافق مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته. لولا أن محمدا رسول الله يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد.

(٢) نماذج من تنفيذه لأمر الله فى المثال الثانى

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: ١٣١].

روى البخارى ومسلم عن أنس أن النبى قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».

وروى البخارى عن أبى ذر رضى الله عنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال: يا أبا ذر فقلت: لبيك يا رسول الله فقال: ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينارا إلا شئ أرصده لدين الا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه. الدقل: ردئ التمر.

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى.

وروى البخارى عن عمر بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة.

وروى ابن جابر عن جابر رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى ﷺ فسأله فأعطاه ثم أتاه آخر فسأله فوعده فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا رسول الله.. سئلت فأعطيت. ثم سئلت فأعطيت، ثم سئلت فوعدت ثم سئلت فوعدت فكأن رسول الله ﷺ كرهها، فقام عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه فقال: أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذى العرش إقلالا، فقال: «بذلك أمرت». كذا فى الكنز ج ٣ ص ٣١١ .

وأخرج البزار بإسناد حسن والطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخل النبى ﷺ على بلال رضى الله عنه وعنده صبر من تمر فقال: ما هذا يا بلال؟ قال: أعد ذلك لأضيافك قال: ما تخشى أن يكون لك دخان فى نار جهنم أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ج١ص١٤٩ عن عبد الله نحوه ورواه أبو يعلى والطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه بنحوه بإسناد حسن وكما فى الترغيب ج٢ص١٧٤ .

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أهديت للنبى ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرا. فلما كان من الغد أتته[١] بها فقال رسول الله ﷺ: ألم أنهك أن ترفعى شيئا لغد، فإن الله يأتى برزق كل غد. قال الهيثمى ج١ص٢٤١ ورجاله ثقات.

وأخرج الطبرانى فى الكبير ـ ورواته ثقات محتج بهم فى الصحيح ـ عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة رضى الله عنها فلما كان عند مرضه قال: يا عائشة ابعثى بالذهب الى على، ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مرارا، كل ذلك يغمى على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة رضى الله عنها ما به. فبعث إلى على فتصدق بها. وأمسى رسول الله ﷺ فى حديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة رضى الله عنها بمصباح لها الى امرأة من نسائها فقالت: أهدى لنا فى مصباحنا من عكتك السمن فإن رسول الله ﷺ أمسى فى حديد الموت.

(١) لعل المقصود إحدى زوجاته ﷺ.

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه. كذا في الترغيب ج٢ص١٧٨ وعن أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: أمرنى رسول الله ﷺ أن أتصدق بذهب كان عنده في مرضه. قالت: فأفاق، قال: ما فعلت؟ قلت: شغلنى ما رأيت منك. قال: فهلم بها قال: فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة _ أبو حازم يشك _ دنانير. فقال حين جاءت بها: ما ظن محمد لو لقى الله وهذه عنده وما تنفى هذه من محمد ﷺ لو لقى الله وهذه عنده، قال الهيثمى (ج١٠ص٢٤٠): رواه أحمد بأسانيده، ورجال أحدها رجال الصحيح.

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير. قال: فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ في ناحية في الغرفة. وإذا اهاب معلق فابتدرت عيناى فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب فقال: يا نبى الله، وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزانتك. قال: يا ابن الخطاب. أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض وفي رواية: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض.

وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختى إن كنا ننظر الى الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا «متفق عليه».

وعن أنس رضى الله عنه قال: لم يأكل النبى ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزا مرققا حتى مات.

وعن خالد بن عمر العدوى قال: خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميرًا على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد الا أصبح أميرا على مصر من الأمصار وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا. رواه مسلم.

وعن جابر رضى الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا. متفق عليه.

وعن أنس رضى الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع الى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها. رواه مسلم.

وعن عمر رضى الله عنه قال: قسم رسول الله ﷺ قسما فقلت: يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم؟ فقال: أنهم خيرونى أن يسألونى بالفحش فأعطيهم أو يبخلونى ولست بباخل.

وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه قال: بينما هو يسير مع النبى ﷺ مقفله من حنين فعلقه الأعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبى ﷺ فقال: «أعطونى ردائى فلو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا». رواه البخارى. مقفله: حال رجوعه. السمرة: شجرة، والعضاة: شجر له شوك.

وأخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال عمر: لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك. فقال عمر: يا رسول الله.. لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: هن حولى يسألننى النفقة. فقام

أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال: إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك، قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] – قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال ﷺ: إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسر إلا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها. وأخرجه مسلم والنسائى، وعند ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قالت عائشة: أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه فقال ﷺ: إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك، قالت: وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت ثم قال: إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾– الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة، وأخرجه البخارى ومسلم عن عائشة مثله.

هذه الأمثلة على الزهد والانفاق وتحمل خشونة الحياة والاقبال على الله طلبا لمرضاته. وحرصا على نيل ثوابه فى اليوم الآخر وهى يسير من كثير، تبين كيف قام رسول الله ﷺ بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق، اذ لو رجعت الى الأمرين اللذين ذكرنا الأمثلة على تطبيقهما. فإنك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا فى تنفيذ أمر الله وإنه لمجافاة لكل واقع بشرى وتنكب عن كل حقائق النفس البشرية، أن نتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ، بهذا الشكل، لمثل هذه الأوامر، يمكن أن يكون، لو لا أن صاحبه رسول لله حقا. صغرت لديه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم كل شئ ويهون فى سبيله كل شئ.

(٣) نماذج من تنفيذه للأمر الثالث:

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨].

وعاتب الله رسوله ﷺ لأنه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الاسلام على

زعيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم. تقول عائشة: أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [عبس: ١] فى ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدنى وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى بما أقول بأسا؟ فيقول لا ففى هذ «أنزلت» أخرجه مالك والترمذى.

وآيات العتاب هى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى* ﴾

[عبس: ١-١٠]

فكيف كان رسول الله ﷺ بعد هذا العتاب وبعدذلك الأمر فى علاقته بالمؤمنين عوامهم وخواصهم؟

أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفا، والله! ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه وما سأله سائل قط الا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه، وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزعها منه.

وعند يعقوب بن سفيان عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صافح _ أو صافحه _ الرجل لا ينزع يده، وإن استقبله بوجه لا يصرفه عنه، حتى يكون الرجل ينصرف عنه، ولا يرى مقدما ركبتيه بين يدى جليس له. ورواه الترمذى وابن ماجه، كما فى البداية ج٦ص٣٩ .

وعند أبى داوود عنه قال: ما رأيت رجلا قط التقم أذن النبى ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه، وما رأيت رسول الله ﷺ آخذا بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده.

تفرد به أبو داوود كذا فى البداية ج٦ص٣٩ .

وأخرج البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا جاء الى النبى ﷺ يستعينه فى شئ قال عكرمة رضى الله عنه: أراه قال: فى دم، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال: أحسنت اليك؟ قال الأعرابى: لا ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا اليه، فأشار رسول الله ﷺ اليهم أن كفوا، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ منزله دعا الأعرابى الى البيت فقال: إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت، فزاده رسول الله ﷺ شيئا وقال: أحسنت اليك؟ فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا! قال النبى ﷺ: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفى نفس أصحابى عليك من ذلك شئ فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم! فقال: نعم، فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، كذا يا أعرابى؟ فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا! فقال النبى ﷺ: إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها! فتوجه اليها وأخذ من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وأنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار.

وأخرج الطبرانى عن أبى غالب قال: قلت لأبى أمامه رضى الله عنه حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: كان حديث رسول الله ﷺ القرآن يكثر الذكر ويقصر الخطبة ويطيل الصلاة ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته. وإسناده حسن، كما قال الهيثمى فى (ج٩ص٢٠) وأخرجه البيهقى والنسائى عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه نحوه كما فى البداية (ج٦ص٤٥)

وأخرج الترمذى فى الشمائل (ص٢٥) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم فقلت: يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر رضى الله عنه فقال: أبو بكر فقلت: يا رسول الله! أنا خير أم عمر رضى الله

عنه. فقال: عمر، فقلت: أنا خير أم عثمان رضى الله عنه، فقال: عثمان فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته. وأخرجه الطبراني عنه نحوه وإسناده حسن كما قال الهيثمي (ج٩ص١٥) وقال في الصحيح: بعضه بغير سياقه.

وعند البزار والطبراني عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ولم يكن يرى ركبتيه - أو ركبته - خارجا عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يصافحه الا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه، وإسناد الطبراني حسن.

وعند أحمد عن أنس رضى الله عنه قال: إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت. (رواه ابن ماجه). وعند أحمد عنه قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حاجتها. ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه معلقا كما في البداية ج٦ص ٣٩، وروى مسلم في صحيحه ج٢ص٢٥٦ عن أنس أن امرأة كان في عقلها شئ فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها. وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص٥٧ عن أنس مثله.

وأخرج مسلم (ج٢ص٢٥٣) عن أنس رضى الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اخذ أبو طلحة رضى الله عنه بيدي فانطلق بي الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك قال: فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشئ صنعته؟ لم صنعت هذا هكذا ولا لشئ لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟ وعنده أيضا عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا فأرسلني يوما لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون في السوق فاذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت اليه وهو يضحك فقال: يا أنس اذهب حيث أمرتك، قال: قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشئ صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ ولشئ تركته: هلا فعلت كذا وكذا وعنده أيضا عنه

قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله، ما قال لى أفا قط، ولا قال لى لشئ: لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا؟

وعند أبى نعيم فى الدلائل صفحة ٥٧ عن أنس رضى الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ سنين فما سبنى سبة قط ولا ضربنى ضربة ولا انتهرنى ولا عبس فى وجهى ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه، فان عاتبنى عليه أحد من أهله قال: دعوه فلو قدر شئ لكان.

وأخرج البزار عن جابر رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ اذا أتاه الوحى أو وعظ قلت: نذير قوم أتاهم العذاب، فإذا ذهب عنه ذلك رأيت أطلق الناس وجها وأكثرهم ضحكا وأحسنهم بشرا. قال الهيثمى جـ٩ص١٧: إسناده حسن.

وأخرج البيهقى وابن النجار عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبى ﷺ فقال لها: من أنت؟ قالت: جثامة المزنية قال: بل أنت حنانة المزنية، كيف أنتم، كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله فلما خرجت قلت: يا رسول الله؟ تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة هذه كانت تاتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الايمان.

وأخرج البخارى فى الأدب ص١٨٨ عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير فأتته امرأة فبسط لها رداءه. قلت من هذه؟ قال: أمه التى أرضعته.

وروى الطبرانى عن الحسن بن على رضى الله عنهما وقد سأل أباه عن بعض صفات رسول الله ﷺ فكان من سؤاله وجواب على ما يلى:

قال الحسن: وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ فقال: «كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما فى الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه (يجعله ضعيفا واهيا بالمنع والزجر عنه) معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه،

الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة».

قال فسألته عن مجلسه كيف كان؟ فقال: «كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك، يعطى كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو لميسور من القول. قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا له أبناء عنده فى الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحرم. ولا تثنى فلتاته (أى لا تشاع زلاته وهفواته والمراد لا فلتات فى مجلسه) متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير، يؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب».

قال فسألته عن سيرته فى جلسائه فقال: «كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ (أى سئ الخلق)، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مزاح، يتغافل عما لا يشتهى، ولا يوئس منه راجيه، ولا يخيب فيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى أن كان أصحابه ليستحلبونه فى المنطق (وفى الكنز ليستجلبونهم)، ويقول: إذا رأيتم صاحب حاجة فارفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز، فيقطعه بانتهاء، أو قيام».

هذه أمثلة من مواقفه مع المؤمنين، وتواضعه وخفض جناحه لهم، ارجع بعد دراستها الى الآية التى أمرته بذلك فهل تراه إلا قائما بها حقا وهل ترى إنسانا يبلغ عشر ما بلغه محمد ﷺ من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغار والرؤساء والأتباع هذه المعاملة على سواء؟ وهل هذا وضع طبيعى للنفس البشرية لولا أن الله

هذبها وكانت مؤمنة بالله فعلا متصلة به حقيقة طائعة له طاعة فناء، اللهم ما كان هذا ليكون لولا أن محمداً عبدك ورسولك.

(٤) نماذج من تنفيذه للأمر الرابع :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة :٧٣]

إن خلق الرحمة عند رسول الله لا يدانيه فيه أحد من خلق الله أخرج الشيخان عن أنس أن نبى الله قال : إنى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجـد أمه من بكائه، ووسعت رحمته الناس حتى قال الله له : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً** ﴾ [الكهف :٦] وقد ظهرت هذه السجية على طبيعتها يوم فتح مكة إذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا كما ظهرت على سجيتها بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الأسرى ولم يكن نزل عليه من أمر الله فى القضية شئ وإنما هو الاجتهاد الذى أذن فيه لرسول الله فى هذه القضايا وكان أمام الرسول اقتراحان فى شأن الأسرى اقتراح أبى بكر واقتراح عمر وكان اقتراح أبى بكر أخذ الفداء وإطلاق السراح. وكان اقتراح عمر القتل حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوب المسلمين رحمة بالكافرين، وأخذ رسول الله برأى أبى بكر لأنه أقرب لطبعه، وهو الذى لاقى من قومه ما لاقى ثم أن الله عاتبه فى هذه القضية على اللين وليس من إثم ولكن الله يريد أن يأخذ رسوله بالحزم فقال له ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنفال :٦٧] ثم نزلت أوامر الله تطالب رسول الله بالجهاد والشدة والغلظة على الكافرين فأصبحت ترى رسول الله بعد هذه الرحمة الكبيرة والصبر الطويل والتحمل الكثير والمسالمة الدائمة. المقاتل الشديد والمنفذ الذى طاعة الله فوق كل عواطفه، بل عواطفه هى تنفيذ أمر الله، واستعراض بسيط لحياته الحربية عليه السلام يرينا أن هذا النوع من القتال الذى خاضه عليه السلام ما كان ليكون من صنع بشر، لولا أن هذا الانسان ينفذ أمر الله، معتمدا عليه، فانه ما من مقدمة فى حياة الرسول تشير الى مثل هذه النتائج، لو لا أن المسألة ربانية الطريق بدءا وختاما، أسلوبا وتنفيذا. رب يأمر وعبد رسول ينفذ :

يؤمر ألا يخشى شيئا فلا يخاف إلا الله ويؤمر بأن يتوكل على الله ويعتمد عليه

وحده فيدخل أى معركة بما يتوفر له من قوة دون خوف من أى حشد يقابله، ويؤمر بألا يكون فى قلبه رحمة بالكافرين فيضرب حتى يستأصل، ويؤمر بمتابعة القتال فيقاتل ولما يسترح، ويؤمر بالعمل المتواصل حتى يخضع أعداء الله فلا يكاد ينتهى من تهيئة غزوة الا الى غيرها، ومن إخضاع منطقة إلا الى منطقة أخرى. وهكذا حتى يضع أتباعه على الطريق لإخضاع العالم بعده لسلطان الله.

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلاث مائة وخمسة عشر رجلا، وعدد المشركين حوالى ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة ويدخل الرسول ﷺ المعركة وينتصر بها ولا يعتمد إلا على الله.

روى مسلم وأبو داوود والترمذى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة. ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك فقال ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال فارجع فلن أستعين بمشرك. قالت: ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال: كما قال أول مرة. فقال له ﷺ كما قال أول مرة قال فارجع فلن أستعين بمشرك. ثم رجع فأدركه بالبيداء. فقال له كما قال أول مرة. وقال: هل تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم. قال: فانطلق. فانطلق معه.

وروى مسلم عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال: قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى الحسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا إنكم تريدون محمدا فقلنا: ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له ﷺ فقال: انصرفا نفى لهم ونستعين بالله تعالى عليهم.

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم الى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة رضى الله عنه عرى فى عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا قال: وجدناه بحرا أو إنه لبحر وكان فرسا يبطئ. وأخرج البخارى عن أبى إسحاق: سمع

البراء بن عازب رضى الله عنه وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفرر.

والمعروف أن رسول الله ثبت يوم حنين بعشرة من أصحابه أدار بهم المعركة التى فر فيها اثنا عشر ألفا ثم كان النصر بعد الهزيمة وفى غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول ﷺ المعركة، وأفشل المعركة بعض المتسرعين الذين لم يلتزموا خطة رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون يومها إصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل الى بلده ولكن رسول الله ﷺ ما كاد يصل الى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع فخرجوا بجراحهم وآلامهم وساروا وراء قريش فبلغ قريشا الخبر ففرت وتحولت الهزيمة الى انتصار وأكثر من هذا فقد قطع على قريش خط الرجعة إذ فكروا وهم عائدون أن يرجعوا الى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لجذور الاسلام. مع ملاحظة أن رسول الله بقى يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله ﷺ أبدا.

وفى غزوة الأحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله ﷺ ونقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ وأصبح المسلمون فى وضع لا يطيقه أحد من البشر يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد وثبت رسول الله ﷺ حتى انسحبت الأحزاب ولم يتمهل رسول الله ﷺ بعد انسحابهم حتى سار الى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله ﷺ بأن يلتزموا بحكمه فأعطوه فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم فقتل رسول الله ﷺ منهم فى يوم واحد أربعمائة رجل صبرا.

وهاجم الدولة الرومانية وهى يومها من هى، وقوته لم تبلغ الا قليلا مما فتح لأصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة الفارسية بآن واحد على قلة فى العدة والعدد وانتصروا بتلك الشعلة التى أشعلها بهم الله على يد رسوله ﷺ، ويكفى أن تعلم أن رسول الله ﷺ غزا بنفسه كما يروى مسلم تسع عشرة غزوة هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التى كان يرسلها. هذا مع أن بقاءه فى المدينة كانت مدته كلها عشر سنوات.

والحديث عن غزواته طويل جدا نجده مفصلا فى كتب السيرة.

ويكفى أن نذكر أن من آثارها توحيد الجزيرة العربية كلها، بيمنها وحجازها ونجدها وسواحلها، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله، وفتح لأتباعه طريق العمل العالمى. من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا. ونحن هنا لا نريد التفصيل وإنما نريد فقط إبراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله وهو بالتالى ما دعا إليه فكان فى كل شئ لا تخالف أعماله دعوته.

(٥) نماذج من تطبيقه للأوامر فى المثال الخامس:

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ [النساء:١٣٥] **﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾**
[المائدة:٤٩]

أخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله فى غزوة الفتح ففزع قومها الى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال: أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى؟ فقال أسامة: استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت عائشة: كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله.

وأخرج أبو داوود عن العرباض بن سارية السلمى قال:

نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا فأقبل الى النبى فقال: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا تضربوا نسائنا؟ فغضب رسول الله وقال: يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد أن الجنة لا تحل الا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال: أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما فى القرآن الا أنى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر وان

الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذى عليهم.

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال: يا محمد.. إن لى على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها قال: أعطه حقه قال: والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: أعطه حقه قال: والذى نفسى بيده ما أقدر عليها قد أخبر أنك تبعثنا الى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئا فأرجع فأقضيه، قال: أعطه حقه، وكان رسول الله إذا قال ثلاثا لم يراجع فخرج ابن أبى حدرد الى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة فنزع عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال اشتر منى هذه البردة فباعها منه بأربعة دراهم فمرت عجوز فقالت مالك يا صاحب رسول الله فأخبرها فقالت: ها دونك هذا البرد ــ لبرد عليها طرحته عليه. وأخرجه أحمد أيضا.

وأخرج ابن ماجة عن أبى سعيد قال: جاء أعرابى الى النبى يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال: أحرج عليك إلا قضيتنى، فانتهره أصحابه فقالوا: ويحك تدرى من تكلم؟ فقال: إنى أطلب حقى فقال النبى: هلا مع صاحب الحق كنتم؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها: إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت: نعم بأبى وأمى يا رسول الله فاقترضه فقضى الأعرابى وأطعمه فقال: أوفيت أوفى الله لك فقال: أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متمتع.

وأخرج أبو داوود عن أسيد بن حضير: أن رجلا من الأنصار كان فيه مزاح فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم إذ طعنه النبى فى خاصرته بعود كان فى يده فقال: اصبرنى يا رسول الله (أى مكنى من نفسك لأقتص منك) قال: اصطبر فقال: ان عليك قميصا وليس على قميص فرفع النبى قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه (الكشح ما فوق شد الازار من جانب البطن) وقال إنما أردت هذا يا رسول الله.

أخرج الطبرانى عن عبد الله بن سلام بإسناد رجاله ثقات قال:

لما أراد الله هدى زيد بن سعنة قال زيد بن سعنة ما من علامات النبوة شئ إلا

وقد عرفتها فى وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله يوما من الحجرات ومعه على ابن أبى طالب فأتاه رجل على راحلته كالبدوى فقال: يا رسول الله.. لى نفر فى قرية بنى فلان قد أسلموا ودخلوا فى الاسلام وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الاسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا فإن رأيت أن ترسل اليهم بشئ تغيثهم به فعلت فنظر الى رجل بجانبه أراه عليا فقال: يا رسول الله ما بقى منه شئ قال زيد بن سعنة :فدنوت اليه فقلت: يا محمد هل لك أن تبيعنى تمرا معلوما فى حائط بنى فلان الى أجل معلوم الى أجل كذا وكذا قال: لا تسمى حائط بنى فلان قلت: نعم فبايعنى فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب فى تمر معلوم الى أجل كذا وكذا فأعطانى الرجل (يظهر أنها فأعطاها الرجل) وقال: أعدل عليهم وأغثهم قال زيد بن سعنة فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فى نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا الى الجدار ليجلس إليه أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ونظرت اليه بوجه غليظ قلت له: يا محمد ألا تقضينى حقى فوالله ما علمتم بنى عبد المطلب إلا مطلا ولقد كان بمخالطتكم علم. ونظرت الى عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ثم رمانى ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ وتصنع به ما أرى؟ فوالذى نفسى بيده لو لا ما أحاذر قوته لضربت بسيفى رأسك ورسول الله ﷺ ينظر الى فى سكون وتؤدة. فقال: يا عمر أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما رعته. قال زيد: فذهب بى عمر فأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعا من تمر. فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر! قال أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك وقال: وتعرفنى يا عمر؟ قال: لا. قلت: أنا زيد ابن سعنة. قال: الحبر. قلت: الحبر. قال: فما دعاك الى أن فعلت برسول الله ما فعلت؟ وقلت له ما قلت؟ قلت: يا عمر.. لم يكن من علامات النبوة شيئا الا وقد عرفت فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه

الا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما وقد اختبرتهما، أشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرها مالا – صدقة على أمة محمد ﷺ قال عمر: أو على بعضهم فانك لا تسعهم، قلت: أو على بعضهم. فرجع عمر وزيد الى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه، وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم توفى فى غزوة تبوك مقبلا غير مدبر – رحم الله زيدا.

من هذه الآثار يتبين كيف قام رسول الله بالقسط، وأقامه على نفسه وأتباعه وأصحابه بلا محاباة ولا مداراة ولا مداهنة، فكان فى ذلك فى القمة التى لا يرقى إليها راق فى تنفيذ أمر الله وتطبيقه.

هذه نماذج رأينا فيها خمسة أوامر لله ورأينا كيف أن رسول الله قام بها بالشكل الذى لا يبقى معه مزيد لمستزيد، وهذا الذى رأيناه هنا هو الذى نراه فى كل أمر أمر الله به عباده حتى أن عائشة لما وصفت خلق رسول الله قالت: «كان خلقه القرآن» وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة الا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلا، فإنه يرى بوضوح أنه ما من أمر وجهه الله لخلقه، إلا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذا له وتطبيقا، بلا تفريط بأمر من أوامر الله وأى أمر من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله له دلك هذا التنفيذ على أن محمدا رسول الله، وقد رأيت فى الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الذى يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول، أو تابع رسول يقتدى به، وهذه الصفة التى مرت معنا هى التى يسميها علماء المسلمين الأمانة، إذ الأمانة عندهم تعنى القيام بما كلف الله به عباده أخذا من قوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فالأمانة هى التكليف وحملها هو إقامة ما كلف الله به عباده والرسل هم قدوة البشر فى القيام بأمر الله فلابد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أى التزاما صادقا بما يدعون الخلق اليه نيابة

عن الله، ووجود هذا الالتزام مع بقية شروط الرسالة، دليل من جملة الأدلة التى تثبت أن هذا الملتزم بما يدعو اليه الخلق من فضائل هو رسول لله رب العالمين.

والآن وقد وضح أن لرسول الله الحظ الأعلى من الصفة الثانية التى ينبغى أن يتصف بها كل من كان رسولا لله حقا، فلننتقل الى الصفة الأساسية الثالثة لكل رسول وهى تبليغ دعوة الله مهما كانت الظروف، لنرى كذلك أن لرسول الله الحظ الأعلى منها، ونرى فى كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقا.

٣- تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملا:

لقد سلك رسول الله كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله على الوجه الأكمل، وسلك الناس فى المقابل كل طريق يخطر بالبال ليثنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل:

اتصل بالأفراد اتصالا شخصيا، وعرض نفسه على قبائل العرب ورحل من أجل تبليغ الدعوة وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين. وراسل الأمراء والملوك داعيا لهم الى الله وكلف أصحابه أن يتعلموا ويلموا ويعلموا وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا الى الإسلام، حتى لا يبقى أحد من البشر الا وقد بلغ، وقامت عليه الحجة، وفى المقابل ما ترك الآخرون طريقا إلا سلكوه لإنهاء الدعوة والداعية.

سلكوا طريق الايذاء له ولأتباعه ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وسلكوا طريق الإغراء ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وسلكوا طريق الضغط العائلى ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وسلكوا طريق الاستهزاء والإعراض والسخرية والاتهامات ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن آزره ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وقرروا قتله وملاحقته ليثنوه عن التبليغ فما فعل. وطال الزمن والمستجيبون قليلون، والجميع يحاولون إيئاسه واستمر، ثم حاربوه ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله، ثم انتصر وانتصر دينه ولا زال ينتصر ويتقدم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمسلمين، وكل ذلك ببركات الداعية المبلغ الأول.

وقبل أن نستعرض نماذج عن هذا كله. نحب أن نؤكد التذكير بشيء حتى لا يلهينا العرض عن الغاية.

كنه هذا الشيء هو: أن إثباتنا هذه الصفات لرسول الله وبرهاننا على ذلك، كل هذا من أجل الوصول الى برد اليقين بالإيمان به. واتباعه عن ثقة بأنه لا حق إلا ما أخبرنا أنه حق، فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من تحريه له تطمئن إذا أخبرك عن شئ. والرسول كذلك، وقيام الرسول بتكاليف دعوته على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن جهد ونصب دون انتظار مكافأة ما فى الحياة الدنيا طاعة لله، دليل آخر على رسالته إذ غير هذا الطريق لطالب غير الله أسهل.

وأما عملية التبليغ فليست هى عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التى يقوم بها بقية البشر، فى الدعوة لفكرة ما، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند الرسل دليلا على صدقهم فى كونهم مرسلين من عند الله.

ان غير الرسل يدعون الناس الى شئ تألفه نفوسهم وتهواه. أى أنهم يأتون الناس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئا ولا يحتاجون الى تضحية، وأحيانا يضحون ولكن ينتظرون كسبا ماديا أكثر من تضحيتهم. وتراهم دائما يلاحظون السلامة الا اذا أتاهم ما لم يكن بالحسبان. وترى الحياة عزيزة جدا عليهم وما أسهل ما ينسون دعوتهم اذا يئسوا من الكسب أو النصر. ونحن لا نعنى بالطبع هنا أتباع الرسل إذ هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل فعندهم من حرارة إخلاصهم أن حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على التبليغ عند الرسل لدعوة الحق مقدم على كل شئ.

إن الرسل يبلغون الناس رسالة الله التى فيها ضبط نفوس البشر، حتى تستقيم على السنن الصحيح للحياة، وهم بهذا يدخلون فى صراع مع أهواء البشر، ولكل انسان هوى، فهم يدخلون فى صراع مع الناس جميعا، والصعوبة التى يعانونها من أعدائهم يعانون قريبا منها فى تربية أتباعهم والارتفاع بهم إذ البشر هم البشر على كل حال، وتجاوز الرسول لهذه العقبات كلها. وثباته على دعوة الحق بلا مداراة ولا مواربة بل مطالبة للنفس البشرية بواجباتها كاملة، وصبره على ذلك، وتحمله كل شئ فى هذا السبيل مرضاة لله. كل هذا دليل على حرارة الصدق والإخلاص للدعوة والله المكلف بها. وسنرى فى كل نموذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله وما رافقه شاهد صدق على هذا الذى قدمناه.

وسنقدم نوعين من النماذج:

١- نماذج عن مواقف الكافرين منه ليثنوه عن الاستمرار بالتبليغ.

٢- نماذج عن الطرق التى سلكها للقيام بعملية التبليغ.

(١) نماذج النوع الأول:

(أ) إيذاؤه وصبره على ذلك:

١- أخرج الطبرانى عن الحارث بن الحارث قال قلت لأبى: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم. قال: فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الى توحيد الله عز وجل والايمان وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحا ومنديلا فتناوله منها وشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال: يا بنية خمرى عليك نحرك ولا تخافين على أبيك. قلنا: من هذه ؟ قالوا: هذه زينب بنته. رضى الله عنها.

وعنده أيضا عن منبت الأزدى قال: رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا: لا اله إلا الله تفلحوا. فمنهم من تفل فى وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار. فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة. فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ وهى جارية وضيئة.

٢- وأخرج البيهقى عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا فرجع الى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكى فجعل يقول: اى بنية.. لا تبكى فان الله مانع أباك.

٣- وعن ابن أبى شيبة عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبى ﷺ الا يوما ائتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة ورسول الله ﷺ يصلى عند المقام. فقام اليه عقبة بن أبى معيط فجعل رداءه فى عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر رضى الله عنه

يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من ورائه ويقول: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر:٢٨].

ثم انصرفوا عن النبى ﷺ، فقام رسول الله ﷺ فصلى. فلما قضى صلاته مر بهم – وهم جلوس فى ظل الكعبة – فقال: يا معشر قريش.. أما والذى نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح وأشار بيده الى حلقه. فقال أبو جهل: ما كنت جهولا. فقال له رسول الله ﷺ: أنت منهم.

٤– وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال:

قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته.

قال: حضرتهم – وقد اجتمع أشرافهم فى الحجر – فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا وعاب ديننا، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم – أو كما قالوا – قال فبينما هم فى ذلك اذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فاقبل يمشى حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت. فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول.

(غمزوه: أى أشاروا إليه) قال: فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى. فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى. فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال:

أتسمعون يا معشر قريش أما والذى نفس محمد بيده.. لقد جئتكم بالذبح.

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وضاءة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول:

انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدا، فوالله ما كنت جهولا.

فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ــ وأنا معهم ــ فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى اذا بادلكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل

واحد . فأطافوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم. قال فيقول رسول الله ﷺ : نعم. أنا الذى أقول ذلك . قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر رضى الله عنه دونه يقول وهو يبكى «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله»؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط.

٥- وأخرج البزار والطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ فى المسجد وأبو جهل ابن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم فى الحجر ورسول الله ﷺ يصلى فلما سجد أطال السجود.

فقال أبو جهل: أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنكفئه على محمد - ﷺ - فانطلق أشقاهم عقبة بن أبى معيط فأتى به فالقاه على كتفيه ورسول الله ﷺ ساجد. قال ابن مسعود: وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندى منعة تمنعنى فأنا ذاهب، إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فاقبلت حتى ألقت عن عاتقه ثم استقبلت قريشا تسبهم فلم يرجعوا اليها شيئا، ورفع رسول الله ﷺ رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود. فلما قضى ﷺ صلاته قال:

اللهم عليك بقريش - ثلاثا - عليك بعتبة وعقبة وأبى جهل وشيبة. ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البخترى بسوط يتخصر به، فلما رأى النبى ﷺ أنكر وجهه فقال: مالك؟

فقال النبى ﷺ : خل عنى؟

قال: علم الله لا أخلى عنك أو تخبرنى ما شأنك؟ فلقد أصابك شئ. فلما علم النبى ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره فقال: إن أبا جهل أمر فطرح علــى فرث، فقــال أبو البخترى: هلم الى المسجد فأتى النبى ﷺ وأبو البخترى فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البخترى الى أبى جهل فقال: يا أبا الحكم أنت الذى أمرت بمحمد - ﷺ - فطرح عليه الفرث؟ قال: نعم.

قال: فرفع السوط فضرب به رأسه.

قال: فثار الرجال بعضها على بعض.

قال: وصاح أبو جهل: ويحكم هي له إنما أراد محمد ـ ﷺ ـ أن يلقى العداوة بيننا وينجو هو وأصحابه.

٦- وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ص١٠٣: عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال: ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة فعمد الى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم اخوة: عبد يا ليل بن عمرو، وخبيب بن عمرو، ومعوذ بن عمرو. فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط؟

وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبدا لئن كنت رسولا لأنت أعظم شرفا وحقا من ان أكلمك.

وقال الآخر: أعجز الله أن يرسل غيرك؟

وأفشوا ذلك فى ثقيف الذى قال لهم، واجتمعوا يستهزءون برسول الله ﷺ وقعدوا له صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة وهم فى ذلك يستهزءون ويسخرون فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد الى حائط من كرومهم فأتى ظل حبلة من الكرم فجلس فى أصلها مكروبا موجعا تسيل قدماه الدماء فاذا فى الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه الذى به فأرسلا إليه غلامهما عداسا بعنب وهو نصرانى من أهل نينوى.

فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله ﷺ: «بسم الله» فعجب عداس، فقال له رسول الله ﷺ: من أى أرض أنت يا عداس؟ قال: أنا من أهل نينوى.

فقال النبى ﷺ: من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى؟

فقال عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟

فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدا يبلغه رسالات الله تعالى.

قال: يا رسول الله أخبرنى خبر يونس بن متى، فلما أخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحى اليه من شأنه خر ساجدا لرسول الله ﷺ ثم جعل يقبل قدميه وهما تسيلان الدماء.

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا. فلما أتاهما قالا له: ما شأنك؟ سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا بأحد منا.

قال: هذا رجل صالح حدثنى عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا يدعى يونس بن متى، فأخبرنى أنه رسول الله، فضحكا وقالا: لا يفتنك عن نصرانيتك، انه رجل يخدع، ثم رجع رسول الله ﷺ الى مكة.

وذكر فى البداية (جـ٣ص١٣٦) عن موسى بن عقبة: وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه. فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء. وفيما ذكر ابن اسحاق: فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم ــ فيما ذكر لى ــ: ان فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف.

من هذه القصص.. قصص الإيذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشريف الهاشمى ذو النفس الحساسة، ابن الأشراف ومع ذلك تحمل واستمر وليس بيده ألا يستمر، وكما أوذى هو أوذى أتباعه كذلك وقتل بعضهم.. ومع ذلك صبروا وأمرهم بالصبر وهذا شئ يجرح الضمير أن يرى الإنسان الناس يعذبون بسبب دعوته لولا أن ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه وأن الإنسان ليس مخيرا فى سلوكه بل هو الذى لابد منه للقيام بحق الله وأنها لرسالة الله.

(ب) محاولة إغرائه ورفضه لذلك:

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدا، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس الى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي.. إنك منا حيث قد علمت، من السطة في العشيرة (السطة: الشرف) والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال:

أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع مني..

قال: أفعل..

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**﴾ [فصلت: ١-٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها،

وألقى يديه خلف ظهره، معتمدا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ الى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة الى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش.. أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وقال ابن إسحاق: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث (ابن كلدة) أخو بنى عبد الدار، وأبو البخترى بن هشام، والأسود ابن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبى أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم، قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه، حتى تعذروا فيه، فبعثوا اليه:

إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدأ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

- أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا

لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم، أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بينى وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك. سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما تراك تبتغى، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت اليكم بهذا

ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، أو كما قال: فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا، كما زعمت، إن شاء ربك فعل. فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

قال: فقال رسول الله ﷺ: ذلك الى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل، قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم اليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك، أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم – وهو ابن عمته – فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلتك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك ان تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، أو كما قال له: فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه.

قارن بين الصورتين: اضطهاد بدون حدود، وإغراء الى هذا المستوى، ولا خيار. خذ ما تريد واترك ما أنت عليه او تضطهد هذا الاضطهاد المر. ومحمد ﷺ في الحالتين هو هو لا الاضطهاد يؤثر في صده عن عملية التبليغ ولا الاغراء يثنيه. وفي

موقفه في كلا الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقا وأنه صاحب دعوة هداية أولا وآخرا.

* * *

(جـ) محاولتهم أن يضغطوا عليه عائليا:

أخرج الطبراني في الأوسط والكبير عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جاءت قريش الى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل، التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس (أي بيت صغير من أكباس أبي طالب). فأقبل يمشي معي يطلب الفيء يمشي فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى الى أبي طالب. فقال له أبو طالب: يا ابن أخي، والله! ماعلمت إن كنت لي لمطاعا وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكف عنهم. فحلق ببصره الى السماء فقال: والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار. فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط. ارجعوا راشدين.

قال الهيثمي (جـ٦ص١٤): رواه الطبراني وأبو يعلى باختصار يسير من أوله: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، انتهى. وأخرجه البخاري في التاريخ بنحوه كما في البداية (جـ٣ص٤٢).

وعند البيهقي أن أبا طالب قال له – ﷺ –: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني وقالوا كذا وكذا فابق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك.

فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه وضعف عن القيام معه. فقال رسول الله ﷺ: يا عم.. لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى. فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ برسول الله ﷺ: يا ابن أخي فأقبل عليه

فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا - كذا فى البداية (جـ٣ص٤٢) .

والذى يعرف عادة العرب فى احترام الأكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم يدرك مدى الأثر الكبير الذى يحدثه تدخل أبى طالب شيخ بنى هاشم نتيجة ضغط قومه عليه . ومحمد ﷺ الحيى الخجول المهذب ما كان ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من ذلك . إنه أمر الله الذى هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط . وفى ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على أن محمدا رسول الله ﷺ .

* * *

(د) سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والإعراض والاتهامات :

من سيرة ابن هشام ننقل هذه المقاطع :

- ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به، قال : بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا : نقول كاهن، قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه، قالوا : فنقول : مجنون، قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا : فنقول شاعر، قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه، وهزجه، وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا : فنقول ساحر، قال : ماهو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق (النخلة) وإن فرعه لجناة .

قال ابن هشام : ويقال : لغدق (الغدق : الماء الكثير) - وما أنتم بقائلين من هذا

شيئا إلا عرف أنه باطل، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره.

– وقال ابن اسحاق:

ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به، مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

– وقال ابن اسحاق:

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم الى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا منى؟

– وقـــال:

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب، حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: ﴿ **لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت:٢٦] أى اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزؤا، لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم.

- وقال: فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد إنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشرة، وأنتم أكثر الناس عددا، وكثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [المدثر: ٣٠] الى آخر القصة.

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلى فيتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى، استرق السمع دونهم، فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه، ذهب خشية أذاهم، فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذى يستمع أنهم يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم، أصاخ له يستمع منه».

تصور حرب الدعاية الفظيعة التى لجأوا إليها، وهم قريش موطن ثقة العرب، والذين تأتيهم العرب سنويا للحج، وهم يشوهون اسمه عاما بعد عام، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول، والعربى نفسه لا تسمح أبدا أن يقف موقف المتهم، ومع ذلك بقى رسول الله ﷺ صابرا على هذه الحرب الدعائية الفظيعة، هذه المدة الطويلة! ثلاثة عشر عاما، ما ونى وما كل، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة.

إن استمرار الداعية فى مثل هذا الجو المحموم وحده، دليل على صدقه فيما يدعو إليه، وإلا فكيف نعلل استمرار رجل فى دعوة يلاقى ما لاقى، مع العرض عليه كل متاع الدنيا، ثم لا يرضى إلا بحمل الناس على دعوته، مع هذا الموقف الشديد منه. ان هذا لا يعلل إلا بصدقه فى دعوته، وأنه يبلغها مأمورا من الله عز وجل، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذى يعصى أمر الله من عقاب الله.

* * *

(هـ) استعمال سلاح المقاطعة:

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان

هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي - قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشل بعض أصابعه.

قال ابن إسحاق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش، فظاهرهم.

وقال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله: أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا، فقال: يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة.

- وأخرج أبو نعيم في الحلية ج١ص٩٣ عن سعد رضي الله عنه قال: «كنا قوما يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقعة شئ تحت بولي فاذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ثم أستفها وشربت عليها من الماء فقويت عليها ثلاثا».

هذه المقاطعة التي كان من آثارها ما رأيت استمرت ثلاث سنين متواليات. لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا إزواج ولا طعام ولا شراب.

يقول السهيلي: كانت الصحابة إذا قدمت عير الى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا، حتى يرجع أحدهم

الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس فى يده شئ يطعمهم به، ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس.

ثلاث سنوات متواليات على هذه الحال والمسلمون وأقارب رسول الله ﷺ من المشركين أنفسهم ممن يحمونه عصبية بنى هاشم وبنى المطلب، ورسول الله ﷺ صابر وهو يرى هذه المناظر المؤلمة. زوجة خديجة الطاعنة فى السن عمه أبو طالب الطاعن فى السن أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجهدة، ومع ذلك ما فكر لحظة فى إيقاف عملية التبليغ والجهر بالدعوة، وليس هناك ظاهريا بارقة أمل، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع قريش، ومع ذلك بقى مستمرا لا لقاء ولا مداهنة ولا تنازل ولا أى شئ آخر. فمن يستطيع أن يتحمل هذا لو لا إيمان بالله وثقة به وصدق بوعده ووعيده، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لأمر الله فيه. إنها صفات الأنبياء وإلا يمكن أن تعلل إلا بأن صاحبها رسول الله حقًا.

* * *

(و) محاولتهم قتله:

– قال ابن إسحاق:

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه واجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

– فيما بلغنى – يا أبا طالب: هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فانما هو رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا. قال: فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا، فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى، ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك – أو كما قال – فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا.

– وقال ابن إسحاق :

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدا قدأبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله – أو كما قال – فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعدذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشئ أبدا، فامض لما تريد .

– وقال ابن إسحاق :

وكان إسلام عمر – فيما بلغنى – أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم ابن عبد الله النحام رجل من قومه، من بنى عدى بن كعب قد أسلم، وكان أيضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة، فلقيه نعيم ابن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر؟

فقال : أريد محمدا هذا الصابئ، الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى بعد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا! أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

فقال : وأى أهل بيتى؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه . .

– وقال ابن اسحاق : من خبر اجتماع الملأ من قريش وتشاورهم فى أمر رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمَنْ قد اتبعه من غيرنا، فاجمعوا فيه رأيا . قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرا والنابغة، ومن مضى منهم مع هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدى : لا والله، ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه، فلأوشكوا أن يقبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى غيره، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فاذا خرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب ولا حيث وقع، واذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدى : لا والله، ماهذا برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه . ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله ان لى فيه رأيا، ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا (الشريف في قومه) فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فانهم إذا فعلواذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم (العقل : الدية) قال : فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا أرى غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول ﷺ . وإذن الفترة التى قضاها رسول الله ﷺ فى مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب . ومع هذه التهديدات

المتواصلة وهذا الجو الذى يحطم الأعصاب. نجد رسول الله ﷺ ما انقطع فترة عن القيام بعملية التبليغ والجهر بها. ومجابهة الناس بما يدعو له، ان هذا كله ليس عاديا فى بيئة عربية وعلى النفسية العربية لولا أن المسألة مسألة وحى من الله وأمر.

* * *

(ز) ملاحقة خطواته ومحاولة ايئاسه منهم:

أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد رضى الله عنه قال: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان.. إنى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به. قال: وخلفه رجل أحول وضئ له غديرتان عليه حلة عدنية. فاذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا اليه قال ذلك الرجل: يا بنى فلان.. إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبى : يا أبت.. من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب.

- وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لقد كان رسول الله ﷺ يخرج فى المواسم فيدعو القبائل، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه، فقد كان يأتى القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود اليهم سنة بعد سنة حتى أن القبائل منهم من قال: ما آن لك أن تيأس منا؟

لقد بقى مستمرا فى عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبدأب متواصل، رغم هذه الظروف غير المواتية، والتى تجعل الإنسان العادى ييأس أو يفتر. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، فلو لا أنه رسول الله حقا يقوم بهذا كله إيمانا بالله وتنفيذا لأمره وتصديقا بوعده وخوفا من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شئ من هذا.

ونكتفى بهذه الأمثلة على تخطيه العقبات أمام البلاغ لننتقل إلى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشامل فى تبليغ دعوة الله أى إلى:

نماذج النوع الثانى

(وهو الطرق التى سلكها لإيصال دعوة الله الى الناس) .

(أ) دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم:

أخرج أحمد عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] أتى النبى الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صاحباه.. فاجتمع الناس اليه بين رجل يجئ اليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله: يا بنى عبد المطلب.. يا بنى فهر.. يا بنى كعب أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ [المسد: ١].

(ب) ذهابه إلى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله:

أخرج أحمد عن رجل من بنى مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله بسوق ذى المجاز يتخللها يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » قال: وأبو جهل يحثى عليه التراب ويقول: لا يغوينكم هذا عن دينكم فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى وما يلتفت اليه رسول الله.

وأخرج أحمد عن ربيعة عن عباد من بنى الديل وكان جاهليا فأسلم قال: رأيت رسول الله فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه وراءه رجل وضئ الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وأخرج البخارى فى التاريخ وأبو زرعة والبغوى وابن أبى عاصم والطبرانى عن الحارث بن الحارث الغامدى قال:

قلت لأبى ونحن بمنى: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء اجتمعوا على صابئ لهم، قال: فتشرفت فاذا برسول الله يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه الحديث.

وأخـرج الطبـرانى عن مـدرك قـال: حـجـجت مع أبى فلمـا نزلنا منى إذا نحن بجماعة فقلت لأبى: ما هذه الجماعة؟ قال: هذا الصابئ فاذا رسول الله يقول: يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا.

وأخرج ابن إسحاق عن الزهرى: أنه عليه السلام أتى كندة فى منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين: أنه (أى رسول الله) أتى كلبا فى منازلهم الى بطن يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه حتى أنه ليقول: يا بنى عبد الله.. إن الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

وفى البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك: أن رسول الله أتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم.

وعن ابن إسحاق عن الزهرى أنه (أى رسول الله) أتى بنى عامر ابن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له: أرأيت أن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر الى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. فلما صدر الناس رجعت بنو عامر الى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم. فكانوا اذا رجعوا اليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم. فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا الى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا. فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر.. هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيلى قط، وانها الحق فأين رأيكم كان عنكم؟

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ:

لا أرى لى عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجى الى السوق غدا حتى نقر فى منازل قبائل الناس؟ وكانت مجمع العرب. قالت فقلت: هذه كندة ولفها وهى أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منازل بكر بن وائل، وهذه منازل بنى عامر ابن صعصعة، فاختر لنفسك؟ قال: فبدأ بكندة فأتاهم فقال: ممن القوم؟ قالوا: من أهل اليمن. قال: من أى اليمن؟ قالوا: من كندة. قال: من أى كندة؟ قالوا: من بنى عمرو ابن معاوية. قال فهل لكم الى خير؟ قالوا: ما هو؟ قال: تشهدون أن لا إله إلا الله، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله. قال عبد الله بن الأجلح: وحدثنى أبى عن أشياخ قومه أن كندة قالت له: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الملك لله يجعله حيث يشاء. فقالوا: لا حاجة لنا فيما جئتنا به.

وقال الكلبى: فقالوا: أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب. الحق بقومك فلا حاجة لنا بذلك. فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال: ممن القوم؟ قالوا: من بكر بن وائل. فقال: من أى بكر ابن وائل؟ قالوا: من بنى قيس بن ثعلبة. قال: كيف العدد؟ قالوا: كثير مثل الثرى. قال: فكيف المنعة؟ قالوا: لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم. قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم، وتستنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم ان تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين، وتكبروه أربعا وثلاثين. قالوا: من أنت؟ قال: أنا رسول الله. ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبى: وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس: لا تقبلوا قوله، ثم مر أبو لهب فقالوا: هل تعرف هذا الرجل؟ قال: نعم، هذا فى الذروة منا فعن أى شأنه تسألون؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا: زعم أنه «رسول الله» قال: ألا لا ترفعوا برأسه قولا فإنه مجنون يهذى من أم رأسه. قالوا: قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره.

* * *

(جـ) رحلته من أجل التبليغ:

أخبر الطبرانى عن عبد الله بن جعفر قال: لما توفى أبو طالب خرج النبى إلى الطائف ماشيا على قدميه يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة

فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إنى أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت أرحم الراحمين، الى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى أم إلى قريب ملكته أمرى إن لم تكن غضبان على فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى. أعوذ بوجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا قوة إلا بالله.

* * *

(د) تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم:

أخرج أبى عاصم عن الأحنف بن قيس قال: بينما أنا أطوف بالبيت فى زمن عثمان اذ أخذ رجل من بنى ليث بيدى فقال: الا أبشرك؟ قلت: بلى قال: أتذكر اذ بعثنى رسول الله الى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم اليه فقلت أنت: إنك لتدعونا الى خير وتأمر به وانه ليدعو الى الخير فبلغ ذلك النبى فقال: اللهم اغفر للأحنف.

وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر قال: دعا النبى عبد الرحمن ابن عوف فقال: تجهز فانى باعثك فى سرية - فذكر الحديث وفيه: فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل فلما دخلها دعاهم الى الاسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن - مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث - إلى النبى يخبره فكتب إليه النبى أن تزوج ابنة الأصبغ فتزوجها وهى تماضر التى ولدت له بعد ذلك أبا سلمة ابن عبد الرحمن.

وأخرج ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التميمى قال: بعث رسول الله عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الاسلام وذلك ان أم العاص بن وائل كانت من بنى بلى فبعثه رسول الله اليهم يتألفهم بذلك..

وأخرج البيهقى عن البراء أن رسول الله بعث خالد بن الوليد الى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه. ثم أن رسول الله ﷺ بعث على بن أبى طالب

رضى الله عنه وأمره أن يقفل خالدا إلا رجلا كان ممن مع خالد، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم .فصلى بنا علي ثم صفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان.. السلام على همدان.

* * *

(هـ) تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم:

أخرج أبو نعيم فى الحلية عن عروة بن الزبير رضى الله عنه: أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله وأيقنوا واطمأنت أنفسهم الى دعوته فصدقوه وآمنوا به – كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام المقبل فرجعوا الى قومهم – بعثوا الى رسول الله ﷺ أن ابعث الينا رجلا من قبلك فيدعو الناس إلى كتاب الله فانه أدنى أن يتبع فبعث اليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضى الله عنه أخا بنى عبد الدار، فنزل بنى غنم على أسعد بن زرارة يحدثهم ويقص عليهم القرآن فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدى الله على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم. ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ.

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة.. عن رسول الله ﷺ قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ويتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة».

ثم نزل فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله.. ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظو ويتفقهون أو

لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا، فقالوا: يا رسول الله أنعظن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم: أنعظن غيرنا؟ فقال ذلك أيضا، فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

* * *

(و) إرساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء:

أخرج البيهقى عن ابن اسحاق قال: بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى النجاشى الأصحم ملك الحبشة.. السلام عليك فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه وإنى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فإنى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى».

وأخرج البخارى عن ابن عباس حديث أبى سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله اليه وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم.. سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فان عليك اثم الأريسيين: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق نص رسالة الرسول الى كسرى وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فانى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن اثم المجوس عليك » .

وأخرج البيهقى نص رسالة الرسول الى أهل نجران وهى :

« باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبى رسول الله الى أسقف نجران وأهل نجران . . سلم أنتم فإنى أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد . . فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فان أبيتم فقد أذنتكم بحرب . . والسلام » .

وقد أرسل الرسول عليه السلام رسائل مشابهة الى المقوقس وإلى ملك اليمامة وإلى المنذر بن ساوى عظيم البحرين وإلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى وإلى الحارث بن عبد كلال الحميرى وإلى ملكى عمان ابنى الجلندى وغيرهم .

* * *

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله تعطيك صورة مبسطة عن قيامه عليه السلام بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج الى مجلد ضخم على الأقل . إذ أن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوت فرصة يستطيع بها أن يبلغ رسالة الله الا وبلغ، بالاتصال الشخصى والعرض الجماعى، وفى السفر والحضر وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب، ثم عمم الأمر على أمته جميعا بأن عليهم واجب البلاغ عنه . حتى لا يبقى إنسان من البشر إلا وقد بلغته دعوته . وانظر الى نتائج هذا كله تجد أنه عليه السلام لم يمت إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله . وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين الا وكان أكثر العالم المعروف وقتذاك

قد بلغته الدعوة، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عنادا، وما من إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظير يمكن أن يكون الا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية، وما كان الداعية ليعطى هذا الحماس لأتباعه، لو لم يكن هو فى أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية أمام الله إن قصر فيه.

إن تاريخ العالم كله لا يقص علينا، أن أحداً قد استوعبت دعوته من قبل الآخرين فى حياته كما حدث لرسول الله الذى لم يمت الا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير، ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيا لكل الأجيال الآتية بعد، لأنها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمام الله إن لم تفعل. إذا بلغ واحد منها دعوته. أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت حكمة الله ألا يعتبر مسئولا، ولكن عمليا. وذلك كله من آثار قيام الرسول بواجب التبليغ لم يبق أحد منذ زمن بعيد الا فى النادر لم تبلغه دعوة رسول الله، وأنت ترى الآن الدعاة الى الله على صراط رسول الله منتشرين فى العالم كله، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام، وكما رأينا فان فى كل موقف من مواقفه ما يجعلك على برد اليقين، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون، لو لا أن رسول الله محمدا صادق فى دعوى الرسالة عن الله.

فإلى الصفة الأساسية الرابعة الملازمة للتبليغ ولجوهر الرسالة عن الله وهى العقل العظيم والفطانة لترى كيف أن لرسول الله الحظ الأعلى منها:

* * *

٤ – عقله العظيم وفطانته عليه السلام

١ – ان الصفة الرابعة للرسل عليهم الصلاة والسلام هى الفطانة وهى الصفة الملازمة للتبليغ. اذ الرسول معرض وهو يقوم بعملية التبليغ لمناقشات الخصوم أو لتساؤلات الأتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم، فلابد أن يكون من الذكاء، وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة، إذ لو

قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا لا يتم إلا بأن تكون دعوة الرسول حقا كلها، إذ غير الحق لا تكون حجته واضحة، والباطل دائما حجته داحضة، ولا يتم كذلك إلا بعقل يستطيع إحكام الحجة فى العرض. فكم حق لم يجد عقلا فضاع، ولا يتم هذا كله إلا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل، ولا يتأتى هذا إلا لأعلم الناس وأذكى الناس وأفصح الناس.

فالناس يتفاوتون علما ويختلفون اختصاصا. فمنهم رجل الدين. ومنهم السياسى. ومنهم الاقتصادى. ومنهم الطبيب، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم.. وكل واحد من هؤلاء ينبغى أن تقام عليه الحجة لو اعترض من جانب اختصاصه فما لم يكن الرسول أعلم الخلق فى كل جانب من حيث صلة هذا الجانب برسالته لا يستطيع إقامة الحجة.

والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر فما لم يكن أذكى البشر فإنه لا يستطيع أن يفعل.

وإنسان يحتاج الى هذا كله لابد له من لسان مبين، وفصاحة عظيمة، حتى قال موسى يوم كلمه الله بالوحى: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرسول وتدل بذلك على صاحبها أنه رسول الله حقا مع استكمال بقية الشروط.

فالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحجة الكاملة البينة الخاصة فيه.

والعرض السليم الكامل الأداء.

وإلزام الخصوم العجز عن أن يكون لهم موقف حق إلا بالمتابعة.

كل هذا لا يتأتى إلا لدعوة الله المحيط علما بكل شئ ولرسوله الذى يختاره أهلا

لحمل دعوته ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥] ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

* * *

٢ – وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد ﷺ نجد أن له من كل شئ ذروة، فمن حيث أن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه وتحقيق ذلك فى كل بحوث هذا الكتاب.

ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الاطلاق وأبينهم لغة ونطقا وأداء.

ومن حيث إقامة الحجة فإنك لا تجد إنسانا، يستطيع إقامة الحجة المقنعة على كل إنسان حسب مستواه العقلى بكل بساطة، كما كان يفعل رسول الله ﷺ وبهذا تأتى له أن يقيم الحجة على الناس بدينه كله، عقيدة وعبادات وسلوكا ومنهاج حياة، هذا مع توفيق الله له وحكمته جل جلاله بأن كان القرآن الكريم قد فصل كل شئ، وحاج كل إنسان فحجه، فكان القرآن مع حديث رسول الله ﷺ الصحيح كما فحصه علماء الحديث – وهما محفوظان – حجة لله على البشر فى كل جيل إلى قيام الساعة.

* * *

٣– ولتوضيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله ﷺ. سنختار نماذج من مناقشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن خطبه أو كتبه يدعو بها إلى شئ من شريعته ومن كلمه المعلل بالحكمة فى الأمر أو النهى أو الخبر مما يدلك على مدى ملكة الإقناع التى وهبها الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق فى كل خلق.

– أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبى راشد قال: رأيت التنوخى رسول هرقل الى رسول الله ﷺ بحمص وكان جارا لى شيخا كبيرا قد بلغ الفناء أو قرب فقلت ألا تخبرنى عن رسالة هرقل الى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ الى هرقل؟ قال: بلى.. وذكر الحديث ومن جملته:

«فانطلقت بكتابه (أى كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء.

فقلت : أين صاحبكم؟

قيل ها هو ذا فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى فوضعه فى حجره ثم قال : ممن أنت . قلت : أنا أحد تنوخ . فقال : هل لك فى الحنفية ملة ابراهيم؟ قلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع اليهم . قال : ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾

[القصص : ٥٦]

إلى أن قال : ثم انه ناول الصحيفة رجلا عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم؟ قالوا : معاوية فاذا فى كتاب صاحبى : يدعونى الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟

فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله فأين الليل إذا ذهب النهار .

قال الهيثمى : رجال أبى يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

– أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين– وكانت تعظمه – فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ﷺ فقالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران وأصحابه متوافرون . فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك . أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيرا؟ فقال : يا حصين إن أبى وأباك فى النار، يا حصين كم تعبد من إله؟ قال سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال : الذى فى السماء قال : فإذا هلك المال من تدعو؟ قال : الذى فى السماء . قال : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه، أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال : لا واحدة من هاتين، قال : وعلمت أنى لم أكلم مثله .

قال : يا حصين أسلم تسلم .

قال : إن لى قوما وعشيرة فماذا أقول؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى .

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام اليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما رأى ذلك النبى ﷺ بكى وقال:

بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلنى من ذلك الرقة. فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: قوموا فشيعوه الى منزله، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا صبأ وتفرقوا عنه. كذا فى الإصابة ج١ص٣٣٧.

– أخرج أحمد عن أبى تميمة الهجيمى عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله ﷺ أو قال أنت محمد؟

فقال: نعم. قال: ما تدعو؟ قال: أدعو الله عز وجل وحده – من إذا كان لك ضر فدعوته كشف عنك ومن إذا أصابك عام فدعوته أنبت لك. ومن إذا كنت فى أرض قفر فأضلك فدعوته رد عليك.

فأسلم الرجل ثم قال: أوصنى يا رسول الله، فقال: لا تسب شيئا. أو قال أحدا. شك الحكم – قال: فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله ﷺ.

– أخرج أحمد عن عدى بن حاتم قال: لما بلغنى خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم – وفى رواية حتى قدمت على قيصر. قال: فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهتى لخروجه.

قال: قلت: والله لو أتيت هذا الرجل فان كان كاذبا لم يضرنى وإن كان صادقا علمت، قال: فقدمت فأتيته. فلما قدمت قال الناس: عدى ابن حاتم، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لى: يا عدى بن حاتم أسلم تسلم – ثلاثا. قال: قلت: إنى على دين. قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت تعلم بدينى منى؟ قال: نعم، ألست من الركوسية[١] وأنت تأكل مرباع[٢] قومك؟ قلت: بلى، قال: هذا لا يحل لك فى دينك، قلت: نعم، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: أما إنى أعلم الذى يمنعك

(١) الركوسية: دين النصارى والصابئين.
(٢) مرباع: ربع الغنيمة.

من الاسلام تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟

قلت: لم أرها وقد سمعت بها.

قال: فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد. وليفتحن كنوز كسرى ابن هرمز، قال: قلت: كنوز كسرى بن هرمز؟

قال: نعم، كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدى بن حاتم: فهذه الظعينة تأتى من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى. والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها. كذا فى البداية ج٥ص٦٦ وأخرجه البغوى أيضا فى معجمه بمعناه، كما فى الاصابة ج ص٤٦٨.

وأخرج أحمد عن عدى بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرب فأخذوا عمتى وناسا فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قال: فصفوا له، قالت: يا رسول الله بان الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك فقال: ومن وافدك؟

قالت: عدى بن حاتم.

قال: الذى فر من الله ورسوله؟

قالت: فمن على، فلما رجع ورجل الى جنبه - نرى أنه على - قال: سليه حملانا، قال: فسألته فأمر لها، قال عدى: فأتتنى فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت: ايته راغبا أو راهبا فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه، قال: فأتيته فاذا عنده امرأة وصبيان - أو صبى - فذكر قربهم منه، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر. فقال له: يا عدى بن حاتم؟ ما أفرك؟ أفرك أن يقال: «الله أكبر».

فهل شئ أكبر من الله عز وجل؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر.

– أخرج أبو يعلى عن حرب بن سريج قال: حدثنى رجل من بلعدويه قال: حدثنى جدى قال: انطلقت الى المدينة فنزلت عند الوادى فاذا رجلان بينهما عنزة واحدة وإذا المشترى يقول للبائع: أحسن مبايعتى. قال: فقلت فى نفسى هذا الهاشمى الذى قد أضل الناس، أهو هو؟ قال: فنظرت فاذا رجل حسن الجسم، عظيم الجبهة دقيق الأنف دقيق الحاجبين. وإذا من ثغرة نحره الى سرته مثل الخيط الأسود شعر أسود وإذا هو بين طمرين. قال: فدنا منا فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه، فلم ألبث أن دعا المشترى فقال: يا رسول الله قل له: يحسن مبايعتى، فمد يده وقال: أموالكم تملكون إنى أرجو أن ألقى الله عز وجل يوم القيامة لا يطلبنى أحد منكم بشيء ظلمته فى مال ولا فى دم وعرض إلا بحقه، رحم الله أمرءاً سهل البيع، سهل الشراء، سهل الأخذ، سهل العطاء، سهل القضاء، سهل التقاضى، ثم مضى.

فقلت: والله لأقصن هذا فانه حسن القول: فتبعته فقلت: يا محمد فالتفت الى بجميعه فقال: ما تشاء؟

قلت: أنت الذى أضللت الناس وأهلكتهم وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم.

قال: ذاك الله.

قال: ما تدعو إليه؟

قال: أدعو عباد الله إلى الله.

قال: فقلت: ما تقول؟

قال: اشهد أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزله على، وتكفر باللات والعزى، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة.

قال: قلت: وما الزكاة؟

قال: يرد غنينا على فقيرنا.

قال: قلت: نعم الشيء تدعو إليه.

قال: فلقد كان وما فى الأرض أحد يتنفس أبغض الى منه فما برح حتى كان أحب الى من ولدى ووالدى ومن الناس أجمعين.

قال : فقلت : قد عرفت، قال : قد عرفت؟

قلت : نعم.

قال : أتشهد أن لا اله الا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل على؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله إنى أرد ماء عليه كثير من الناس فأدعوهم الى ما دعوتنى اليه فإنى أرجو أن يتبعوك، قال : نعم فادعهم، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله ﷺ رأسه.

– وذكر البخارى وأبو داوود وأتم ما ذكرا رزين مساجلة جرت بين المسلمين وبين أبى سفيان بعد موقعة أحد وقد أصيب المسلمون فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين يسألهم ويقول وهذا نص الحادثة كما رواها «فأشرف أبو سفيان (أى على المكان الذى كانوا فيه) فقال : أفى القوم محمد؟ فقال : (أى الرسول وكان معهم) : لا تجيبوه. فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة؟ فقال : لا تجيبوه. فقال : أفى القوم ابن الخطاب؟ فلم يجبه أحد، فقال : إن هؤلاء قتلوا، ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه فقال :كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يحزنك. قال أبو سفيان أعلى هبل. فقال ﷺ : أجيبوه. فقالوا : ما نقول؟ قال : قولوا الله أعلا وأجل. قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ : أجيبوه. قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان يوم بيوم والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى. فقال ﷺ : أجيبوه، قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار. أخرجه البخارى وأبو داوود الى قوله : لم تسؤنى، وأخرج باقيه رزين.

– وعن ابن إسحاق من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين – وقسم للمتألفين من قريش (أى حديثو العهد بالاسلام ليمكن الاسلام فى قلوبهم) وسائر العرب ما قسم، ولم يكن فى الأنصار منها شئ قليل ولا كثير – وجد (أى تغيرت قلوبهم) هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم :

لقى والله رسول الله ﷺ قومه. فمشى سعد بن عبادة رضى الله عنه الى رسول

الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار، قد وجدوا عليك فى أنفسهم فقال: فيم؟

قال: فيما كان فى قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شئ.

فقال رسول الله ﷺ فأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال: ما أنا إلا امرؤ من قومى.

قال: فقال رسول الله ﷺ فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة. فاذا اجتمعوا فأعلمني. فخرج سعد فصرخ فيهم، فجمعهم فى تلك الحظيرة فجاء رجل من المهاجرين، فأذن له فدخلوا وجاء آخرون فردهم – حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له. أتاه فقال:

يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار.. ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة (أى فقراء) فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، قالوا: بلى. ثم قال رسول الله ﷺ: ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟

قالوا: وما نقول يا رسول الله! وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله.

قال: والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريدا فأويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك. فقالوا: المن لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ: أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة (أى فى شئ تافه إذ اللعاعة نبت ناعم لا يعمر طويلا) من الدنيا؟ تألفت بها قوما أسلموا ووكلتكم الى ما قسم الله لكم من الاسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس الى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله الى رحالكم فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا، وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (أى بلوها بدموعهم) وقالوا: رضينا

بالله ربا وبرسوله قسما ثم انصرف، وتفرقوا: وهكذا رواه الأمام احمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه وهو صحيح.

– وأخرج مالك عن عطاء بن يسار:

أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟

فقال: نعم.

فقال: الرجل: إني معها في البيت.

فقال: استأذن عليها.

فقال: إني خادمها؟

فقال رسول الله: استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة؟

قال: لا.

قال: فاستأذن عليها.

– وأخرج الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شابا آتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه.. فقال: أدن، فدنا منه قريبا، قال: اجلس فجلس قال ﷺ: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. فقال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال ﷺ: أفتحبه لابنتك قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم قال ﷺ: أفتحبه لأختك. قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال ﷺ: أفتحبه لعمتك قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال ﷺ: أفتحبه لخالتك قال: لا والله جعلني الله فداءك فقال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم: قال: فوضع يده ﷺ عليه ثم قال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شئ.

– ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى هذا المقطع:

قالوا: من أبوه؟ (أى عيسى يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله. تعالى الله عن ذلك).

وقد رد القرآن عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ورد عليهم رسول الله ﷺ بما يلي:

قال: ألستم تعلمون أن الله حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم؟

قالوا: لا

قال: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى. ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

- ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريده قال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذى يجعل قريشا لا تريد إلا ما أراد قال:

يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

يعنى الموت.

* * *

هذه نماذج على مناقشاته التى يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة.

وسترى نماذج على حدة ذكائه الهائل فى تصريف الأمور وتدبيرها فى الفصل الثانى من هذا الباب.

أما هنا فنريد أن نتمم ببيان فصاحته التى لا مثيل لها وهى السمة المرافقة التى لابد منها فى إقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه الذى كان كله بليغا.

* * *

فى حجة الوداع خطب رسول الله ﷺ فى الناس خطبة طويلة وكان الذى يبلغها عنه ربيعة بن أمية وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذى فعل فعله فى القلوب بما لم يفعله كلام آخر:

قال رسول الله لربيعة: قل يا أيها الناس إن الرسول يقول: هل تدرون أى شهر هذا؟ فقال ربيعة. فصاح الناس: الشهر الحرام. فقال رسول الله قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا.

ثم قال: قل يا أيها الناس إن الرسول يقول: هل تدرون أى بلد هذا؟ فيقول ربيعة فيصيح الناس: البلد الحرام. فيقول عليه السلام: قل لهم أن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا.

ثم يأمره: يا أيها الناس إن رسول الله يقول: هل تدرون أى يوم هذا؟ فيقول

لهم فيصيحون: يوم الحج الأكبر. فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

ومن كلمة له عليه السلام: أمرني ربى بتسع: خشية الله فى السر والعلانية وكلمة العدل فى الغضب والرضا، والقصد فى الفقر والغنى، وأن أصل من قطعنى وأعطى من حرمنى، وأعفو عمن ظلمنى، وأن يكون صمتى فكرا، ونطقى ذكرا، ونظرى عبرة، وآمر بالمعروف».

* * *

ومن وصاياه:

«يا غلام: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك – أو قال أمامك – تعرف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله تعالى فان العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك لم يقدروا على ذلك. جفت الأقلام وطويت الصحف فان استطعت أن تعمل لله تعالى بالرضا فى اليقين فافعل فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين».

* * *

ومن خطبة طويلة له عليه السلام حفظ منها أبو سعيد الخدرى ما يلى:

«إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

«ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه».

«ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة يركز لواؤه عند استه».

«ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى، فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا

ويموت مؤمنا، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك. ألا وان منهم بطيء الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وان منهم حسن القضاء حسن الطلب، ومنهم سئ القضاء حسن الطلب، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء فتلك بتلك ألا وإن منهم السئ القضاء سئ الطلب، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب، وشرهم سئ القضاء سئ الطلب، ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أما رأيتم الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحس بشئ من ذلك فليلصق بالأرض».

– عن معاذ بن جبل رضى الله عنه:

قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير. فقلت: يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار. فقال: لقد سألت عن عظيم، وأنه ليسير على من يسره الله عليه. تعبد الله لا تشرك به شيئا. وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: الصوم جنة. والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين. ثم تلا: ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾. الى قوله: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٦–١٧]. ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: رأس الأمر الاسلام. وعموده الصلاة وذروة سنامه: الجهاد. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: كف عليك هذا، وأشار الى لسانه. قلت: يا رسول الله.. وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم».

– وعن أبى ذر رضى الله عنه قال:

«قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله: فأما الثلاثة

الذين يحبهم : فرجل أتى قوما فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته الا الله والذى أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى اذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فنزلوا. فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى، ورجل كان فى سرية فلقى العدو فانهرموا فاقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له، وأما الثلاثة الذى يبغضهم الله : فالشيخ الزانى، والفقير المختال، والغنى الظلوم».

– وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدنى، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى. قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال : إن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه، أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندى. يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقنى. قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول : إن عبدى فلانا استسقاك فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى».

* * *

والسر فى فصاحته ﷺ أنه يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل إحاطة، وتصل الى أدق القضايا، ويتفاوت الناس فى الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم. وقد عبر هو عليه السلام عن سر فصاحته فقال : أوتيت جوامع الكلم. وانظر عبارته هذه. ترى معناها أنه ليعبر عن المعانى العظيمة الكثيرة الكبيرة بكلمة مختصرة سهلة، ولكنها لا تكاد تدرك معانيها لما أحاطت به، وهذه قضية يعرفها كل من اطلع على أحاديثه عليه السلام، التى بلغت عشرات الآلاف، والمحفوظة فى كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة. وخذ أى حديث من أحاديثه وأى كلمة من كلامه تجد هذا واضحا بالشكل الذى لا يلحق به إإنسان إلا فى نوادر الحالات، ولكن كلام رسول الله ﷺ كله من هذا النوع ومن ثم كان أفصح العرب على الإطلاق.

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذى قلناه وحللها فأتى بالجيد. نجتزئ منه

بمثال يقول: «ومن أمثلته (أى الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله: «كما تكونوا يول عليكم». فأى قاعدة من القواعد الأصيلة فى سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات؟

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل، أو عذر بالاكراه، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه، والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه.

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة. فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية، ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع، وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك.

وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث.

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ».

ويختم العقاد كلامه فى هذا الموضوع بقوله:

«وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء، فى هذا المقام. كان محمد فصيح اللغة، فصيح اللسان، فصيح الأداء، وكان بليغا مبلغا على أساس ما تكون بلاغه الكرامة والكفاية وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين».

وحسبك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب فى القرن العشرين.

* * *

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة التى لا مثيل لها عند رسول الله فى بيان الحق، وإقامة الحجة فيه، ونصاعة البيان فى عرضه، وكمال الأداء فى

إيصاله وستتضح لك هذه الصفة أكثر فى الفصل الثانى، حيث الكلام عن السياسى الأول، والمحارب الأول، والمعلم الأول عليه السلام، ولعل الفصل الثانى سيكون اكثر مشيرا الى عظمة عقله وفطانته عليه السلام فلنقتصر هنا على ما قدمناه.

وبهذا نختتم الفصل الأول من هذا الباب وقد رأيت فيه كيف أن رسول الله ﷺ له من الصفات الأساسية للرسل كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقا، خلقه الله على أكمل الأحوال، وأرفع المقامات ووفقه لأعظم الأعمال، مما ينوء بحمله كل الرجال مجتمعين. فسار فى طريق لم تضطرب بدايته فيه، ولم تتحول مسيرته عنه. حتى وصل الى نهاياته على استقامة. من أول الشوط اليها، كل خطوة بعد التى تليها، بناء يتكامل يوما فيوما حتى تم، لا نقص فيه ولا عوج، ولا ينقض منه شئ أبدا، وما كان ذلك ليكون كله لولا أن الله المحيط علما بكل شئ وراء رسوله فى كل شئ. يسدده ويرعاه ويسيره حتى كان ما كان.

* * *

الفصل الثاني

القدوة العليا

في الفصل الأول رأينا أن لرسول الله من الصفات الأساسية للرسل الحظ الأعلى . وسنرى في هذا الفصل أن جوانب شخصية الرسول عليه السلام متعددة تعددا يجعله منفردا عن الرسل بميزات، ان شاركوه في بعضها فلم يشاركوه في الكل . فشخصية الرسول تمثلت بها كل جوانب الحياة وما كل رسول كان له مثل هذا . فالرسول عليه السلام كان أبا وما كل رسول كان أبا، وكان زوجا وما كل رسول تزوج، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة . وكان القائد الأعلى لجيش الاسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب . وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقيدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية، ولم يبعث رسول قط إلى الانسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والمهذب والعابد والزاهد والصابر والرحيم . . الى آخر صفاته عليه السلام التي استوعبت كل جوانب الحياة، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وإنما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الاسلام المنزل على محمد نظاما شاملا لجوانب حياة البشر كلها، وجعل حياة رسوله نموذجا لدينه كله في كل جوانبه، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين، مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي، وشئ آخر هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج . وفيهم السياسي والاقتصادي ورجل الشورى، وفيهم المحارب والمسالم، وفيهم المبتلى والمعافى وفيهم الراعي والرعية وفيهم العامل والتاجر، فالحياة البشرية متعددة الجوانب، وكل إنسان فيها يعيش حياة كاملة تختلف في بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم وتعدد مواقف حياتهم، أن يكون الرسول لهم القدوة في كل شئ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد، لا يكون قدوة لكل البشر في كل شئ .

وقد يعجب إنسان أن تكون حياة رسول الله من الخصب بحيث تستوعب كل

جوانب حياة البشر. فتكون قدوة لهم فى هذا كله، ولكنه الواقع الذى تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية:

فمثلا من الناحية النظرية ادرس مواقف الصبر عنده فانك تجدها قد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به الى الصبر. لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه، ومقام من مات له ولد وأولاد، وأولاد أولاد، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم. بعضهم قتلى. ومقام من فشل فى المعركة ومن أوذى واستهزئ به ومقام من شمت فيه. ومن اتهم بعرض أحب الخلق اليه ومقام من مرض وجرح. ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التى يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الانسان مصيبة الا ويرى رسول الله قد أصيب بمثلها. وكان له موقف مثالى منها، فيقف مثله إن كان مؤمنا. ومن الناحية العملية، فان تاريخ الأمة الاسلامية ما خلا فى عصر من عصوره، من ملايين من أفراد هذه الأمة، مختلفى المدارك، مختلفى المستويات. مختلفى الاختصاصات، مختلفى المشارب. منهم الغنى، والفقير والقائد، والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم، كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله فى الصغيرة والكبيرة. حتى إنك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه، وكل ذلك فى الواقع ناتج عن الخصب فى حياة الرسول التى استوعبت أحوال البشر جميعا.

والرسول عليه السلام فى كل موقف من هذه المواقف، وفى كل حال من الأحوال، وفى كل جانب من الجوانب، كان المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا والوحيدة لهم. إذ إليه يرجع الكمال فى كل شئ، ومنه يعرف الكمال فى كل شئ، وهذا هو الجانب الذى سنعرض له فى هذا الفصل ليتضح لنا أنه لا كمال لأى إنسان مهما كان فى أى حالة. إلا باتباعه والاقتداء به والتأسى فيه، وان الله لم يعط من الكمال لإنسان ما أعطاه محمدا، ولم يجتمع فى إنسان من الكمالات ما اجتمع فى شخصه العظيم، وذلك آية الله على أن هذا الإنسان رسوله إذ ما كان هذا ليجتمع لإنسان منبت عن الله وكمالاته، وإحاطة علمه وتوفيقه، وطبعا نحن لا نستطيع وخاصة فى مثل هذا الفصل القصير المخصص لهذا البحث. أن نحيط بجوانب شخصية الرسول عليه السلام مع الإشارة إلى الكمال عنده فى كل. فذلك شئ يستنفذ جهد الباحثين الكثر ولا يحاط به. وإنما سنكتب هنا أربع فقرات فقط وباختصار. حول أربعة جوانب من حياته عليه السلام نرى فيها ما قدمناه واضحا وهو مقصود هذا الفصل.

هذه الفقرات هي :

الفقرة الأولى : الأخلاقي الأول .

الفقرة الثانية : رجل الأسرة الأول أبا وزوجا .

الفقرة الثالثة : المعلم والمربي الأول .

الفقرة الرابعة : رجل الدولة الأول سياسيا وعسكريا .

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس . أن كمال الانسان في جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه في بقية الجوانب، وكلامنا في غير المقتدين بالرسل من أتباعهم، فاجتماع الكمال لرسول الله في هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه ولنبدأ باستعراض الفقرة الأولى .

* * *

١ - الأخلاقي الأول

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١]

إن أبرز سمة في شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب أخلاقياته التي لا مثيل لها فلو أنك جمعت كل خلق عظيم في العالم . وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام إنسان . فإن ما تجده في حياة رسول الله ﷺ يربو على هذا كله مجتمعا . مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه السلام، مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفا يمكن أن ترى أعظم منه في باب الأخلاق عند غيره ﷺ . وكان أصحابه ﷺ يعرفون منه هذا، ويتصرفون على أساسه معه، فكثيرا ما كانوا يوقفون ناسا مواقف من الأنبياء السابقون فيها سننا فكان يفعل ما فعلوا . ويعرف الصحابة ماذا سيفعل، إذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفا أو مسلكا .

في الطريق الى فتح مكة لقي الرسول ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية وهما ابن عمه وابن عمته وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة . فاعرض عنهما فأشار علي بن أبي طالب على ابن عمه بما يلي قال له : ائته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جوابا ففعل ذلك أبو سفيان

فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

فانظر ذلك الذى لا يرضى أن يسبقه أحد فى موقف من مواقف مكارم الأخلاق. إن أخلاق الرسول ﷺ هى ميزة شخصيته الكبرى، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول ﷺ . إلا إذا فهمت القرآن والسنة، وكل ما له علاقة بسيرة الرسول ﷺ . إذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة رضى الله عنها هى القرآن : « كان خلقه القرآن » .

وقد رأيت بشكل عملى فى بحث الأمانة من الفصل الأول كيف أن كل آية من القرآن كان ﷺ المظهر العملى لها إذ استعرضنا هناك عددا من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك فيه.

إلا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظهرها عند رسول الله ﷺ بالشكل الذى لا يرقى إليه أحد سابقا أو لاحقا.

ونختار من هذه الأخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع. فهذه من أمهات الأخلاق التى تحمد إذا كانت فى محلها، وسنرى أن رسول الله ﷺ يضع كل شئ فى محله فإذا كان العفو غير محمود فلا عفو. وإذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة. وهكذا، فرسول الله ﷺ هو الميزان الذى توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق.

أولا : نماذج من صبره :

١- مر معك فى مبحث التبليغ صور من صبره ﷺ على الاضطهاد والتعذيب، والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والاهانات المتوالية، وكل هذا تحمله بصبر. فإذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما، أدركنا مقدار الصبر الذى تمتع به رسول الله ﷺ . وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى الذى لحق به لحق بأقاربه وهو الشريف، وكل هذا يجرح نفس الانسان ويحطم أعصابه، ومع ذلك فما أبه ﷺ لهذا كله، بل تحمله وتحمل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر.. و..

والذى جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج الى طاقة من الصبر لا تنفد. فاذا ما علمنا أن رسول الله ﷺ تحمل هذا كله، وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة إلى ما عنده. نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته.

٢- فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو مواطن القتال، رأينا كذلك عجبا. ولعل أبرز مواقفه الصابرة فى الحرب والتى تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقفاه يوم أحد ويوم الخندق، يوم الهزيمة الذى بقى فيه ثابتا، ويوم الحصار الذى أخذ بالأنفاس وبقى فيه كله أمل، وهاك وصفا مختصرا لموقفه الصابر فى اليومين:

- روى مسلم أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

«واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبى فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فاثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمدا قتل فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون».

«وكان رسول الله ﷺ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبى وقاص ويقول ارم فداك أبى وأمى وكان أبو طلحة الأنصارى راميا ماهرا فى إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ فكان اذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه.

فى هذا اليوم الشديد إذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا هذا العدد القليل، ومع ذلك بقى صابرا يدير المعركة التى طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد. ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال. حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم.

فأى صبر هذا الصبر؟

ولا ننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد ﷺ كانت قد راجت والرسول ﷺ نفسه، منع من عرفه من تكذيبها. حتى يثبط قريشا عن المضى فى المعركة. فاذن هو صبر فى أحرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير.

- ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذى لم

يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة، والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة وتحركات المسلمين من مكان الى مكان خشية المباغتة وقد طالت الفترة وتعب المسلمون، وكانوا كما وصفهم الله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] في هذا الوضع المخيف يأتى الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعا معرضين لقتل الأنفس وسبى الذرية فأى صبر يحتاجه القائد فى تلك اللحظات فى ذلك الموقف الذى يحطم الأعصاب.

لقد تقنع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى إذا هضم المسلمون خطورة موقفهم، قام يبث الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات، وهو يقول:

«أبشروا بفتح الله ونصره» إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذى يربو على الصبر.

٣- فإذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن فيها الصبر، وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ﷺ. القلب الرحيم، ومع ذلك فانه الصبر الذى يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر، وهذه أمثلة من مواقفه فى هذه المواطن:

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

«رأيت ابراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون».

وأخرج ابن سعد أيضا عن مكحول قال:

«دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وابراهيم يجود بنفسه فلما مات دمعت عينا رسول الله ﷺ فقال له عبد الرحمن: أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه متى يراك المسلمون تبكى يبكوا قال: فلما سريت عنه عبرته قال: إنما هذا رحمة وإن من لا يرحم لا يرحم إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه.

ثم قال : لو لا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجدا غير هذا وإنا عليه لمحزونون . تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه فى الجنة » .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

« لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدرى ما صنع فلقيت عليا والزبير فقال على للزبير : اذكر لأمك وقال الزبير لعلى : لا . . اذكر أنت لعمتك قالت : ما فعل حمزة؟ فأرياها أنهما لا يدريان فجاءت النبى ﷺ فقال :

إنى أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ثم جاء فقام عليه وقد مثل به فقال : لولا جزع النساء لتركته حتى يحصل من حواصل الطير وبطون السباع . . ثم أمر بالقتلى فجعل يصلى عليهم فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات . . . حتى فرغ منهم« .

وأخرج الطيالسى وأحمد وأبو داوود والترمذى وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عن أسامة بن يزيد رضى الله عنه . قال :

« كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها فى الموت . فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال : إنها قد أقسمت لتأتينها فقام النبى ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع الى رسول الله الصبى ونفسه تقعقع كأنها فى شن ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

٤- فإذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر . نجد دائما القمة التى لا يرقى إليها الراقون .

أخرج أحمد والطبرانى وهذه رواية الطبرانى :

« أن فاطمة ناولت النبى ﷺ كسرة من خبز الشعير فقال : ما هذه؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن بحير قال :

« أصاب النبى ﷺ جوع يوما فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » .

وأخرج مسلم والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال :

« ألستم فى طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه (الدقل : أردأ التمر) » . وفى رواية لمسلم عن النعمان رضى الله عنه قال : « ذكر عمر رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا - فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه » .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر، وابن النجار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« دخلت على النبى ﷺ وهو يصلى جالسا فقلت : يا رسول الله أراك تصلى جالسا فما أصابك؟

قال : الجوع يا أبا هريرة . فبكيت . فقال : لا تبك يا أبا هريرة، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا » .

وأخرج الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة الى المسجد ، فسمع عمر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة؟

قال : ما أخرجنى الا ما أجد من حاق الجوع (أى شدة الجوع) قال : وأنا - والله - ما أخرجنى غيره . فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال : ما أخرجكما هذه الساعة؟ قالا : والله ما أخرجنا الا ما نجد فى بطوننا من حاق الجوع قال : وأنا - والذى نفسى بيده - ما أخرجنى غيره . فقوما فانطلقوا » .

وأخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك[1] عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال: ما أشد حماك يا رسول الله. قال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر. ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟

قال: الأنبياء. قال: ثم من؟

قال: العلماء. قال: ثم من؟

قال: الصالحون.

وأخرج البيهقى عن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت:

أتينا رسول الله ﷺ فى نساء نعوده وقد حم فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت: يا رسول الله، لو دعوت الله أن يكشف عنك، فقال: إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

* * *

وأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر إلا وقد امتحن فيه صبر رسول الله ﷺ. وفى كل مرة نجد عنده الصبر الذى لا يخالطه هلع، إنها أخلاق النبوة فى أعلى كمالات البشر.

* * *

ثانيا – نماذج من رحمته:

١– والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر. تقسو قلوبهم وتجف دموعهم، ونادرا ما تجد الموغل فى ذلك متصفا بصفة الرحمة، ولكن رسول الله ﷺ ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت، ولكنها صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبدا، بل كما أن هذه

(١) موعوك: محموم.

الصفات فى كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده ﷺ فى كثير من المواقف رحمة وشفقة، وهو الصابر الذى ما عرف أكثر صبرا منه، والمقاتل الذى ما عرف أكثر حنكة منه، يفيض قلبه بالرحمة فيبكى وتدمع عيناه، وقد يسمع صوت بكائه، إنها نفس تجيش جيشانا ببحار الرحمة.

٢- وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله ﷺ لا تفارقه رحمته، يؤذى ويضرب ويضطهد فيقول: «اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون» ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال: لما كان يوم الفتح ورسول الله ﷺ بمكة أرسل الى صفوان بن أمية والى أبى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قال عمر: فقلت:

لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ: مثلى ومثلكم كما قال يوسف لاخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. قال عمر: فافتضحت حياء من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر منى وقد قال لهم رسول الله ﷺ ما قال.

إن المواطن التى تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله ﷺ فى محلها لا تطغى على غيرها ولا يطغى غيرها عليها.

- وكانت رحمته تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء، يقول عبد الله بن عمرو: دخل النبى ﷺ المسجد فجلس الى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لأننى لم أكن منهم».

وجاء فى صحيح البخارى: «أن النبى ﷺ ذكر ذات يوم رجلا أسود فقال ما فعل ذلك الانسان؟ قالوا مات يا رسول الله، قال: أفلا آذنتمونى؟ فقالوا: إنه كذا وكذا قصته فحقروا من شأنه، قال دلونى على قبره فأتى قبره فصلى عليه».

وقال معاوية بن سويد: كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: اعتقوها فقيل ليس لهم خادم غيرها فقال: فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها.

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «انى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه».

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به.

قال عبد الرحمن بن عبد الله: كنا مع رسول الله فى سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ .. ردوا ولدها إليها».

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال يتعلم فيه الرمى، وأمر من يريد الذبح، أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان، إن رحمته بلغت كل شئ.

– ولكنها الرحمة التى لا تجاوز حدها:

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله. وهذا الذى سنه رسول الله ﷺ فى هذه الحالة هو الذى أخذ به القانون الدولى فى القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذى يطلق سراحه بشرط عدم الدخول فى المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل.

إنها الرحمة التى تفيض حتى تعم الخلق، ولكنها لا تجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى.

إنها الرحمة التى تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى من انصراف الخلق عن طريق الجنة الى طريق النار. حتى يعاتب الله عز وجل صاحبها: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً** ﴾ [الكهف: ٦] إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها.

* * *

ثالثا - نماذج من حلمه:

١- وله ﷺ من الحلم - كما له من كل خلق - كماله. يغضب للحق إذا انتهكت حرماته اذا غضب فلا يقوم لغضبه شئ حتى يهدم الباطل وينتهى، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء الى رسول الله ﷺ نفسه يمكن إصلاحه، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن وتجد حلمه دائما عجيبا. يفوق الحد الذى يتصوره الإنسان خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب.

إذ لا يشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره. بل إن بعضهم لا يحتاجون إلى الأمر بقدر ما يحتاجون إلى الاذن. فلو أذن رسول الله ﷺ لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم، ولكن الرسول الحليم ﷺ كان يتحمل ويحلم حتى إنك لتراه الحلم مجسما.

فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال:

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما اذ أتاه ذو الخويصرة - رجل من بنى تميم - فقال: يا رسول الله.. اعدل، فقال رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إن لم أعدل؟! لقد خبت وخسرت! إذا لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه.

فقال رسول الله ﷺ: دعه..

ويوم حنين إذ قسم رسول الله ﷺ ما قسم قال رجل: - كما يروى البخارى - والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت (أى عبد الله): والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

وروى أحمد عن عائشة قالت:

«ما ضرب رسول الله بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى

يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الاثم . ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى اليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله » .

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها فجئ بها الى رسول الله فسألها عن ذلك قالت : أردت لأقتلك، فقال : ما كان الله ليسلطك على – أو نال على ذلك – قالوا : ألا تقتلها؟ قال : لا . .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ يوما المسجد وعليه برد نجرانى غليظ الصنعة فأتاه أعرابى من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة فى صفحة عنق رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أعطنا من مال الله الذى عندك فالتفت رسول الله ﷺ فتبسم فقال : مروا له .

وأخرج عن أبى هريرة قال : كنا نقعد مع رسول الله ﷺ بالغدوات فى المسجد فاذا قام الى بيته لم نزل قياما حتى يدخل بيته فقام يوما فلما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابى فقال :

يا محمد . . احملنى على بعيرين فانك لا تحملنى من مالك ولا من مال أبيك وجذب بردائه حين أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله ﷺ : لا . . وأستغفر الله لا أحملك حتى تقيدنى – قالها ثلاث مرات – ثم دعا رجلا فقال له : احمله على بعيرين . على بعير شعير وعلى بعير تمر . ورواه أحمد .

وأخرج الطبرانى عن أبى أمامة قال :

كانت امرأة ترافث الرجال (أى تكلمهم كلاما بذيئا) وكانت بذيئة فمرت بالنبى ﷺ وهو يأكل ثريدا على طربال فقالت : انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد .

فقال النبى : وأى عبد أعبد منى؟

قالت : ويأكل ولا يطعمنى .

قال : فكلى .

قالت : ناولنى بيدك، فناولها .

فقالت : أطعمنى مما فى فيك، فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحدا حتى ماتت .

وأخرج أبو نعيم عن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فسبقتني حفصة فقلت للجارية: انطلقي فاكفئي قصعتها فأهوت أن تضعها بين يدى النبى فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها النبى وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا. ثم بعثت بقصعتي فدفعها النبى الى حفصة فقال: خذوا ظرفا مكان ظرفكم وكلوا ما فيها فما رأيته فى وجه رسول الله ﷺ.

وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانبه، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعبا كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

* * *

رابعًا - نماذج من كرمه:

إن الكرم فى الاسلام طريق من طرق ا لجنة، وإن البخل طريق النار. ولذلك فقد كان كرم رسول الله ﷺ لا يجارى. ولا يبارى. إن الله قد جعل خمس الغنائم إليه وكانت حصته عليه السلام من هذا الخمس: الخمس. وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالا لكان أكثر الخلق مالا. إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومئتان من السبى. هذا الخمس الذى لرسول الله ﷺ وقرباه منه خمساه فكم نتصور غنى الرسول ﷺ لو أراد أن يجمع مالا من غزواته كلها من خيبر الغنية وقريظة وبنى النضير.

فإذا ما علمنا مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالامكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شئ وأنه ما كان يلبس الا الخشن ولا ينام إلا على القليل، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى إذا بقى فى بيته مال فلم يوزعه على الناس، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك. أدركت أى كرم كان عنده ﷺ وأى نفس طاهرة هذه النفس

وأدركت أنها النبوة. وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة، إلا إذا كانت نفسا متأسية برسول الله ﷺ. وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركا وعنادا وبغضا له ﷺ فأسلموا نتيجة ذلك ولعل فى ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن بالمزيد خيرا.

– أخرج الشيخان عن ابن عباس قال:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام. وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال: فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا.

وأخرج الطبرانى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت: بعثنى معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب الى رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملأ يده منها فأعطانيها.

وفى رواية: فأعطانى ملء كفى حليا أو ذهبا. ورواه أحمد بنحوه وزاد: فقال: تحلى بهذا.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أم سنبلة رضى الله عنها: أنها أتت النبى ﷺ(1) فأبى أزواجه أن يقبلنها، فقلن: إنا لا نأخذ فأمرهن النبى ﷺ فأخذنها ثم أقطعها واديا.

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: «جاءت امرأة الى رسول الله ببردة فقالت: يا رسول الله جئتك أكسوك هذه فأخذها رسول الله وكان محتاجا اليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها، فقال: نعم. فلما قام رسول الله لامه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسئل شيئا فيمنعه. قال: والله ما حملنى على ذلك إلا رجوت بركتها حتى لبسها رسول الله لعلى أكفن فيها».

---

(1) لعل المقصود أنها أتته بهدية.

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسئل شيئا على الإسلام الا أعطاه قال: فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة قال: فرجع الى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة».

وزاد فى رواية: فإن كان الرجل ليجيء الى رسول الله ما يريد الا الدنيا فما يمسى حتى يكون دينه أحب اليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها. وأخرج ابن عساكر فى قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلى:

«وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل اليه يستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها.

فقال صفوان: طوعا أو كرها.

فقال رسول الله ﷺ: عارية رادة، فأعاره. فأمر رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة فبينما رسول الله يسير فى الغنائم ينظر اليها – ومعه صفوان بن أمية – فجعل صفوان بن أمية ينظر الى شعب ملاء نعما وشاء ورعاء فأدام النظر اليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟

قال: نعم.

قال: هو لك وما فيه.

قال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا الا نفس نبى، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه».

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس. كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعياله، مع هذا الملك العريض والسلطان الكبير والواردات الكثيرة، وزيادة على ذلك أنه لو أراد من أموال المسلمين شيئا لخاصة نفسه لكان المسلمون فى ذلك كراما. وله الحق فى ذلك أليس هو مدبر شئونهم ومعلمهم، ولكن هذا كله لم يحدث، إنه كرم فى النفس يمنع صاحبه عن التطلع إلى أموال الآخرين، وكرم فى النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شئ. إنها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليلة إبراهيم عليه السلام.

خامسًا – نماذج من تواضعه وتياسره:

ننقل هنا ما كتبه صاحب كتاب بطل الأبطال تحت هذا العنوان مكتفين به فى هذا الفصل مع حذف بعض جمل المقال يقول:

صفة بينة لبطل الأبطال ﷺ كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم تلك هى: التياسر والتواضع فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاها من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة، كان محمد التياسر نفسه يتمثل فى الرجل الكامل: وينبعث من أعماق قلبه، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة، وما يخدع به الناس من قول أو فعل، كان محمد قريبا سهلا هينا يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف، بل بالحق سافرا فكانت أعماله تصدر طبيعية منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها واسمعوا إلى عدى ابن حاتم يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا فى المدينة: دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه فقال: من الرجل؟

فقلت: عدى بن حاتم.

فقام وانطلق بى الى بيته فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها قال فقلت: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بى الى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها الى فقال: اجلس على هذه قال قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض. قال: قلتُ فى نفسى: والله ما هذا بأمر ملك..

هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها يأتيه عدى وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه، يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض.

ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم، فكسفت الشمس فقال الناس: كسفت الشمس لموت ابراهيم. فيقوم فى المسجد قائلا: «إن الشمس والقمر من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا حياته».

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحق للحق، وتتعالى فى تواضع عن استغلال وهم من الأوهام.

* * *

انظروا كذلك إليه كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف ينصرف؟

يقول قيس بن سعد:

زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد أبى ردا خفيا فقلت لأبى: ألا تأذن لرسول الله؟ فقال: زده حتى يكثر علينا من السلام، فقال ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله، ثم رجع فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله.. إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام فانصرف معه النبى، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد.

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا فقال سعد: يا قيس اصحب رسول الله فصحبته فقال: اركب معى فأبيت فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف.

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر فى غير حفل ولا ظهور. يذهب اليه ماشيا، ويعود على حمار يريد أن يردف عليه رفيقه. تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا وطاعته قربة. فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال فى تاريخ الدعوة الإسلامية (بل فى كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيسا الى الركوب معه على الحمار أمرا غريبا، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثانى أخرى) قال ابن عباس: إن النبى ﷺ لماقدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبد المطلب فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه. وقال معاذ: كنت رادف رسول الله على حمار يقال له: عفير، وجاء اليه رجل وهو يمشى فقال: اركب وتأخر على حماره فقال محمد: أنت أحق بصدر دابتك منى إلا أن تجعله لى، فقال الرجل: فإنى جعلته لك. ويقول جابر: كان رسول الله يتخلف فى السير، فيزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف، ويدعو لهم.

كان مرة فى سفر مع صحبه، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما فقسم العمل بينهم، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه. ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشية، ذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد. وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا، فقاموا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا..

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب، انطلق إليه وفد بنى عامر، فلما كانوا عنده قالوا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله، فقالوا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا، فقال: قولوا قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان.

كان فى تياسره جم التواضع، وافر الأدب يبدأ الناس بالسلام، وينصرف كله الى محدثه صغيرا كان أو كبيرا أو يكون آخر من يسحب يده إذا صافح. وإذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين، وإذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه. لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار، فكان يذهب الى السوق ويحمل بضاعته ويقول: أنا أولى بحملها.. ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء أكان فى بناء مسجد المدينة أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب.

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه. يلبس كعامة من حوله ويسكن، وقد واتته الدولة والسلطان فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر. وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده، ويخدم نفسه ويعقل بعيره، ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس.

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة، والذى هو صورة صادقة له، لم ينقص من هيبته ولا محبته، وقد قيل فى وصفه: من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه. فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب، وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته وفى خطابه.

يقول «وليم موير» فى وصف تواضعه وتياسره: «كانت السهولة صورة من

حياته كلها، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه، فالتواضع والشفقة والصبر والايثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه باقباله وان كان حقيرا، وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره. وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم».

ولسنا فى تاريخ محمد بحاجة الى أحد، فان مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها. وإنما سقنا عبارة «موير» هنا لشعورنا أنها صادرة عن إعجاب صادق ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها، لكان اليوم حيا بين أصحابه، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة بوضوح نفسه العظيمة، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى إلا على حالة واحدة فى الليل والنهار وفى السر والعلانية وفى الشدة والرخاء وفى الضعف والقوة، فى السوق وهو فى شبابه وفى الشيخوخة وعلى عرش النبوة والملك.

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها، هى النفس التى اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية الى الناس محببة اليهم فى كل أطوار حياته. كان بطل الأبطال ﷺ المثل الأعلى الذى نحن اليوم أحوج ما نكون إليه فى نطاق الأخوة الاسلامية، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أوحسب أو نسب وإنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى والناس من آدم وآدم من تراب».

وأخيرا وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله ﷺ وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعا فى الاخلاق فى كلياتها وجزئياتها وأبعادها. بشمولها كله كما عرفه فى رسول الله ﷺ وكما شهد بذلك القرآن العظيم. وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه بخلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتقون بهذا الخلق الا الى بعض ما هو عنده ﷺ. وأن الناس جميعا بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فانهم لا يبلغون أن يحيطوا الا بالأقل مما كان (عليه

السلام) . هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق . أما رسول الله ﷺ فكان الأخلاق كلها محضا . ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الانسان، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة، يرى الخير شرا والشر خيرا، أو حاسدا أو متكبرا أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التى لا تغيب عن أحد . وإن أحدا عرف الرسول ﷺ فى زمانه من عدو أو صديق إلا وأسلم فى ضميره أن الخلق المحمدى لا يرقى إليه مطعن، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك . وقديما قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغته خطبته لبنته : « هو الفحل لا يجدع أنفه » . وقال عكرمة ابن أبى جهل بعد حربه الطويل لرسول الله هو وأبوه فى لحظة إسلامه .

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس، قال عكرمة : أقول ذلك وأنى لمطأطئ رأسى استحياء منه » .

* * *

وبعد فإلى الفقرة الثانية :

٢- رجل الأسرة الأول : أبًا وزوجًا

١- التعريف بأزواجه عليه السلام :

قال ابن هشام : وكن تسعا : عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش بن رئاب، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، وصفية بنت حيى بن أخطب فيما حدثنى غير واحد من أهل العلم .

وكان جميع من تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة . خديجة بنت خويلد وهى أول من تزوج . زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم وكانت قبله عند أبى هالة بن مالك أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبد الدار فولدت له هند بن أبى هالة وزينب بنت أبى هالة وكانت قبل أبى هالة عند عتيق

ابن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية. وتزوج رسول الله عائشة بنت أبى بكر الصديق بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكرا غيرها. زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم. وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة.. زوجه إياها سليط بن عمرو ويقال: أبو حاطب بن عمرو.. وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند السكران بن عمرو.

وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند زوجه إياها سلمة بن أبى سلمة ابنها وأصدقها رسول الله فراشا حشوه ليف وقدحا وصفحة ومجشة (أى رحى) وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية.

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس ابن حذافة السهمى.

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها النجاشى عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذى كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عندعبيدة الله بن جحش الأسدى.

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية كانت فى سبايا بنى المصطلق من خزاعة فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى فكاتبها على نفسها فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها فقال: هل لك فى خير من ذلك. قالت: وما هو؟ قال: أقضى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت: نعم، فتزوجها..

وتزوج رسول الله صفية بنت حيى بن أخطب سباها من خيبر فاصطفاها لنفسه

وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقا وتمرا وكانت قبله عند كنانة ابن الربيع بن أبى الحقيق.

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن.. زوجه اياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبى رهم بن عبد العزى.. ويقال: إنها التى وهبت نفسها للنبى وذلك أن خطبة النبى انتهت اليها وهى على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾

[الأحزاب: ٥٠]

وتزوج رسول الله زينب بنت خزيمة بنت الحارث.. وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم زوجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عبيدة عند جهم ابن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها.

فهؤلاء اللاتى بنى بهن رسول الله إحدى عشرة فمات قبله منهن اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة. وتوفى عن تسع قد ذكرناهن فى أول هذا الحديث.

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضا فمتعها وردها إلى أهلها. وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بالكفر فلما قدمت على رسول الله استعاذت من رسول الله فقال رسول الله: منيع عائذ الله، فردها إلى أهلها ويقال: إن التى استعاذت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان وقال: إن رسول الله دعاها فقالت: إنا قوم نؤتى ولا نأتى فردها رسول الله الى أهلها.

القرشيات من أزواج النبى ست: خديجة.. وعائشة.. وحفصة.. وأم حبيبة.. وأم سلمة.. وسودة بنت زمعة.

والعربيات غيرهن ست: زينب بنت جحش بن أسد بن خزيمة.. وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر بن صعصعة بن قيس بن عيلان.. وزينب بنت خزيمة بن

هلال بن عامر بن صعصعة . . وجويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار الخزاعية، ثم المصطلقية . . وأسماء بنت النعمان الكندية . . وعمرة بنت يزيد الكلابية .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير .

* * *

ويقول الكافرون : إن هذا يخدش نبوة محمد ﷺ أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات .

ونقول : إن الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : إما إنسان له دين غير الإسلام والذى له دين : إما أن يكون دينه يقول بتعدد الزوجات أولا .

أو إنسان لا يؤمن بدين .

أما الانسان الذى لا يؤمن بدين فهذا عمليا يستعمل آلاف النساء استعمال الزوجات، ولا يرى فى ذلك بأسا ولا يتحرج أن يضاجع أى امرأة ولو كانت أخته، ولو كانت زوجة صاحبه، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا من هؤلاء . فلا محل لكلام هؤلاء ولا يناقشون أصلا، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الانسان عليها .

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم إذ ما أبيح لهم كيف يحرمونه على غيرهم .

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فإننا نقول لهم : أما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم وأما أن زواج الرسول الله ﷺ بهذا العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة . فان الكتب التى بين أيديكم وتؤمنون بها وهى كتب العهد القديم، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام . وقد ذكرنا أمثلة من هذا فى مبحث الشهادات فلماذا تتناقضون؟

غير محمد ﷺ من الأنبياء إذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فلا؟

إن هذا عمى عن الحقيقة وتجاهل لها، فإن فرط الرجولة ليس عيبا فى الرجل بل كمال فيه إذا بقيت ضمن الإطار الذى حدده الله.

إن الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها، فإذا ما صحت نبوة نبى وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى قصة زواج النبى ﷺ من زينت بنت جحش: ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

* * *

إن ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة فى التاريخ البشرى وظهورها بمحمد ﷺ هو الظهور الأخير لذلك فقد خص الله رسوله ﷺ ببعض الأحكام وكل ما خص به ﷺ كان فيه نوع من التكليف أكبر، ونوع من العبء أكبر، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته، كان غرمها أكبر من غنمها، وعبؤها أكبر من سهولتها، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير.

وسياستهن وتدبير أمورهن من جهد، مع كثرة أعباء السيد الرسول ﷺ الأخرى من جهاد وتعليم وتدبير، و...

ولو تأمل الانسان فى هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل على النبوة والرسالة مستقل وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة:

فلقد أحل الله لرسوله ﷺ أن يتزوج ما شاء بقوله:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ثم أخيرا أنزل:

﴿ **لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

إذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده ﷺ فما الحكمة فى ذلك كله؟

١- إن الرسول ﷺ تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط، والمرأة فى كل طور من أطوارها لها مشاكلها. وسيرة الرسول ﷺ العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور، ونقل هذا كله الى الأمة الاسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التى جعلها الله عز وجل مبينة لكل شئ مما يلزم الانسان.

٢- أن المرأة فى الاسلام مكلفة كالرجل، ولها وضعها الخاص الذى تختلف فيه عن الرجل. ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة فى المرأة الى الأمة الاسلامية. بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة للنساء فى العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن.

٣- زواج الرسول ﷺ من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودى، وفيهن من كان أبواها مهاجرين، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها، ومنهن الصغيرة جدا، ومنهن الكبيرة جدا حتى لا يرى المسلم حرجا فى الزواج من أى امرأة أحلها الله له ما دامت متوفرة فيها شروط الحل. وحتى لا يرى المسلم حرجا فى التعدد وهو كما سنرى فى بعض الأحوال ضرورة لابد منها.

٤- والرسول ﷺ الذى افترض الله على المسلمين محبته، قد أستل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لو لا هذه الصلات من القرابة.

٥- إن صلة الوصل فى الغالب فيما له علاقة بالنساء كانت زوجات رسول الله ﷺ وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به ﷺ أكثر، وإيصال الأحكام الى النساء متيسرا، وكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن، ولو لا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولو لا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة.

٦- والاسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة فى المرأة وكان

لابد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استبقائها واستمرارها وتأكيدها وهى قلب لمفاهيم سائدة، وأوضاع فاسدة، فكان هذا العدد من نساء النبى ﷺ يحقق هذه الحكمة.

٧- ثم كان هذا الزواج حلاً لابد منه فى بعض الحالات.

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة الى الحبشة والى المدينة والتى استشهد زوجها، وليس لها أحد وهى بنت زاد الراكب أبى أمية المخزومى وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت. فهل تبقى وحدها أرملة وهى التى تحملت من أجل الإسلام ما تحملت، إنه ليس هناك حل أبر وأكرم من ضم رسول الله ﷺ لها الى نسائه وقد رضيت.

ورملة بنت أبى سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله ﷺ والتى أسلمت وهجرت أباها وقومها وهاجرت الى الحبشة مع زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كافرا، هذه تترك لمن؟ أليست مكافأتها فى مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ﷺ وكم سيكون لهذا أثره فى نفس العدو الأكبر أبيها.

وزينب بنت جحش التى زوجها رسول الله ﷺ من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبنى عند العرب التى لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذرى يوم أمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد.
وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها، وقومها من أعز بيوت العرب عرضا، وقد أسر رجال قومها، وسبى نساؤهم، فتزوجها رسول الله ﷺ فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأفرجوا وأعتقوا كل من له علاقة بها.

وصفية بنت حيى كان أبوها ملك اليهود تقريبا وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته ﷺ الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها الى نسائه رحمة بها، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة، وبزواجه بعائشة وحفصة وثق الصلة أكثر بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا.

٨- وفتح بهذا الزواج ﷺ لزعماء أمته أفقا جديدا لا ينبغى أن يغيب عنهم

أثناء العمل المتواصل. وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج. وتوهين حقد المغلوبين بهذه الواسطة، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة.

٩- ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملى العادل يبين الطريق الصحيح للسلوك الذى ينبغى أن يسلكه من تعددت زوجاته، بحيث لا تختل قيم الحياة، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق.

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها التى ذكرناها والحكم التي لم نذكرها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة.

وسنرى هذا أوضح عندما ندرس سيرته معهن ﷺ.

* * *

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله ﷺ كان فى زواجها مصلحة وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية، تلمح بها تصرفات النبوة ومثاليتها وأخلاقيتها، وسنرى فى هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته معهن ﷺ. أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وأرقى أمثلة الأسوة.

١- أول هذه الخطوط العدل فى السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت. كان بينهن الجميلة جدا والكبيرة والشابة والعادية الجمال، وما كان يصرفه شئ من الميزات عن العدل، لكل واحدة منهن ليلة، وإذا زار إحداهن زار بعد ذلك جميعهن وحتى وهو فى مرضه الأخير وهو أحوج إلى الاستقرار فى بيت واحد لم يرض أن يستقر فى بيت عائشة الا بعد أن أذن له الجميع بذلك. ومع هذه الدقة فى العدل كان يستغفر الله من عدم عدله فى المحبة. إذ لا سلطان له على قلبه فيها، بل السلطان لله فكان يقول:

«اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك».

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. قالت أم سلمة: «لما تزوجنى رسول الله ﷺ أقام عندى ثلاثا وقال: إنه ليس بك هوان على أهلك. إن شئت سبعت لك وإن سبعت لك سبعت لنسائى».

وعن أنس، من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها ثم قسم واذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم.

٢- وثانى هذه الخطوط: التكافؤ فى الانسانية. فمن سنن الاسلام أن المرأة كالرجل فى الإنسانية إلا أن زوجها رئيسها ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذا شئ غير مألوف لا عند العرب ولا فى زمان نزول الإسلام ولكنه دين الله.

ومن أمثلة هذا التكافؤ فى حياة الرسول ﷺ العملية، انه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته، وإذا تزوج امرأة فبرضاها.

يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا. فبقوا واجمين فدخل على زوجه أم سلمة وهو متأثر فسألته، فأخبرها فقالت: يا رسول الله أتجب ذلك؟

أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، فلما رأى المسلمون ما صنع النبى ﷺ زاح عنهم الذهول فقاموا عجلين ينحرون هديهم ويحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل الآخر.

وقال عمر: فتغضبت يوما عل امرأتى فاذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله ان أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم الى الليل؟ قالت: نعم. قلت: «قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر».

وقال أنس فى الحديث عن صفية: «فكان ﷺ يحوى لها وراءها بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رضى الله عنها رجلها على ركبته حتى تركب».

فاذا ما عرفت إنه فى عصر الفروسية فى أوروبا الذى يعتبر العصر الذهبى للمرأة

ما كانت تجرؤ امرأة على أن تقدم مشورة لزوجها. أدركت أن تصرف محمد رسول الله ﷺ ليس وليد بيئته ولا زمانه وإنما هو تصرف الأنبياء.

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربى يتحدث عن المرأة فى عصر الفروسية قال:

«يروى (أى صاحب الكتاب) فيها أن الملكة «بلانشفلور» ذهبت إلى قرينها الملك «بيبين» تسأله معونة أهل اللورين، فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده. فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول: «شكرا لك. إن أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء».

ولم تكن هذه حادثة مفردة، لأن الكلمات على هذا النحوكثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة».

ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ. ان رسول الله ﷺ ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته، وأن يخدم نفسه، بل انه كان يقوم احيانا بحاجة أهله، وكان يقول:

«خدمتك زوجتك صدقة»، وإذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس عارا يترفع عنه الرجل، بل هو كمال يتطاول إليه الرجل ولا يأنف، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ﷺ.

٣- والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلا متجملا، وأن يقضى حقها الجنسى، وأن يكون لطيفا معها مؤنسا لها، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول ﷺ لأزواجه.

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقا، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وكان يقول: «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلوا ذلك فزنت نساؤهم». ويقول: «فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا

يعجلها حتى تقضى حاجتها» وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد فى وصفه إذا خلا مع أهله:

«كان ألين الناس ضحاكا بساما».

«كان أفكه الناس مع نسائه».

«كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر. قيل لأنس: وكان يطيقه؟

قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين فى الجماع».

وكان من آداب الاسلام أنه إذا كان للرجل زوجة أن يعفها. أى أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة الى الرجال.

وجعل رسول الله ﷺ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفةتحت يده، الدائمة العشرة له، فكان من كلامه: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب:

«أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره».

٤- والخط العريض الرابع فى معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن:

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة إلا أن تخرج عن الخط السوى فيؤدب:

تقول عائشة رضى الله عنها: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاما وهو فى بيتى، فأخذنى أفكل - أى قشعريرة - فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الاناء ثم ندمت فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال: إناء مثل إناء وطعام مثل طعام.

وكان يدارى قلوبهن حتى تصفو. تقول صفية: وما كان أبغض الى من رسول الله ﷺ قتل أبى وزوجى فما زال يعتذر الى وقال: يا صفية.. إن أباك ألب على العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى.

وكن يأخذن حريتهن فى الكلام فيسمع ويرد ويؤدب.

كان رسول الله ﷺ يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء في دنيا المروءة وكان من وفائه لها أنه يبر كل امرأة كانت لها صلة بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من خديجة وهي متوفاة قالت له مرة:

خديجة.. خديجة.. لكأنما ليس في الأرض امرأة الا خديجة. فتركها فترة ثم عاد وأمها أم رومان عندها فقالت له أمها: يا رسول الله ما لك ولعائشة؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها. فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لها:

ألست القائلة: كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة؟

وقالت له مرة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها فأسكتها قائلا:

«والله ما أبدلني الله خيرا منها. آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها».

وقالت: دخل علي يوما رسول الله ﷺ فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: يا حميراء كنت عند أم سلمة. قلت: ما تشبع من أم سلمة؟ فتبسم ثم قلت: يا رسول الله ألا تخبرني عنك لوأنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى؟ قال: التي لم ترع قلت: فأنا ليس كأحد من نسائك، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيري، فتبسم عليه السلام.

وكن يمزحن فيشاركهن سرورهن.

أخرج أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ بحريرة قد طبختها له فقلت لسودة رضي الله عنها والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي فأبت فقلت: لتأكلين أو لألطخن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فطليت وجهها فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: ألطخي وجهها فضحك النبي ﷺ لها.

وفى رواية: فخفض لها ركبته لتستقيد منى فتناولت من الصفحة شيئا فمسحت به وجهى ورسول الله ﷺ يضحك.

٥- والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن الى أخلاق النبوة ولم يستطعن أن يحدن به عن طريقه، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخييرهن إذ طلبن أن يوسع عليهن فى المعيشة والنفقة، وكانت سنة رسول الله ﷺ الإعراض عن الدنيا وطلب الآخرة، فكانت النتيجة أن خيرهن بين البقاء عنده، والرضا على هذه الحياة الهادفة الى اليوم الآخر. أو الطلاق، وأمرهن بيدهن، وهذا غاية العدل وغاية الحزم.

وهذه هى القصة كما يرويها بعض الصحابة:

أخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال:

- أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت فقال عمر: لأكلمن النبى لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى حتى بدت نواجذه وقال: هن حولى يسألننى النفقة، فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان:

تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال: «إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك، قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

قالت: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر

لامرأة من نسائك ما اخترت فقال ﷺ : إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها.

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال :

فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فتغضبت على امرأتى يوما فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل. فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هى قد هلكت. فتبسم رسول الله فقلت : يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك أن كانت جارتك هى أوسم وأحب الى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله؟

قال : نعم.

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر إلا أهبة (جلودا) ثلاثة فقلت : ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالسا ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا.

فقلت : استغفر لى يا رسول الله.

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل.

وفى كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالى والقدوة العليا فى كل أمر. ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول ﷺ الذى كان عنده هذا العدد من النساء، والذى كان يقوم بواجبه تجاههن، والذى كان يعطيهن من ذاته ما رأينا. هو الذى كان يقوم بالأعباء الضخمة التى لم يتحمل مثلها رجل غيره. من عبادة إلى سياسة إلى قتال إلى تدبير أمر، ومن عادة الناس أن يشغلهم شئ من هذا عن

أهليهم، ولكنه الكمال عند رسول الله ﷺ حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام بإحداها على غيره وذلك من دلائل النبوة والرسالة.

وأخيرا:

يقول العقاد: قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية.

قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قبل كل شئ لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة، ويشعر بمتعتها: هذا سواء الفطرة لا عيب فيه، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين، والتقاء الذكر والأنثى، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى.

أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه؟ أرأيت الى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته الى وطنه؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه؟

أرأيت الى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه.

هذا هو سواء الفطرة لا مراء.

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططا في طلابه. فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع.

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

من من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية، والدول الاسلامية؟ ومن ذا الذى يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟

عم شغلته المرأة؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب. ورسالة محمد إذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة، فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور. وأعجب شئ أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها.

نساء محمد يشكين قلة النفقة والزينة، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟ أما كان عليه يسيرا أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط فى ميله الى النساء؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟ لم يكلفه شيئا من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون. بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله الى نسائه. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين، ولا شك فى قدرة النبى عليها لو أراد.

* * *

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهرون من مؤرخى أوروبا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم.

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لانه لا يعطيهن الزينة التى يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه.

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه.. أقبح فلاح.

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع. فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفا من صباه إلى كهولته، فلم يعرف أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه. ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح.. بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة.. وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل.

* * *

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها، ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته،

ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه وذلك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

نسوا أنه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات.

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى نحو الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختر حمالا مطلوبا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه.. ولو شاء لما كلفه ارضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه.

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادواأن يعيبوه وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها.

* * *

وبعد فهل رأيت زوجا مثل محمد ﷺ بين الأزواج: إنك لن ترى، وكذلك لن ترى مثله أبا بين الآباء:

أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ: قال: كان إبراهيم (أى

ابنه الصغير) مسترضعا له فى عوالى المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وأنه (أى البيت) ليدخن وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع.

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : رأيت الحسن والحسين (رضى الله عنهما) على عاتقى النبى ﷺ فقلت نعم الفرس تحتكما . فقال النبى ﷺ : ونعم الفارسان هما .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ حامل الحسن (رضى الله عنه) على عاتقه فقال له رجل : يا غلام نعم المركب ركبت ، فقال النبى ﷺ ونعم الراكب هو .

وأخرج الطبرانى عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يصلى فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فامسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية مطيتكما .

وأخرج الطبرانى عن جابر قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يمشى على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضى الله عنهما) وهو يقول :

« نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما » .

وأخرج الطبرانى عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا الى طعام فاذا الحسين (رضى الله عنه) يلعب فى الطريق مع صبيان فأسرع النبى ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه فجعل احدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال : حسين منى وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط .

أرأيت رسول الله ﷺ فى جلاله العظيم كيف يعطى الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد .

أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير من العباس رضى الله عنهم ثم يقول : من سبق فله كذا وكذا قال : فيستبقون اليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وإنه جاء من سفر فسبق بى اليه فحملنى بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن ـ أو الحسين ـ رضى الله عنهما فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة.

وأخرج ابن عساكر أيضا عن عبد الله بن جعفر قال: مر بى رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان فحملنى أنا وغلام من العباس رضى الله عنه على الدابة فكنا ثلاثة.

وأخرج ابن عساكر أيضا عنه قال: «لو رأيتنى وقثما وعبيد الله ابنى عباس رضى الله عنه ونحن صبيان نلعب إذ مر رسول الله ﷺ على دابة فقال: ارفعوا هذا الى فجعلنى أمامه وقال: ارفعوا هذا الى فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب الى عباس من قثم فما استحيا من عمه أن حمل قثما وتركه قال: ثم مسح على رأسى ثلاثا كلما مسح قال: اللهم اخلف جعفرا فى ولده».

ولا تحسب أن هذا الاكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان:

أخرج البُخارى عن أبى قتادة قال: خرج علينا النبى ﷺ وأمامه بنت أبى العاص رضى الله عنها (أى بنت بنته) على عاتقه فصلى فاذا ركع وضع واذا رفع رفعها.

وأخرج الطبرانى عن السائب بن يزيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قبل حسنا رضى الله عنه فقال له الأقرع بن حابس: لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم، فقال النبى ﷺ: لا يرحم الله من لا يرحم الناس.

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسجد فيجيء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال: يا نبى الله أطلت السجود فيقول: «ارتحلنى ابنى فكرهت أن أعجله».

* * *

والشعب الذى كان يئد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات، ولا يرى أحدهم البنت شيئا، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيء الذى وصفه القرآن: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن

سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[النحل: ٥٨-٥٩]

هذا الشعب هو الذى كان منه رسول الله ﷺ وكان يعامل بناته بما يلى: فهل تراها بعدما تقرؤها أخلاقا وليدة بيئتها، أو أنها النبوة والتربية الالهية لصاحبها، وحاشا أن تكون إلا الثانية.

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: « ما رأيت أحدا من الناس أشبه بالنبى ﷺ كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة رضى الله عنها قالت: وكان النبى ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه وكانت إذا آتاها النبى ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته. وإنها دخلت على النبى ﷺ فى مرضه الذى قبض فيه فرحب بها وقبلها وأسر اليها فبكت ثم أسر اليها فضحكت، ولما سألتها عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى إذا قبض ﷺ قالت فاطمة: « أسر الى فقال: إنى ميت فبكيت ثم أسر الى فقال: إنك أول أهلى بى لحوقا فسررت بذلك وأعجبنى ».

وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة رسول الله ﷺ.

وأخرج الترمذى عن جميع بن عمير التيمى قال: « دخلت مع عمتى على عائشة رضى الله عنها فسئلت أى نساء كان أحب الى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة. فقيل من الرجال؟ قالت: زوجها إن كان ما علمت صواما قواماً ».

وعن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال: « خطب على بنت أبى جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبى ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكح ابنة أبى جهل فقام النبى ﷺ فتشهد وقال: « أما بعد.. فإنى أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى وإن فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها والله لا تجتمع بنت رسول الله - ﷺ - وبنت عدو الله أبدا » قال: فترك على الخطبة ».

وفى رواية أخرى قال: « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: « إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن

ثم لا آذان إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما هى بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها» أخرجه الخمسة إلا النسائى.

أرأيت برا أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج وإلا فأى بنت من بناته الأربع كانت تلاقى من العطف والبر ما تلاقيه فاطمة رضى الله عنها إنها كمال الأبوة فى أكمل نبى.

* * *

ولكن الشئ الأدل فى هذا الفصل على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش الا كما يعيش أكثر الناس فقرا. ذلك طابع الحياة التى يريدها رسول الله ﷺ لنفسه ولأهله، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر وتأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق اليه بشهادة عائشة هى فاطمة:

أخرج البيهقى فى الدلائل عن على قال:

«خطبت فاطمة الى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لى: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: قد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله فيزوجك فقلت: وعندى شئ أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله زوجك قال: فوالله ما زالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة.

فقلت: نعم.

فقال: وهل عندك من شئ تستحلها به.

فقلت: لا والله يا رسول الله.

فقال: ما فعلت درع سلحتكها؟ فوالذى نفس على بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت: عندى فقال: قد زوجتكها فابعث اليها بها فاستحلها بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

وأخرج النسائى عن ثوبان :

« . . فانتزعت فاطمة سلسلة فى عنقها من ذهب فقالت : هذه أهداها إلى أبو حسن فدخل ﷺ والسلسلة فى يدها فقال : يا فاطمة . . أيسرك أن يقول الناس : ابنة رسول الله ﷺ فى يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فاعتقته فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذى أنجى فاطمة من النار » .

وأخرج البخارى ومسلم : « قال على لابن أعبد : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة؟ قلت : بلى قال : إنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبى ﷺ خدم فقلت : لو أتيت أباك فسألته خادما فأتته فوجددت عنده حداثا فرجعت فاتاها من الغد فقال : ما كان حاجتك؟ وسكتت فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها وحملت بالقربة حتى أثرت فى نحرها فلما أن جاء الخدم امرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هى فيه فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك واذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثا وثلاثين واحمدى ثلاثا وثلاثين وكبرى أربعا وثلاثين فتلك مائة فهى خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله . . ولم يخدمها » .

* * *

إن كمال محمد ﷺ كزوج وكماله كأب، كماله فى عدله وفى رحمته وفى لطفه وفى أنسه، وفى رعايته وفى حسن سياسته وفى استقامته، وفى حمل أزواجه وأولاده على طريقه . كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للانسان فى كل جانب من جوانب حياته، وأنه القدوة العليا لكل إنسان فى أى جزء من أجزاء تصرفاته .

* * *

وإلى الفقرة الثالثة :

٣- المعلم والمربى الأول

لقد حدد رسول الله ﷺ مهمته الأساسية بقوله : « إنما بعثت معلما » والقرآن

الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢] فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول: التعليم والتربية. تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقا بهذا الجانب إذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير لا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو أخلاقيا إلا به، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية الا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه. إما إلى الجهل أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع.

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه. تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة. ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد.

والظاهرة التى نجدها فى تاريخ محمد ﷺ أن السيد الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية. بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الأمة، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الأمة انصهارا تاما. ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته، ورباه على أدائها، وحدد للجميع المهمة الكبرى، ورسم لهم الطريق، موضحا لهم كل شئ فى كل جانب، وقادهم فى هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه، فانطلقوا بعده لا غيروا ولا بدلوا فكان ما كان ولا زال. مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذى كلما تعثر أخذت بيده تعاليم محمد وتربيته فانقذته وقذفت به الى الأمام.

* * *

وبعد فإننا نقول: إن كمال المربى يظهر:

١- بمقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الانسان وعقله من حالة دنيا الى حالة أعلى وكلما رقى بالانسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر.

٢- فى سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم الى كمالهم الانسانى، فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال.

٣- ثم فى صلاحية هذه التعاليم والتربية، وحاجة الناس جميعا لها، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور. بحيث لا يستغنى البشر عنها، وبشهادة العدو والصديق المؤمن والكافر ما بلغ أحد فى تاريخ البشرية ما بلغه محمد ﷺ فى هذه الجوانب كلها حتى قال موير: «لم يكن الاصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحا وإصلاحا تم كالذى تركه عند وفاته». وقالت دائرة المعارف البريطانية: «لقد صادف محمد النجاح الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى فى زمن من الأزمنة» ويقول بوزورث اسمث: «إن محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق».

ويقول هيل:

«إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة، وغير العالم بأثره المباشر، كما فعل الاسلام ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد. لقد أخرج أمة الى الوجود ومكن لعبادة الله فى الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى».

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وقد أعماهم حقد صليبى موروث فشهدوا ولم يؤمنوا. وما أغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا.. وهاك آثار تربيته:

أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفوا برؤيته والايمان به وعشرات الألوف. من هذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا. وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد ﷺ وبين حياتهم بعده، بين واقعهم قبل ذلك وبين واقعهم بعده، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وبين أعمالهم

وتصرفاتهم بعد . بين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية . بين تصوراتهم عن الله والكون والانسان أولا وبين تصوراتهم ثانيا، إنك تخرج نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التى نقل إليها رسول الله ﷺ هؤلاء من طور الى طور، من حضيض الى سمو لا يدانيه سمو آخر.

خذ مثلا شخصية عمر بن الخطاب فى الجاهلية تجده رجلا قبلى الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور، محدود الإدراك، همه فى الحياة: السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه . ولولا رسول الله ﷺ لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما أن يشرب كأس الاسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العبقرى الفذ، ورجل الدولة العظيم الكبير، ورمز العدل الذى لا يكون الا معه مع الحزم والرحمة، سعة الأفق وصدق الإدراك وحسن الفراسة . .

عمر الذى أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها . ما كان ليكون شيئا لولا أنه تربى فى حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكمة والتربية .

* * *

عبد الله بن مسعود راعى الابل المحتقر المهان فى قريش، الذى ما كان ليعرفه الا سيده ومن يستخدمه، هذا الرجل النحيل القصير الحمش الساقين . ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة، يصبح الرجل الذى يعتبر مؤسس أكبر مدرسة فى الفقه الاسلامى والتى ينتسب إليها أبو حنيفة النعمان، يصبح الرجل الذى يقول فيه عمر لأهل الكوفة : لقد آثرتكم بعبد الله على نفسى .

* * *

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كل شئ فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت فى الطريق الصحيح، الطاقات الجسمية . والطاقات العقلية . والطاقات النفسية . والطاقات الروحية . والطاقات الوجدانية، والمعنوية والاخلاقية . هذه الطاقات كلها انطلقت فى اطارها الصحيح وطريقها المستقيم . بحيث لا يستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابه أو أنها تعمل عملا غير صالح .

طاقة العمل: «إن الله يحب العبد المحترف».

طاقة المشاركة فى العمل العام:

«إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا الى دينكم».

الطاقة الجنسية: «تزوجوا الولود الودود».

الطاقة الجسمية: «المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف...».

ملكة حسن الهندام: «فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش».

طاقة الفكر والعلم: «طلب العلم فريضة» «تفكر ساعة خير من عبادة...».

إنك لا تجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله ﷺ فى طريقها الصحيح، فأصبحت ترى من أصحابه العجب، فى تكامل شخصياتهم عبادا زهادا شجعانا محاربين عادلين رحماء إداريين حكماء مربين. كل واحد منهم أمة، وما أسهل عليه أن يقود أمة، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميرا بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم فى ما ولى من قيادات.

* * *

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة:

أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت - يعنى للنبى ﷺ - : «ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبى ﷺ الى أبيها فجاء فجعل الأمر اليها فقالت: يا رسول الله أنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ».

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها، وتريد أن تعرف الأخريات عليه. وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها، وتجد من يسمع لها ويعطيها إياه. متى كان ذلك لولا تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة؟

وأخرج الخمسة إلا مسلما قصة الحب العجيبة تلك التى كانت بين العبد معيث والأمة بريرة التى أصبحت بعد ذلك حرة وانفصم ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعا بها يقول ابن عباس:

«إن زوج بريرة كان عبدا يقال له « مغيث » كأنى أنظر إليه خلفها يطوف ودموعه تسيل على لحيته فقال رسول الله ﷺ للعباس: ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا؟ فقال لها رسول الله: لو راجعتيه؟ فقالت: يا رسول الله تأمرنى؟ قال: لا إنما أشفع قالت: لا حاجة لى فيه».

أهناك أبلغ فى التربية من هذا الذى وصلت إليه هذه الأمة حتى نساؤها الإماء. أن أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه ويقف عنده.

أخرج الرويانى وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال:

كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فرددها ثلاث مرات. فقدمنا فبايعنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله.. قد بايعناك فعلى أى شئ نبايعك؟

فقال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا. قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله إياه.

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من يبايع؟ فقال ثوبان رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ: بايعنا رسول الله! قال: على أن لا تسأل أحدا شيئا.

فقال ثوبان: فما له يا رسول الله؟

قال: الجنة.

فبايعه ثوبان.

قال أبو أمامة: فلقد رأيته بمكة فى أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو

راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه.

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: أعطى النبى ﷺ حكيم بن حزام رضى الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال: يا رسول الله.. أى عطيتك خير؟ قال: الأولى. فقال النبى ﷺ: يا حكيم بن حزام.. إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، قال: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى! قال: فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا أبدا.

قال: فلم يقبل ديوانا ولا عطاء حتى مات.

قال: وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: اللهم إنى أشهدك على حكيم بن حزام أنى أدعوه لحقه من هذا المال وهى يأبى، فقال: إنى والله ما أرزأك ولا غيرك شيئا. كذا فى الكنز جـ٣ ص٣٢٢ .

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى: عزة نفس لا مثيل لها وماذا فى طياتها من أبلغ ما تصل إليه التربية الاستقلالية التى لا يكون معها معنى من معانى الاتكال على الغير.

* * *

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال: أتى رجل النبى ﷺ ثائر الرأس واللحية فأشار اليه ﷺ كأنه يأمره باصلاح شعره ففعل ثم رجع. فقال ﷺ: «أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان».

وأخرج مالك والنسائى عن أبى قتادة قال:

قلت: يا رسول الله.. إن لى جمة أفأرجلها؟

قال: نعم وأكرمها.

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين من أجل قوله ﷺ: نعم وأكرمها.

أرأيت هذه التربية التى لا تدع جانبا من الجوانب إلا وتستوعبه دق أو كبر مما له علاقة بظاهر الانسان وباطنه.

* * *

قال أبو داوود:

«وغير رسول الله ﷺ اسم العاصى وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه: هشاما وسمى حربا سلما وسمى المضطجع المنبعث وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبنى الزنية سماهم بنى الرشدة وسمى بنى مغوية بنى رشد».

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التى يربى كل شئ فى الأمة بها على نسق منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التى وصلت إلى الأسماء.

* * *

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة».

ثم نزل فقال قوم:

من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب. فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله.. ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟

فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا، فقالوا: يا رسول الله.. أنعظن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم: أنعظن غيرنا؟

فقال ذلك أيضا. فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

أرأيت أبلغ من هذه التربية التى تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الأمة كلها؟ وهل رأيت نصا قبل هذا النص فى العالم يفرض التعليم ويجعله الزاميا اجباريا؟ ولعلك ستدهش فى الرسالة الثالثة عندما سترى مزيدا عن النظام التعليمى فى الاسلام. عن كماله واستيعابه لكل حاجات الانسان الروحية والمادية.

* * *

وأخرج الشيخان عن أنس قال: بينا نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه.. مه.. فقال رسول الله ﷺ: لا تزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له:

«أن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول والقذر إنما هى لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أى صبه)».

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعى الحضارى عند العرب، إذ ما من إنسان فى العالم يبول فى معبده، ولكن العربى فعلها وكان موقف الرسول ﷺ منها موقف المربى الذى مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس: إذ رأى المسلمين يصلون صفا واحدا منتظما فقال:

أكل عمر كبدى إذ علم هؤلاء مكارم الأخلاق. وما كان عمر هو الذى علمهم مع فضله ولكن الذى علمهم وعلم عمر هو رسول الله ﷺ.

* * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول ﷺ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية. بترتيب وسائل هذه التربية، فكان لا يكتفى من القبيلة بإسلامها حتى يأتيه وفدها، وكان يبقى الوفد عنده فى المدينة أياما تمتد كثيرا أحيانا. وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة جديدة. سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء به. أو بأمر أصحابه أن يعلموهم. حتى إذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلا منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه، وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان، ليقوموا بدور المربى. فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشرا أصبحت الجزيرة العربية – وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة. واعية لدين الله، مرباة مهذبة الى حد كبير، تغيرت مفاهيمها الى أعلى ما يبلغ إنسان من تصورات، بعد أن كانت فى أدنى دركات الانحطاط الفكرى حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساء.

* * *

وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة. وسترى فى بحث المعجزة القرآنية كيف أن هذا القرآن أحاط بكل شئ. وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد. فلم يعد به خافيا على أحد ما ينبغى أن يأخذ وأن يدع، ولم يبق معه سؤال بلا جواب، ولم تبق حجة لمنحرف إلا وقد دحضت فيه، ولا شبهة على الاسلام وأهله إلا كشفت به، ولا جانب من جوانب الحياة إلا وقد عرف الحق فيه منه.

والرسول ﷺ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظا وفهما وتطبيقا. إذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها، ويسمو تفكيرها، وتتفتح آفاق الحياة أمامها، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذا للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا. وربى أصحابه على ذلك، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه، والحرص عليه، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله: إنكم

تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله . . امضوا وأنا شريككم .

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء فى ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل . فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكرا أو حربا أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ﷺ ولا يمكن أن ينسب لسواه، وحدث بذلك مرة واحدة فى تاريخ البشر أن الانسانية رأت أمة : الحق عندها يحكم القوة، والزهد عندها ترافقه الشجاعة، والعبادة عندها ترافقها الحكمة، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فانها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت فى دينها .

أو ليس عجيبا أن البلاد التى فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ قد دخل أهلها فى الاسلام طوعا لا كرها وأخلصوا للدين الجديد حتى فدوه بالأرواح والأموال والأولاد مع أن الاسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك إنما كان كأثر من الإعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين الأديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال .

* * *

وسنروى الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكرى الذى وصل اليه أصحاب رسول الله ﷺ بحيث جابهوا به كل الثقافات الأخرى غالبين، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة : أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبى بلتعة - رسول رسول الله إلى المقوقس - مع المقوقس، وثانيها خطاب العلاء الحضرمى للمنذر بن ساوى أمير البحرين التى كانت تشمل فى الماضى الكويت الحالية وقطر والبحرين والأحساء بأسمائها الجديدة، وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم . وهذه هى مرتبة :

١- قال المقوقس لحاطب : « ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ قال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم » .

٢- وقال العلاء الحضرمى لأمير البحرين:

« يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة. إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة.. ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر:

هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا تصدقه، ولمن لا يخون ألا تأمنه، ولمن لا يخلف ألا تثق به، هذا هو النبى الأمى الذى لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه. إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل، وفكر أهل النظر».

وقد أسلم المنذر.

٣- ولما أرسل سعد بن أبى وقاص الى كسرى وفدا يدعونه الى الاسلام كان من قصتهم:

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، والنعال فى أرجلهم وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها[١]، ولما استأذنوا على الملك يزجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه، وكان متكبرا قليل الأدب - ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها عن الأردية والنعال والسياط.

ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه. ثم قال لهم: ما الذى أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال له النعمان بن مقرن رضى الله عنه:

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة.

---

(١) عددها وعددها: الأولى بفتح العين والثانية بضمها.

فلم يدع الى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص، فمكث ذلك ما شاء الله ان يمكث. ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكره عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين الاسلام. حسن الحسن وقبح القبيح كله. فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم. وإن أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم.

قال: فتكلم يزدجرد فقال:

إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم لا تغزونكم فارس ولا تطمعون ان تقوموا لهم، فان كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فاسكت القوم.

فقام المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فقال:

أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الاشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك. فجاوبنى، أكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع. كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يبغى بعضنا على بعض، وان كان أحادنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تاكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم

على ما ذكرت لك. فبعث الله رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو نفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد، أول ترب كان له الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا الا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله.

فقال لنا: إن ربكم يقول: أنا الله وحدى لا شريك لى كنت إذا لم يكن شئ، وكل شئ هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شئ وإلىّ بصير كل شئ، وإن رحمتى أدركتكم، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها ــ بعد الموت ــ من عذابى، ولأحلكم دارى دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق. وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه..

فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجو بنفسك. فقال: يزدجرد: أتستقبلنى بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمنى. ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به.

* * *

عرضنا هنا جانبا من جوانب تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة، وسيمر معك جانب آخر فى باب الثمرات، وسيأتيك فى البحث الثالث (عن الاسلام) الجوانب التفصيلية لمنهاج التربية والتعليم الذى شرعه رسول الله ﷺ للانسانية، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر فى أمر دين أو دنيا الا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم، الذى جعل الأمة الاسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة فى ميزان الحضارة، ورفعت به أمم الغرب فكان من آثاره ما هم عليه الآن، وتخلت عنه الأم الاسلامية فوصلت الى ما هى عليه الآن.

ونظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للاقناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مربيا

كمحمد ﷺ. فعل ما فعل بامكانياته المحدودة ماديا، وبشعب أمى عمليا، وخذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة، والامكانيات غير المتوفرة من الناحية النفسية والاخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية، الى معشار ما نقل اليه رسول الله ﷺ أمته فى سنوات معدودات؟ اللهم لا.

* * *

ونريد أخيرا أن نقرر حقيقة هى: لئن شارك غير محمد ﷺ محمدا ﷺ فى بعض جوانب ربى عليها رسول الله ﷺ البشر. فان رسول الله ﷺ وحده هو الذى وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح، أما غيره فلئن أصلح جانبا فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس البشرية ذرة من جبل. أما رسول الله ﷺ فقد أصلح النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها وبهذا نقول:

إنه فى الأصل لا يوجد مرب غير محمد ﷺ. فقولنا إنه المربى الأول وقدوة المربين لا يعنى أننا أعطينا لغير من سلك طريقه صفة التربية حاشا، وإنما هو لتقريب الأمور كى تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه:

إن النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهى تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق، وتحب المتعة من تمتعها بالجمال الى الخمر الى ما يلذ. وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء. وما يمتع هذه النفس تود الوصول إليه مهما كان نوعه، وبأى طريق، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين، والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم.

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيد.

والنفس حريصة على الحياة، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئا ضروريا، ككونه لحرب عادلة، والنفس بشكل عام تود أن يؤدى لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها.

وهذا الذى أجملناه بعض ما فى النفس.

وأن تعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل. إذ كل إنسان يحب الرئاسة. فهل يمكن أن يكون الناس كلهم رؤساء؟ وأجمل امرأة في العالم يتمناها زوجة كل إنسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر؟

لذلك فالبشر كلهم مجمعون على أنه لابد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية. تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين، وتربية الناس على ذلك.

والذى نراه أن بعض المربين ينجحون في جانب، ويفشلون في جوانب، فنجد زعيما نجح فى تربية قومه على التضحية، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على النظام، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على أداء الواجب، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على العمل، ولكنك فى المقابل تجد أنه نسى بقية جوانب النفس البشرية، فلم يفعل لها شيئا. هذه ناحية، وناحية أخرى فان هؤلاء نجحوا فى هذا الجزء، ولكن قد يكون هذا الشئ الذى نجحوا فيه غير موضوع فى محله، فالذى نجح فى تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغى، والذى نجح فى حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضحون فيما لا يستحق التضحية، ولكن الظاهرة التى نراها فى تربية رسول الله ﷺ أنه ربى كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح. فما ترى جانبا مضيعا، وما ترى تهذيبا فى غير محله، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفا كان ينبغى ألا يكون.

رباها على التضحية فى محلها، وعلى الفداء فى محله، وعلى النظام حيث يحسن النظام، وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة، وعلى التملك حيث يعدل التملك،وعلى العبادة لله، وحسن المعاملة للناس، كل ذلك وأمثاله وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب، أو ينسى جانب على حساب جانب، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه، أو تنتقد عليه. وفى المبحث الثالث «الإسلام» بيان هذا بما لا لبس فيه.

فمحمد وحده ﷺ هو مربى النفس البشرية، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة إلا بالقدر الذى يتأسى فيه برسول الله ﷺ.

وإلى الفقرة الرابعة :

٤- رجل الدولة الأول (سياسيا وعسكريا)

دمجنا العمل السياسى والعمل العسكرى فى هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكرى أثر عن العمل السياسى ومرتبط به ارتباطا كاملا لا ينفصل عنه، وقد يكون ذروته فى بعض الحالات التى تكون فيها الحرب لابد منها، ثم إن الامكانيات السياسية فى إدارة الحروب لا تنفصل عن الامكانيات العسكرية فى الإدارة السياسية، والرسول عليه السلام، كان قائد المسلمين سياسيا وعسكريا، وهو الذى سار بهم من نصر إلى نصر. حتى جعل مفاتيح العالم فى أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعوها إذا تتلمذوا مرة أخرى تلمذة كاملة على يديه.. عليه السلام.

على أنه وإن ارتبط العمل السياسى بالعمل العسكرى. فان لكل مجال كلام ينفرد فيه. لذلك فاننا سنقسم الكلام فى هذه الفقرة الى قسمين: الأول فى الكلام عن الرسول عليه السلام سياسيا. والثانى عسكريا، لنرى كيف أن الرسول عليه السلام فى كل كان فى القمة التى لا يرقى إليها أحد، وهو الأمى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية.

* * *

القيادة السياسية العليا

إن نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلى:

١- على استيعاب هذه القيادة لدعوتها، وثقتها بها وبأحقيتها، وثقتها بانتصارها. وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو اليه، بحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة، وبحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحا فعالا من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها.

٢- وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغا وإقناعا.

٣- وعلى قدرة القيادة فى استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيما وتسييرا.

٤- وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها.

٥- وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع، وأن تستطيع الاستفادة من كل إمكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة. بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح.

٦- وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد.

٧- وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع. فتضرب ضرباتها السياسية بشكل محكم.

٨- وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل الى النصر والاستفادة منه، وتطبيق مبادئ دعوتها تطبيقا صحيحا.

٩- وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاما يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد.

وما عرف التاريخ إنسانا كمل فى هذه الجوانب كلها إلى أعلى دجات الكمال غير محمد ﷺ. مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التى لا يحيط بها غير خالقها، وأن كمالاته ونجاحه واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق

الله إياه كل ذلك دليل أنه رسول الله الذى رباه، فأحسن تربيته وأحاطه برعايته.
ولنبدأ الآن باستعراض هذه الجوانب التسع فى سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كل وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا فى هذه الأبحاث الاختصار والإشارة لا التفصيل:

* * *

١ - استيعابه عليه السلام لدعوته نظريا وعمليا وثقته بها وبانتصارها

إذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب، ووثق بها وبمصيرها كل الثقة، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها، ولم يتزحزح عن جزء منها. بل الخطوة الثانية تأتى مكملة للخطوة الأولى، وممهدة للخطوة التالية، فذلك هو محمد رسول الله ﷺ فالرسول عليه السلام كان واضحا تماما لديه أن منطلق دعوته هو أن الحاكم الحقيقى للبشر لا يجوز أن يكون غير الله. وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك، وأن التغير الأساسى الذى ينبغى أن يتم فى العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض، إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد، وأن الأمة التى تحمل هذه القضية بكل متطلباتها، هى التى سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية، ولها قياداتها ومن هذه البداية، وإنسجاما معها، يقوم كل شئ فى حياة البشرية ثانيا، وحياة الأمة التى تحمله أولا ولننظر وضوح هذه الجوانب عنده ﷺ فى بداية الأمر ونهايته:

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: «لما مشوا إلى أبى طالب وكلموه ـ وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم ـ فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت. وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك قال: فقال رسول الله ﷺ :كلمة واحدة تعطونها تملكون بها

العرب وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، قال: تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم».

وروى ابن إسحاق عن الزهرى فى قصة عرض الرسول الله ﷺ دعوته على بنى عامر بن صعصعة ما يلى: ثم قال له (أى بحيرة بن فراس): أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال (أى رسول الله): الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا.. لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه.

قال عدى بن حاتم:

«بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة.. ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، فقال: إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى ابن هرمز، قال عدى: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز..».

وقد طالب المشركون رسول الله ﷺ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه وفى كل مرة كان يتنزل قرآن ويكون موقف رسول الله ﷺ الرفض ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال: مر الملأ (أى السادة) من قريش على رسول الله وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار رضى الله عنهم ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أى الملأ مخاطبين رسول الله): أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك قال: فأنزل الله عز وجل.

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥١-٥٢].. وأخرجه أحمد والطبرانى.

من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله ﷺ لدعوته وثقته بها وبانتصارها، وانسجام مواقفه معها، ووضوح طريقه أمامه، ومعرفته بنهايات ما يريد منها. فلم تضطرب بدايات مواقفه أبدا مع نهاياتها، بل كل خطوة تأتى تكون مكملة لما قبلها، وكل تشريع جديد يأتى متمما لما قبله، حتى كملت شريعة الله، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لو لا أن محمدا رسول الله.

وهذا أول ما يلزم العمل السياسى العام. تجده كأكمل ما يكون عند رسول الله ﷺ.

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذى قدمناه. أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل السياسى الإسلامى عملا مثاليا لا يستطيعه أى إنسان، فإذا ما عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه السلام استطاع أن يقوم الناس بهذا الاسلام. فلا نجد موقفا من مواقفه تناقض مع نصوص ومبادئ دعوته، وعلمت أنه ما من زعيم سياسى، إلا ويضطر للتناقض، إما لاحقا مع سابق، أو دعوى مع عمل، أو داخليا مع خارجى، أدركت مدى الكمال فى القيادة المحمدية، وخاصة اذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الاسلامية الى القيادة بالاسلام الكامل بحق إلا أفراد منهم الخلفاء الراشدون الأربعة والثالث ثير عليه وقتل ظلما. والرابع خرج عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسى. أما رسول الله ﷺ فقد ساس الناس بالاسلام ولم ينزل بالإسلام الى مستوى الناس بل رفع الناس إلى مستواه. على وتيرة واحدة، ونسق واحد، فى الفكر والعمل، من بداية الدعوة حتى انتقاله ﷺ إلى العالم الآخر.

* * *

٢ - استطاعته عليه السلام الاستمرار بدعوته تبليغا وإقناعا:

إن هناك شيئين أساسيين فى العادة، يجب أن يتفطن لهما قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة:

(أ) الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع.

(ب) البصر الحكيم فى الموقف الذى يتخذ من الخصم.

إن أى دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع

تجمد، ثم تنحصر ثم تموت، وأى دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول، ولنضرب على هذا مثالا:

إن الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الانجليز، اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف فى العمل. ومعناه عندهم أن لا يجابه الانسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هى عواطفها، وترتدع عن غيها، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأى العام خاصة عندما يكون على حق، وقد نجح الهنود أخيرا فى تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة. ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذلك أن يصمدوا أمام قوة بريطانيا فيكونون قد خسروا كثيرا وفشلوا أخيرا.

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين فى العمل عند رسول الله ﷺ تجد أن رسول الله ﷺ قد نجح فيهما نجاحا منقطع النظير، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا فى الباب السابق، ورغم العداء العنيف الذى ووجه به، ورغم كل شئ فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول ﷺ دعوته على القبائل، هى إلحاحه على قضية حماية الدعوة، واستمرارها وتأديتها، ولقد تجاوز الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاما من المجابهة للمشركين، دون انقطاع عن العمل، مما يدل على مقدار نجاحه فى هذا الموضوع.

وأما بالنسبة للأمر الثانى فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو فهو فى مكة: يصبر ويأمر أتباعه بالصبر، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلا. ولشغل بذلك فى قضايا الثأر. ولما أمكنه أن يتابع عملة التبليغ، وكسب بهذه الخطة كثيرا من القلوب.

فإذا ما انتقل الى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة، الى سلام، الى حرب، الى ضربة هنا ووثبة هناك، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس بها، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة.

واذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز فى هذا الطريق فانظر هذه المقارنة: إن الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر فى الدعاية وتفرغ أتباعها فانها لم تستطع أن تحقق نصرا وتعمم إلا بعد سبعين عاما من أول بيان أصدره زعيماها.

ولكن الذى حدث بالنسبة للدعوة الاسلامية أن رسول الله ﷺ عممها خلال ثلاث وعشرين عاما التعميم الذى يرافقه الإقناع. ولهذا فإننا نقول مطمئنين: إنه لم توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقيدى نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ﷺ وبفترة قصيرة وهذا كله يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون بدون توفيق إلهى لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين الرجال.

* * *

٣- قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية

إن الدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث:

١- ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربى أتباعها تربية نموذجية، بحيث يعطى أتباعها صورة حسنة عنها، مما يؤدى الى نفور الناس منها كأثر عن نفورهم من اصحابها. فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلا من أن يكون حجة لها، وهذا يؤلب الرأى العام ضدها تأليبا خطيرا ويعطى الرأى العام حجة تلو حجة عليها. وعلى العكس من ذلك إذا ما ربى أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بهم قبل إيمانهم بدعوتهم، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة.

٢- أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم فى سبيلها. فأمثال هؤلاء يكونون فى وضع مشلول، فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئا لها، وفى هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسئولياتها، والدعوة إذا كانت على امتداد دائم فإن هذه القيادة ستصبح فى وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها، وتكون المسألة هكذا. داعية واحد، ومدعوون كثيرون، أما فى الحالة الأخرى فإنك تجد العكس، وعندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة، فإن المسئولية يتحملها مجموع الأفراد، فيكون كل فرد داعية نائبا مناب القائد، وكل فرد يؤدى دوره. وفى النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة فى تحملها.

٣- وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة، والملاحظة التامة، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به، أو عندما يحسون بأنهم منسيون، أو عندما لا يعرف الانسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتورا عنها.

هذه النواحي الثلاث لابد من تلافيها لأى دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها.

وأنت عندما ترى حياة رسول الله ﷺ. وقيادته لأتباعه فى هذه الجوانب تجد تجنبه لهذه الجوانب، ووجود عكسها بشكل لا مثيل له. بحيث لا تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة، وهذه الجماعة، وكيف توسعت على مر الأيام.

ففى الجانب الأول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول ﷺ وكيف أن الأمة الإسلامية كلها قد وسعت تربية. وكيف ارتفع الأفراد من طور الى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها.

وفى الجانب الثانى ترى الحركية الدائمة التى كان يجعل أصحابه دائما يعيشونها. فإذا أسلم رجل رباه التربية الاسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة فى جهة من جهاتها، أو يقوم بجزء من أعبائها، وفى الجانب الثالث ترى دقة الرسول فى الرعاية والعناية والسهر على شئون الأتباع بشكل عجيب، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين ممثل لهما فى غير هذا المقام!!

أخرج ابن إسحاق عن أم سلمة أنها قالت: لما ضاقت مكة، وأوذى أصحاب رسول الله وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه، لا يصل اليه شئ مما يكره، ومما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله: «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه» وقد وجههم مرتين الى الحبشة. مرة فى السنة الخامسة، ومرة فى السنة السابعة، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظم مراحل الاضطهاد. مرحلة المقاطعة الشاملة.

وعندما قرر الرسول الهجرة الى المدينة، وجه أتباعه كلهم قبله، وبقى فى مكة

حتى إذا لم يبق إلا من له عذر خرج مهاجرا، وأخرج أحمد عن شداد بن عبد الله قال: قال أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة بأى شئ تدعى أنك ربع الاسلام؟ قال: إنى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئا ثم سمعت عن رجل يخبر أخبار مكة ويحدث أحاديث. فركبت راحلتى حتى قدمت مكة، فإذا أنا برسول الله مستخف واذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت: ما أنت؟

قال: أنا نبى الله؟ فقلت: وما نبى الله؟

قال: رسول الله. قال قلت: الله أرسلك؟ قال: نعم. قلت: بأى شئ أرسلك؟ قال: بأن يوحد الله ولا يشرك به شئ وكسر الأوثان وصلة الرحم. فقلت: من معك على هذا؟ قال: حر وعبد (أو عبد وحر) وإذا معه أبو بكر بن أبى قحافة وبلال مولى أبى بكر. قلت: إنى متبعك، قال. إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن ارجع الى أهلك. فاذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى. قال: فرجعت إلى أهلى وقد أسلمت. فخرج رسول الله مهاجرا إلى المدينة فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب. فقلت: ما هذا المكى الذى أتاكم؟ قالوا: أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. وحيل بينهم وبينه، وتركنا الناس سراعا. قال عمرو بن عبسة: فركبت راحلتى حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفنى؟ قال: نعم، ألست أنت الذى أتيتنى بمكة؟ قال: قلت: بلى..

هذه أمثلة ثلاثة تدلك على مبلغ دقة الرسول فى توجيه أصحابه بالشكل الذى يحمون فيه ويأمنون، وكيف أنه لا ينسى أحدا منهم، بل يستوعبهم جميعا برعايته، وكيف يعدهم للحظة المناسبة، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه، ولا ننتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة ثلاثة أخرى على سهره على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم:

- أخرج أحمد عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه. فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته

الا ليستتبعنى فلم يفعل، فمر أبو القاسم فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى فقال: أبا هريرة.. قلت له: لبيك يا رسول الله. فقال: الحق. واستأذنت فأذن لى فوجدت لبنا فى قدح قال: من أين لكم هذا اللبن؟ فقالوا: أهداه لنا فلان _ أو آل فلان _ قال: أبا هر.. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: انطلق الى أهل الصفة فادعهم لى. قال: واهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها قال: وأحزننى ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومى وليلتى وقلت: أنا الرسول فإذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم وقلت ما يبقى لى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: أبا هر.. خذ فأعطهم. فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت الى رسول الله فأخذ القدح فوضعه فى يده وبقى فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر الى وتبسم وقال: أبا هر.. قلت: لبيك رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. فقلت: صدقت يا رسول الله، قال: فاقعد فاشرب، قال: فقعدت فشربت ثم قال لى: اشرب فشربت فما زال يقول لى اشرب فأشرب حتى قلت: لا.. والذى بعثك بالحق ما أجد له فى مسلكا قال: ناولنى القدح، فرددت إليه القدح فشرب من الفضلة.

وأخرجه البخارى كذلك.

- وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمى قال:

كنت أخدم النبى فقال لى: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ قلت: لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شئ، فأعرض عنى، ثم قال لى الثانية: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ فقلت: ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شئ، فأعرض عنى، ثم رجعت إلى نفسى فقلت: والله لرسول الله أعلم منى بما يصلحنى فى الدنيا والآخرة والله لئن قال لى: ألا تزوج؟ لأقولن: نعم يا رسول الله مرنى بما شئت. فقال لى: يا ربيعة.. ألا تزوج؟ قلت: بلى.. مرنى بما شئت.

قال: انطلق الى آل فلان - حى من الأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله ﷺ _ فقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم يأمركم أن تزوجونى فلانة _ لامرأة منهم _ فذهبت إليهم فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم يأمركم أن تزوجونى، فقالوا: مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ، والله لا يرجع رسول رسول الله ﷺ إلا بحاجته.

فزوجونى وألطفونى وما سألونى البينة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا. فقلت: يا رسول الله.. أتيت قوما كراما فزوجونى وألطفونى وما سألونى البينة وليست عندى صداق.

فقال رسول الله ﷺ: يا بريدة الأسلمى.. اجمعوا له وزن نواة من ذهب.. قال: فجمعوا لى وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لى فأتيت النبى ﷺ قال: اذهب بهذا إليهم فقل لهم: هذا صداقها فأتيتهم فقلت: هذا صداقها فقبلوه ورضوه وقالوا: كثير طيب، قال: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ حزينا فقال: يا ربيعة.. مالك حزين؟ فقلت: يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم رضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا: كثير طيب وليس عندى ما أولم. فقال: يا بريدة.. اجمعوا له شاة. قال: فجمعوا لى كبشا عظيما سمينا، فقال رسول الله ﷺ: اذهب إلى عائشة - رضى الله عنها - فقل لها: فلتبعث بالمكتل الذى فيه الطعام. قال: فأتيتها فقلت لها ما أمرنى به رسول الله ﷺ فقالت: هذا المكتل فيه سبع آصع شعير، لا والله لا والله إن أصبح لنا طعام غيره.. خذه. قال: فأخذته فأتيت به النبى ﷺ وأخبرته بما قالت عائشة، قال: اذهب بهذا إليهم فقل لهم: ليصبح هذا عندكم خبزا وهذا طبيخا، فقالوا: أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبى ﷺ.

وأخرج أحمد عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتى:

لا تدخلن عليكم جليبيبا، إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن.

قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبى ﷺ

فيها حاجة أم لا . فقال النبى ﷺ لرجل من الأنصار: زوجنى ابنتك . قال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين. قال: إنى لست أريدها لنفسى، قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: لجليبيب. قال: أشاور أمها، فقال: إن رسو الله ﷺ يخطب ابنتك، قالت: نعم ونعمة عين، قال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب، قالت: لجليبيب.. أنيه لجليبيب أنيه، لا لعمر الله لا نزوجه. فلما أن أراد ليقوم ليأتى النبى ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبنى اليكم؟ فأخبرتها أمها. فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعونى إليه فإنه لن يضيعنى! فانطلق أبوها الى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبا، قال: فخرج رسول الله ﷺ فى غزوة له، قال: فلما أفاء الله عز وجل عليه قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال: لكنى أفقد جليبيبا، قال: فاطلبوه. فوجدوه الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا: يا رسول الله.. ها هو ذا الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه. فأتاه النبى ﷺ فقال: قتل سبعة ثم قتلوه؟ هذا منى وأنا منه ــ مرتين أو ثلاثا. ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له،ماله سرير إلا ساعد النبى ﷺ ثم وضعه فى قبره، لم يذكر أنه غسله، قال ثابت: فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها».

ولعل فى هذه الأمثلة كفاية على إبراز مقدار رعايته لأتباعه واستيعابهم فى كل الجوانب.

* * *

٤ – الثقة التى كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جدا عند أصحاب الفكر السياسى لذلك ترى فى أنظمة الحكم الديموقراطية، أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التى تعرفها ببعض الوسائل، وقديما قال كونفوشيوس حكيم الصين: إن الحكومة ينبغى أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية لها، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم. قالوا فإن لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال تتخلى عن تأمين الطعام والشراب، قالوا فإن لم تستطع تأمين الاثنتين الأخيرتين قال: تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط فى الثقة».

وهذا شئ معقول إذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم ومتعاونين معها، فانهم يستطيعون بالتالى أن يسدوا النواقص، أما إذا فقدت الثقة: تلاشى كل شئ، وفقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شئ مجرب تاريخيا. إن فقدان الثقة يشل العمل السياسى ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية، ويضرب اقتصادها وبالتالى يهوى بها.

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسى للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له، فإن هذا إذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات، فإذا ما وضح هذا بشكل عام نقول:

إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلا واحدا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به.

إن ثقة الناس بالقائد الرسول، كانت ثقة متناهية، يكفى لإدراكها أن ترى بعضا من مواقف الصحابة فى أدق وأصعب وأحرج الأحوال:

فى يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول ﷺ والوفد الثانى للأنصار كان من أمرهم:

قال العباس بن عبادة:

– يا معشر الخزرج.. هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه؟ فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

وقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله.. وإن بيننا وبين الناس حبالا ـــ أى أحلافا وعهودا ـــ فلعلنا نقطعها ثم ترجع الى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس. فضحك رسول الله ﷺ من قوله وقال: الدم الدم.. الهدم الهدم. وفى رواية: بل الدم الدم.. والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال: يا قوم.. هذا رسول الله ﷺ أشهد أنه لصادق وأنه اليوم فى حرم الله وأمنه وبين ظهرى قومه وعشيرته فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال فى سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقا وإن خفتم خذلان فمن الآن. فقالوا عند ذلك: قبلنا عن الله وعن رسوله. ما أعطيانا وقد أعطينا من أنفسنا الذى سألتنا يا رسول الله فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فنبايعه، فقال أبو الهيثم: أنا أول من بايع.

وأخرج أحمد من حديث بيعة العقبة:

فقلنا - أى الأنصار - يا رسول الله.. علام نبايعك؟

قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة رضى الله عنه وهو من أصغرهم فقال: رويد يا أهل يثرب.. فانا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، واما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله..

قالوا: أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا.

* * *

من هذه النصوص يشعر الإنسان بمقدار الثقة التى كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثار مخيفة.

ومن مواقف مقدمات معركة بدر:

قال رسول الله ﷺ مخاطبا أصحابه:

ما ترون فى قتال القوم؟

فقام المقداد بن عمرو فقال :

إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

ثم تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة :

إيانا يريد رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا .

وقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .

قال : أجل .

قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك . . فسر على بركة الله .

* * *

هذه المواقف، وكل حياة الرسول ﷺ مع أصحابه مواقف من هذا النوع تدلك على مقدار الثقة المتناهية التى كانت لرسول الله فى قلوب أصحابه .

والحقيقة أن شخصية الرسول ﷺ كانت من الأسر والقوة والنفاذ، بحيث لا يملك من يخالطها إلا أن يذوب فيها، إلا إذا كانت شخصيته معقدة، ولعل فى قصة مولاه زيد بن حارثة ما يؤكد هذا المعنى . إذ يأتى أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به الى أهله حرا ولكن زيدا يختار صحبة محمد مع العبودية والغربة . على فراقه، مع الحرية ولقاء الأهل، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح زيد أهله بهذا . وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر، فكافأه محمد _ كان ذلك قبل النبوة _ أن حرره وتبناه .

ويكفينا ما ذكرناه فى هذا الفصل . فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد على أن الثقة التى تمتع بها رسول الله ﷺ بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلا .

٥- استطاعة القائد الاستفادة من كل إمكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم ووضعه فى محله

إن عبقرية القيادة لا تظهر بشئ ظهورها بمعرفة الرجال، ووضع كل فى محله. واستنفاذ عقول الأتباع بالشورى، واستخلاص الرأى الصحيح، وفى كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر.

إن الشورى فى فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأى الصالح، ويتحمل فيها كل فرد مسئولية القرار النهائى، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة. فيندفع نحو المراد بقوة، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة. ويبقى الإنسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسئولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملا.

والظاهرة التى نراها فى حياة الرسول ﷺ كقائد. حبه للشورى، وحرصه عليها، ومحاولته توسيع دائرتها، واستخلاصه الرأى الأخير فى النهاية.

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون، فلم يكتف، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير في الحرب حتى يمحو أى تردد عن أى نفس.

ولما عسكر المسلمون يوم بدر فى أدنى ماء جاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال: بل هوالرأى والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله.. فإن هذا ليس بمنزل، امض بالناس حى تأتى أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى. ونفذ ﷺ ما أشار به.

وقبيل يوم احد استشار الناس وأخذ برأى الأكثرية.

ويوم الأحزاب أخذ برأى سلمان الفارسى، ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها.

إنها القيادة التى لا تستكبر أن تنزل على رأى مسلم كائنا من كان، ما دام الرأى سليما صحيحا، والقيادة الصالحة هى التى تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأى إلا قاله، وخاصة فيما يكون فيه غرم، بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم فقال لهم: إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟

قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل.

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: انا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا الى رسول الله ﷺ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا.

إنها الشورى التى يأخذ فيها كل إنسان حقه ولقد علم المسلمون من نبيهم هذا فأحسنوا القيام به حتى أن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر فى قولها الشئ يستحسنه فيأخذ به.

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل فى محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التى يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله ﷺ أحد فيها.

إن أبا بكر وعمر كانا فى زمن رسول الله ﷺ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له وكان يسمر معهما فى قضايا المسلمين ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس وهذا الذى جعل المسلمين يختارونه بعد خليفة ثم كان عمر الخليفة الثانى والناس

يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس فهل يشك أحد أن تركيز الرسول ﷺ على هاتين الشخصيتين كان فى محله وأنهما من الكفاءة فى المحل الأعلى وأن رأى رسول الله ﷺ فيهما فى محله وهذان مثلان فقط وإلا فما اختار رسول الله ﷺ رجلا إلا ورأيت الحكمة فى هذا الاختيار.

يقول عمرو بن العاص فى قصة إسلامه وخالد بن الوليد:

فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا. وما أحد إلا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد.

عندما أتى وفد بنى تميم الى رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد.. جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

قال: لقد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطارد بن حاجب فقال. فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس الخزرجى أن يرد عليه فرد ثم قام شاعر بنى تميم فقال. فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يرد، فغلب خطيب رسول الله ﷺ خطيبهم وشاعر رسول الله ﷺ شاعرهم.

لكل مقام رجال.. وكان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة فى اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب.

ولعل فى قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه:

كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعادية للمسلمين يوم الأحزاب سواء فى ذلك يهود بنى قريظة أو قومه أو قريش.. وفى أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بنى قريظة فى الداخل والمشركين بعد الخندق وإذا أتى المسلمون من قبل قريظة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول فى معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فان الرسول ﷺ وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن إسلامه وأن يقوم بعملية تخلخل صف العدو.

يقول عليه السلام لنعيم:

إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة. ورجع

نعيم وكان أمره ما سنقصه عليك مما يشهد أن اختيار رسول الله ﷺ كان موفقا غاية التوفيق.

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة.. قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم.

قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به أن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه. فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان ومن معه: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وأنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى.. فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم؟ ثم نكون لك على من بقى منهم حتى نستأصلهم. فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان.. إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى. ولا أراكم تتهمونى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم.

قال: فاكتموا عنى.

قالوا: نفعل.

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش.

وحذرهم ما حذرهم..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام فقد هلك الخف والحافر. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمدا. فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تتشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا. ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا الى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا. فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم. وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم.

* * *

٦- قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة

إن الدعوات والتنظيمات السياسية التى تقوم على أساسها، كثيرا ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلا موفقا، مما يؤدى إلى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها، وكلما كانت القيادة أقدر على حل المشاكل كلما كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة.

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلا غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها، فتبيد المعارضين أو تسجنهم أو.. كما نرى كثيرا من هذا فى عصرنا الحاضر.

إلا أن الظاهرة التى لا مثيل لها فى تاريخ القيادات العالمية أنك تجد قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل بساطة عند رسول الله ﷺ هذا مع سلوك الطريق الألطف مع الأتباع. والذى عرف العرب عن كثب أى قيادة هذه قيادة رسول الله ﷺ التى استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب.

أنه لا توجد أمة فى العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية، إذ العوامل النفسية التى تثير المشاكل كثيرة جدا، فكلمة قد تثير حربا، وجرح كرامة قد يؤدى إلى ويلات ونظام للثارات، وشعور بالولاء، وعواطف متأججة، وعصبية عارمة وجرأة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط.. وكل واحدة من هذه تحتاج الى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير وكان رسول الله ﷺ القائد الفذ الذى استطاع أن يدبر أمر هذا الشعب القوى المراس ويحل كل مشاكله بكل بساطة وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل:

١- حله لمشكلة وضع الحجر الأسود:

قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها وهذه رواية ابن إسحاق للحادث:

قال ابن إسحاق:

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا. فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية:

أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريشا كلها، قال: يا معشر قريش.. اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا. هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلم إلى ثوبا، فأتى به، فأخذ الركن فرضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعا، ففعلوا. حتى إذ بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

٢- نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين:

فى مرجع رسول الله ﷺ يوم غزوة بنى المصطلق نزل المسلمون على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبى أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين وهو قديما رأس قومه فلنر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله ﷺ:

يقول ابن هشام: فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه، يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبى بن سلول - وعنده رهط من قومه - فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - فقال: أو فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا.. والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

(جلابيب قريش: لقب كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين).

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل. وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها: فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن

أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ولا تكلمت به، وكان فى قومه شريفا عظيما.

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله.. عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدبا على ابن أبى بن سلول ودفعا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد ابن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال:

يا نبى الله.. والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبى ابن سلول. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز؟ ثم قال: يا رسول الله.. أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبحوا وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبى.

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء..

ونزلت السورة التى ذكر فيها المنافقين فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ باذن زيد ابن أرقم ثم قال: هذا الذى أوفى لله باذنه. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه فقال: يا رسول الله.. إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى انظر إلى قاتل عبد الله بن أبى

يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فادخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

* * *

٣- حله لمشاكل الهجرة:

ولما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج الى حل سريع:

(أ) قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى.

(ب) إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس فى المدينة وليسوا كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون.

(جـ) حل المشكلة الاقتصادية اذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم، ومشكلة المهاجرين دائما مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية. إذ السوق الوحيدة فيها لهم ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة.

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالى:

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول ﷺ للمسلمين سوقا ليستغنوا عن سوق اليهود، وشرع بأمر الله سنة الاخاء فكل مهاجرى جعل له أخا أنصاريا، وجعل هذه الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها وحض الناس على الكرم والسخاء والايثار، وصادف ذلك نفوسا ما عرف التاريخ أشرف منها، ولا أرقى بعد الرسل، فكان من آثار ذلك الشئ العجيب.

روى البيهقى عن عبد الرحمن بن عوف قال:

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد . . أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ـ ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ـ ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، من استطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف . . والسلام عليكم وعلى رسول الله .

وروى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما اليك فسمها لى أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك . . أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب الا ومعه فضل من أقط وسمن .

ومن خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه إلى نفسه حتى أنه لم ينزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة .

بهذه الروح التى بثها رسول الله ﷺ فى أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل .

أما المشكلة الثانية وهى إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس إذ المجتمع المدنى كان مؤلفا من الأوس والخزرج وبينهما عداء قديم، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج . ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله ﷺ أن كتب أول وثيقة سياسية فى الاسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذى يتعايش به هؤلاء جميعا وقد رضوا جميعا به .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ - بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الربعة: الحال التى جاء الاسلام وهم عليها) بينهم: وهم يفدون عانيهم (العانى: الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى (المعاقل: الديات، الواحدة: معقلة) كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنوالحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بن المؤمنين. وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم، أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجيرعليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، الا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وأن المؤمنين بين بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وانه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط (أى قتله بلا جناية منه توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة، فانه قود به الا أن يرضى ولى المقتول. وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم الا

قيام عليه، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فان مرده إلى الله عز وجل، والى محمد ﷺ ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه (أى يهلك نفسه) وأهل بيته.

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف: وإن البر دون الاثم، وان موالى ثعلبة كأنفسهم.

وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وأنه لا ينحجز على ثار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الاثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل والى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فانهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق : وأن البر دون الاثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو اثم، وأن الله جار لمن ابر وأتقى، ومحمد رسول الله ﷺ .

* * *

٤- حلة لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وقرروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلى :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة حيى بن أخطب اليهودى فلما اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حيى بن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقنعه بإنهاء عهده مع رسول الله ﷺ والمشاركة فى الحرب ضده وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقا أبوابه وحصونه وملتزما الوفاء بعهده مع رسول الله ﷺ .

ولما طرق حيى بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضا أن يفتح له الباب : إنك امرؤ مشؤوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءا وصدقا. وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حيى :

ويحك يا كعب . . جئت بعز الدهر وبحر طام.

قال : وما ذاك ؟

قال : جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم الى جنب أحد وقد عاقدونى وعاهدونى عل ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه.

قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شئ. دعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا.

ولكنه لم يزل به وببنى قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت قريظة

الصحفية التى كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبى من يستكشف له الأمر كسعد بن معاذ حليف بنى قريظة فى الجاهلية فقالوا له: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعدا فقالوا له وهو سيد الأوس بكل وقاحة: أكلت أير أبيك..

وكانت خيانة داخلية فى أحرج المواقف، وغدرا لو أعطى ثمراته الخبيثة لاستؤصل الاسلام والمسلمون، إذ به لا تعود للخندق فائدة، ويتحطم خط دفاع المسلمين، وتكون الكارثة، إنها خيانة جزاؤها بشكل طبيعى الإعدام.

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين للتوجه الى بنى قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك. وهذا هو الحكم الحق والعدل والذى نصت عليه توراة اليهود نفسها.

وقبل أن يصدر الرسول ﷺ حكمه تواثبت الأوس وطلبوا من الرسول ﷺ العفو كما عفا عن بنى النضير، إذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس فى الجاهلية، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج، والأوس والخزرج كانتا تتنافسان فى كل شئ، وإذن فرسول الله ﷺ أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه فى قضية حساسة هى قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون فكان من أمر رسول الله ﷺ معهم ما هذه قصته كما يرويها ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم، وسيد الأوس هو الذى عانى ما عانى من بنى قريظة يوم غدروا، وسيد الأوس ما كان يحكم إلا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل فى أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس:

يقول ابن هشام:

فلما أصبحوا _ أى بنى قريظة _ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله.. إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت _ وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه. فسأله إياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له _ فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ.

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه فى خيمة رفيده حتى أعوده من قريب. فلما حكمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلا جسيما جميلا ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو.. أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد أتى _ آن _ لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التى سمع منه.

فلما انتهى سعد الى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: قوموا الى سيدكم، فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار.

وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ فقاموا اليه فقالوا: يا أبا عمرو.. إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم - قال: وعلى من هاهنا؟ - فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له _ فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء.

قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

ثم نفذ رسول الله ﷺ الحكم.

* * *

٥- حله لمشكلة هزيمة أحد:

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول ﷺ للمعركة كاملا وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلى:

١- ضعف الروح المعنوية عند المسلمين.

٢- طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين.

٣- سقوط هيبة المسلمين العسكرية.

٤- توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين.

٥- تنفس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين.

٦- وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة.

فكيف فعل رسول الله ﷺ لتلافى هذه النتائج كلها:

إنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم إعيائهم ثم خرج بهم تابعا آثار المشركين ولم يكد المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم إلا وأعلنوا الرحيل الذى يشبه الهرب مع انهم كانوا يفكرون أثناءها بالرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ولم تقع يومها حرب ولكن هذه العملية الجريئة غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع. إذ كانت معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد وبقى معسكرا فى حمراء الأسد طيلة ثلاث ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة.

* * *

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يحل المشاكل بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أى أثر، هذه الإمكانية العجيبة فى حل المشاكل. جعلت رجلا كبرنارد شو الأديب الانجليزى المشهور يقول: ما أحوج العالم الى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجانا من القهوة (أى ببساطة). وهذه الأمثلة التى ضربناها، نماذج. وإلا فمن قرأ كتب الحديث ككتاب البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وموطا مالك ومسند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة، رأى كثرة المشاكل اليومية الفردية والجماعية التى كانت تعترض رسول الله ﷺ وهو يسوس

شعبا من أعصى شعوب العالم انقيادا وطاعة وسياسة، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واستقامة مع منهج الحق الذى يدعو اليه، والذى يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد، وما كان ذلك ليكون لو لا توفيق الله ورعايته.

* * *

٦- بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة:

إن الدارس لتصرفات رسول الله يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه السلام، إلا وفيه غاية الحكمة، وبعد النظر، فمثلا يرسل كسرى الى عامله على اليمن «باذان» أن يهيج رسول الله، وأن يقبض على رسول الله ليرسله الى كسرى فيرسل «باذان» رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به إلى كسرى ويأمر «باذان» أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوما دون رد عليهم وقتل كسرى في اليوم الخامس عشر فأنبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل الى «باذان» رسالة مضمونها أنه إن أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع «باذان» ولاءه لكسرى وأسلم معلنا ولاءه لمحمد ﷺ.

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الاسلام، ليوجدوا عملا منسقا فيما بينهم ضد الاسلام، بأن يبنوا مسجدا يكون مركزا لتآمرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة. أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره السياسى، وإن كان العمل السياسى عنده عليه السلام غير منفصل عن غيره، فنجده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسيتهم، ويعامل كل إنسان بطريقة ترضى هذا الإنسان بالحق وهكذا، انظر إلى خطابه الى وفد بني الحارث بن كعب تجده يختلف عن أى خطاب آخر خاطب به وفدا من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص.

قال ابن هشام:

فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذى العصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادى وشداد بن عبد الله القنانى وعمر بن عبد الله الضبانى فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله.. هؤلاء رجال بنى الحارث ابن كعب، فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا اله الا الله. قال رسول الله: وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله، ثم قال رسول الله: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا. فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا. قالها أربع مرار، فقال رسول الله: لو أن خالدا لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم. قال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا. قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله. قال: صدقتم، ثم قال رسول الله: بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدا. قال: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم. قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم.

ولما كانت خطتنا فى هذا البحث الاختصار فسنكتفى بتحليل موقف من أبرز مواقفه السياسية عليه السلام، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل. هذا الموقف هو الموقف الذى تمخض عنه صلح الحديبية، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هى القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها:

قال ابن هشام:

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذى صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال: يا رسول الله.. هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (فى صفحة العنق).

ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟ وإن رجلا من بنى أسلم قال: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقا وعرا أجرل ـ كثير الحجارة ـ بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله ﷺ للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب اليه. فقالوا ذلك. فقال: والله إنها للحطة التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله ﷺ فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض فى طريق تخرجهم على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة.

فسلك الجيش ذلك الطريق. فلما رأت خيل قريش قترة الجيش – غبار الجيش – قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش. وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته. فقالت الناس: خلأت الناقة – بركت ولم تنهض – قال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا. قيل له: يا رسول الله.. ما بالوادى ماء ننزل عليه. فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى قليب من تلك القلب ـ القليب: بئر ـ فغرزه فى جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا

للبيت، ومعظما لحرمته، ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا الى قريش فقالوا: يا معشر قريش.. إنكم تعجلون على محمد، إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

وكانت خزاعة غيبة نصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: هذا رجل غادر، فلما انتهى الى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحوا مما قال لبديل وأصحابه، فرجع الى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة ـ أو ابن زيان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى.

فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك. فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش.. والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه.. كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا الى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال:

يا محمد.. أجمعت أوشاب الناس - الأوشاب: الأخلاط - ثم جئت بهم الى بيضتك - القبيلة والعشيرة - لتفضها بهم. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل. قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا. وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال: امصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟

قال : هذا ابن أبى قحافة .

قال : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها .

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد . فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول :

اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك .

فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك .

فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس . فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا .

فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه . فرجع الى قريش فقال : يا معشر قريش . . إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا . . فروا رأيكم .

وإن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى، فبعثه الى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له « الثعلب » ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه الى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله . . إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد ابن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان

حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم. فدعا رسول الله الناس الى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: ان رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ اليها يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل الى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر.. أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر.. الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. ألست برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال : أوليسوا مشركين؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

قال : أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى .

فكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا .

ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » فكتبها ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ : اكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه . وإن بيننا عيبة مكفوفة وإنه لا إسلال ولا إغلال . وإنه من أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، لا تدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، قد انفلت الى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ فى نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد.. لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل ينثره بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين.. أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل.. اصبر واحتسب، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنهم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني عمر قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن سهيل بن عمرو، وسعد ابن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص ــ وهو يومئذ مشرك ــ وعلى بن أبي طالب، وكان هو كاتب الصحيفة» ا.هـ.

هذه قصة الحديبية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية:

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك.

قال ابن هشام:

والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج الى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف، وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش أسلموا في هذه المرحلة.

ومن آثار هذه العملية:

أن تهدمت حجة قريش الأساسية فى جمعها العرب على رسول الله ﷺ إذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله ﷺ معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأى العام كثير من الحجب.

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول الله ﷺ من العرب الذين يسيرون فى فلك قريش لغيرهم، وأن تفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسيا وعسكريا واقتصاديا، ومن آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ﷺ يومها وهم حلفاء قريش المشركة.

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد ﷺ وهذا شئ ما كان ليكون من قبل، فدخل من شاء من هذه القبائل فى حلف رسول الله ﷺ.

ومن آثار هذه العملية وكثرة إقبال الناس على الإسلام بعدها، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصر أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالإسلام ، فضلا عن انقطاع أملهم بإنهاء الإسلام والمسلمين.

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله ﷺ لفتح آفاق أمته على العالم. وتفهيمهم مهمتهم العالمية، بإرسال رسله وكتبه الى الدول الكبرى يومذاك: كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشى.

ومن آثار هذه العملية أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم، وتتقوى ظهورهم بقريش، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية، وهمدت حدة قريش وعصبيتها، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها، وركنت إلى السلام، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر فى البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يوميا.

ومن آثار هذه العملية فتح مكة. إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله ﷺ من بنى خزاعة وعمد رسول الله ﷺ الى مكة فاتحا. لو لا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد ورمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها، ولكن صلح الحديبية والآثار التى ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قريش ولا عند غيرها لها، فكان أن فتحت مكة صلحا بل لقد فتحت مكة من يوم دخلها المسلمون فى العام التالى للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة. وتظاهرتهم التى أرهبت من رآها.

لقد كانت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد ﷺ. إذ ضربها وأصحابه غير راضين، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون. وإنك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث، وترى بعد ذلك هذه الآثار، تدرك أن الأفق الذى ينظر منه رسول الله ﷺ أفق فريد فى تاريخ الزعامات كلها.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التى فرضتها قريش فى المعاهدة والذى أثار المسلمين، وهو أن قريشا لا ترد من جاءها من المسلمين مرتدا وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلما بدون إذن، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها إلغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلى:

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا:

العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر فقال: أجل والله لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرنى أنظر اليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال ﷺ حين رآه:

لقد رأى هذا ذعرا. فلما انتهى الى النبى قال: قتل والله صاحبى وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله.. قد وفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله

منهم فقال ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وتفلت منهم أبو جندل ابن سهيل فلحق بأبى بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت عنده عصابة نوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا تعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله تعالى والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل اليهم » .

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون.

إذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضابا لهذا الصلح. حتى أن رسول الله ﷺ لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من إحرامهم لم يقم منهم رجل واحد، مما داخلهم من الغم من تكرار رسول الله ﷺ الأمر ثلاثا. ولم يفعلوا إلا بعد أن حلق عليه السلام ونحر هديه، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به، إذا عرفت هذا تدرك الأفق العالى الذى كان ينظر منه عليه السلام، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علما بكل شئ فكان مسددا راشدا مهديا.

* * *

٧ ، ٨ - الوصول الى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر وإحكام البناء بحيث يكون قادرا على الصمود فى المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بإمكانية السير عبر العصور:

لقد مضى على بدء الإسلام أربعة عشر قرنا ولا زال الإسلام بانتشار ولا زال يتوسع، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه. سواء أكانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين، بطرق منظمة وغير منظمة، فلا زال الإسلام هو الإسلام ولا زال قادرا على أكثر من الحركة، ورغم الملابسات التاريخية التى أوقعت العالم الإسلامى فى قبضة أعدائه، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء. فالإسلام باق، ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤا لأعداء الإسلام وسائل الانتصار داخل العالم الإسلامى، فالاسلام شامخ يتحدى ويقهر.

وخلال هذا التاريخ الطويل. دخل الإسلام فى صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها، ومع قوى عظيمة فصهرها.

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الإسلام، وقامت دول تحمل الإسلام واستوعب الإسلام الجميع.

وفى كل مرة كان الاسلام محمولا حق الحمل، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتى المسلمون إلا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالإسلام.

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا. ومن هنا مفرق الطريق، حيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم. وسنرى هذا واضحا فى المبحث الثالث، وحيث كان غير الإسلام دينا كان تأخر.

والإسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقا وغربا فكرا وسلوكا وهو فى كل حال أبداً غالب وإن اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشئ آخر.

وما أحد يجهل أن روح الجهاد فى قلب المسلمين هى التى حررت العالم الإسلامى من قبضة مستعمريه فى عصرنا هذا، وإن كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم، فأبدلوا بعد التحرير المسلمين بالاسلام مذاهب أخرى. هذا الاسلام الذى كان هكذا عبر العصور يحمله جيل الى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله.

هذا الإسلام استطاع أن يفعل هذا لان الأساس الذى بناه رسول الله ﷺ له خلال ثلاث وعشرين عاما، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور، ويسع كل العصور.

* * *

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة، لا تحمل فى جوهرها إمكانية تطبيقها، أو لا تستطيع قياداتها أن تحققها فى عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطان

وبيدها كل الوسائل. ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة، وأحيانا تتراجع من نصف الطريق، ولكن الظاهرة التى نراها فى حياة رسول الله ﷺ أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من أجزاء دعوته قائما يمشى على الأرض، على أكمل ما يكون التطبيق، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلا للتطبيق، خلال كل عصر وما مر عصر إلا ورأيت الإسلام مطبقا بشكل من الأشكال، فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج الى عشرات السنين ليست عملية عادية وإنما هى شئ خارق للعادة تحس وراءه يد الله. وتحس بالتالى أن الدين دين الله. وأن محمدا عبده ورسوله.

* * *

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن المسألة الثالثة «الاسلام» كلها برهان عملى على أن شريعة الاسلام وأحكامه تعلو فى كل عصر وعلى كل فكر.

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله ﷺ فى أمور الحرب كما وعدنا فى أول هذا البحث.

* * *

القسم الثانى: الرسول عليه السلام
الشخصية القيادية العسكرية المثلى

قبل الكلام عن شخصية الرسول الله ﷺ العسكرية، نحب أن نذكر بعضا من مواقفه العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث فى هذا الموضوع:

(أ) قال ابن هشام يروى قصة فتح حصون خيبر عن أنس ابن مالك:

«واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس.. فادبروا هرابا فقال رسول الله: الله أكبر خربت خيبر.. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

قال ابن إسحاق:

وكان رسول الله حين خرج من المدينة الى خيبر سلك على عصر – جبل بين المدينة ووادى الفرع – فبنى له فيها مسجدا ثم على الصهباء – موضع بينه وبين خيبر

روحة – ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع. فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله، فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه. حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا. ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.. يفتحها حصنا حصنا».

تأمل: عنصري المفاجأة والمداهمة، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر، أن يجمعوا قوتهم، وتأمل حيلولة رسول الله ﷺ بينهم وبين المدد، وتأمل الاحتياطات المتخذة لإبقاء غطفان في مواقعها.

* * *

(ب) بعد فتح مكة سمع رسول الله ﷺ أن قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال قد جمعوا جموعهم لحربه، فبعث إليهم عبد الله ابن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

يقول ابن هشام:

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعًا له وسلاحًا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: يا أبا أمية .. أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غدًا، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها لك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح».

وخرج رسول الله ﷺ بجيش عدته اثنا عشر ألفًا منهم ألفان من أهل مكة.

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد، وطبعًا المفروض أن تكون مهمته استطلاعية.

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام:

«لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف خطوط إنما تنحدر فيه انحداراً وفي عماية الصبح – أى ظلامه قبل أن يتبين – وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا».

وهنا تجد كيف أن خالدا رجل الحرب العظيم، قد فشل فى مهمته الاستطلاعية الضاربة، إذ أصبح فى الكمين هو ومقدمته. وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا فى حالة نفسية جيدة. ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله، ولم يبق حول رسول الله ﷺ أحد.

أخرج البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف والطلقاء فادبروا عنه حتى بقى وحده فنادى يومئذ ندائين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار.. فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك. وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبد اله ورسوله.

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال:

إنى أسمع رسول الله ﷺ آخذا بحكمة بغلته _ أى لجامها _ البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ورسول الله ﷺ حين رأى ما رأى من الناس:

أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شئ فقال: يا عباس.. اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة، فقال: فأجابوه: لبيك لبيك.. فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار ثم خلصت أخيرا يا للخزرج، وكانوا صبرا عند الحرب.

عن جابر بن عبد الله قال: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع، إذ هوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه على ابن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ .

تأمل هذه المقتطفات من غزوة حنين: إرساله العيون للاستطلاع. اختياره خالدا. استعارته الأدراع والسلاح. تلافيه الهزيمة. إدارته المعركة بنفسه. معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم فى ساعة المحنة.

وقبل الانتقال عن هذا المقام، نحب أن نذكر هنا موقفا يجمع بين أعلى ما فى العبقرية العسكرية والسياسية:

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول الله ﷺ أن يفتح الطائف، فذهب إليها وحاصرها، وكان أهلها عندهم خبرة فى فن الدفاع العسكرى، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول الله ﷺ أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال:

يا نوفل.. ما ترى فى المقام عليهم؟ فقال: يا رسول الله.. ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر النبى ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل.

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل موتورة منذ قريب لا زالت مستقلة فهى لاشك إذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة فى قلب الدولة الاسلامية. إذ تكون مجمعا لكل موتور حاقد.

فانظر كيف هيأ لها رسول الله ﷺ ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت:

كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله ﷺ يوم حنين مالك بن عوف. وقد فر بعد المعركة ولجأ الى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول الله ﷺ سألهم عن مالك ابن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل. فأتى مالك بذلك

فخرج من الطائف. وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له فاتى به إلى الطائف فخرج ليلا فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الابل وأسلم فحسن إسلامه.. فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل: ثمالة وسلمة وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفي: هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة. وأتانا مالك بهم للعهد والحرمة. وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة».

فانظر كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يشغل ثقيفا ويضايقها فيقضى على الأخطار والمشاكل المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة.

* * *

لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه السلام أخذت صورة على أن محمدا ﷺ فى القيادة العسكرية ، فهو فى كل شئ، يمثل دائما القمة التى لا يرقى إليها آخرون، وقد حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد ﷺ والقائد العسكرى الفرنسى النابغة فى فن الحرب نابليون بونابرت، فأرانا فى هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة فى أمر الحرب فطن لها نابليون وطبقها إلا وكان رسول الله ﷺ سباقا لها. هذا مع أن نابليون كان متفرغا مختصا بفن الحرب. ثم إنه صادف فى حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله ﷺ عسكريا، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده، هذا مع ملاحظة الامكانيات المحدودة لرسول الله ﷺ والامكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة فى هذا الموضوع نحب أن ننقلها – مع شئ من الحذف لبعض الجمل – لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهى:

أن الرسول ﷺ بدأ حياة دولته الغسكرية بجيش مقداره ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا. محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها. مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له، وفى الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم، وقد استهدفهم رسول الله

ﷺ بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله ﷺ طريقه دعوة وسياسة وحربا. فأخضع الجزيرة العربية كلها، ولم يتوقف إلا وقد هيأ المسلمين لحرب الفرس والروم بآن واحد. فأتم خلفاؤه ما بدأه عسكريا. فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقريبا. كل ذلك بحوالى ثلاث وعشرين عاما وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن أن ينسب إلا إليه فإنه من آثار تربيته وتأسيسه وتخطيطه.

وهذا شئ يتحدى التاريخ سابقا ولاحقا أن يكون قد حدث مثله ولو مرة فى تاريخ العالم. فنحن إذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعنى التساوى. حاشا، وإنما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجع بها رسول الله ﷺ على الاختصاصيين المتفرغين لها، وهو فى كماله بها ككماله فى كل شئ غيرها، يرجع الناس كلهم بكمالاتهم كلها.

* * *

يقول «العقاد»: ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب، على الرغم من الحصون والسدود. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم.

١- «فنابليون» كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع.. وإنما كان عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمه سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها جلة القواد.

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور:

أن يختار الموقع الملائم له،

وأن يختار الفرصة،

وأن يعالج العدو قبل تمام استعداده.

وكان النبى ﷺ سابقا إلى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها.. فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة.. فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى، فلم يحدث ما توقعوه.

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها.. ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى المهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه، كما حدث فى غزوة الخندق.

٢- وكان نابليون يقول: إن نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد.

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان. وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد فى بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم فى عدد الجنود...

ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة، فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة. فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون. وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان.

٣- وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية او التجارية التى يتناولها اقتداره، فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوروبية وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا إلى طريق فرنسا.

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها: «قطعا للطريق» وهى سنة المصادرة بعينها التى أقرها «القانون الدولى» وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية، رشيدا تارة وغاليا فى الحمق والشطط تارة أخرى.

٤- وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة.

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

٥- وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية، ولا سيما الخطط الحربية، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال.

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر، - وألمعنا اليه آنفا - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء. وقيل فى روايات كثيرة انه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة. فحفر الخندق وعمل النبى بيديه فى حفره.

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى إبان الهجمة عليها، لأنه عليه السلام كان

شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته. وفى وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم فى التزام موقفهم قائلا لهم:

احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه.. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل، والذى يفعل هذا فى شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة، ولكن المشاورة هنا هى المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبى وما تبع فيه نابليون، فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب.

٦- ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.

وكانت فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء. وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذى يحتاج اليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول فى استطلاعه أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه ودروبه ويعقد ما يسمى اليوم بمجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون أو دلائل استطلاع.

٧- واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام وكان يقول: إنه يخشى من أربعة أقلام، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام.

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم.

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الاوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمه ويستهوى الأسماع بسحر حديثه.

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين، لأن حروب الإسلام إنما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية. وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان. فليس فى حالة سلم مع النبى اذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الإسلامية. وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده وإنما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ماينتظر المقاتل من المقاتلين، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود.

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته. وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولو كان للرسول الاسلامى من غرض لجاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه فى دينه وإن لم يشهروا السيف فى وجهه. فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه.

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن ا لواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة.. فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء.

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور، ولاسيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه ــ من ثم ــ حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال العدو.

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض. الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات.

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعث ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة. ولاسيما إذا كانت الحركة من حركات البحار.

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة. وقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وفحواه أن «سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك وامضى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم».

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص.

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون، وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب إلى الآن.

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم

وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام.

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه إذ يفر من القتال، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها على غير اكتراث، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه.

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه.

وفى الحروب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كلة على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد.

قيل فى الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير، وقيل فى انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير.

فمن دواعى الاعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين وأنها شئ جديد فى شكله وإن لم يكن جديدا فى غايته ومرماه.

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية. فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى إنجاز عمله من أن يستأسر فى أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء طلبا للسلامة. ولا عقاب عليه الى نهاية القتال. ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه. وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات.

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غيير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم، وهى لهذا أحرى أن تحسب من وحى إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود، فلو لا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ، لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب.

وها هنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاكراه. فهذه «أولا» بعثة منفردة لا سبيل إلى الاكراه الفعال بين رجالها إذا أريد.

وهى «ثانيا» بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شئ.

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع، فقد كان عليه السلام عليما بمزاياه. معنيا به غاية العناية، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى، ويحول من ثم دون الانتصار عليه.

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حيث أصيب فى وسائل الاستطلاع، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم.

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع.

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام، ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع. أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه.

أما «هتلر» فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة.

فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم. واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرته كائنا من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى وهو عنصر الجرمان.

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه، ولعلنا نفهم – كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية – أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.

* * *

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية . ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف، وأن حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالنـ‍ـم والاشارة، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهو، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهى إلى نتيجة واحدة وهى استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شئ صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة.

لكننا إذا نظرنا الى فكرة القائد، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون بينهم الراجل والراكب، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة.

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام.

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول ﷺ من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال.

* * *

ويزيد هذه الشهادة عظما، أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال.

* * *

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب، وكان على فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه الى العدو».

ولولا ثباته فى وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين، لحقت الهزيمة على المسلمين. وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شئ. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره.

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود.

وإذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول» ا.هـ.

* * *

نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد، إلا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رسول

الله صلى الله عليه وسلم العسكرية. ولا نعتقد أنه أراد ذلك، وإنما لمس بعض هذه المزايا لمسا خفيفا، ولا نعتقد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولا وللايجاز الذى نقصده ثانيا فى هذه الكتابات، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله ﷺ من ميزات فى قضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هى تأمينه ﷺ لجيشه ولدولته دائما (الهيبة العسكرية) التى تجعل الآخرين دائما فى حالة رعب وقد عبر هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الحقيقة بقوله: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» وإن من جملة عوامل النصر المهمة دائما فى حرب المسلمين هذه الناحية التى وطد أركانها رسول الله ﷺ فى حياته، وحافظ عليها أصحابه بعده، وهى التى كانت تفعل فى قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل. ولو درسنا حياة الرسول ﷺ العسكرية لرأينا أن هدفا كبيرا دائما من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهيبة وزيادتها وتأكيدها وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون الى حالة فى النهاية كان الناس كلهم يهابونهم ولا يهابون أحدا. لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا جيشا ولا سلاحا ولا عددا ولا عدة فترى الجيش الصغير (٣٠٠٠) يهجم على الجيش الكبير (٢٠٠,٠٠٠) يوم مؤتة ولا يبالى بالنتائج، وإليك عرضا موجزا لأعمال الرسول ﷺ العسكرية خلال سنة من أول سنى المدينة لتعرف كيف أوجد هذه الهيبة العسكرية وأمنها.

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل فى رمضان من السنة الأولى للهجرة حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين من المسلمين فيلتقى بأبى جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاث مائة راكب فيحجز بين الفريقين مجدى ابن عمرو الجهنى فلا يقع قتال.

وفى شوال من نفس السنة يرسل عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا الى وادى رابغ فيلتقى بأبى سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى الفريقان بالنبل ولا يقع قتال.

وفى ذى القعدة يرسل سعد بن أبى وقاص فى نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ولكنها تفوته، وفى صفر يخرج الرسول ﷺ بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عبادة على المدينة فيسير حتى يبلغ ودان يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وعقد حلفا مع بنى ضمرة.

وفى ربيع الأول خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاتته.

وفى جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهرا صالح فيه بنى مدلج.

ثم أغار كرز بن جابر الفهرى على المدينة واستاق سرحها فخرج النبى ﷺ فى طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريبا من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله ﷺ.

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين.

وفى رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التى كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين، فانظر من رمضان الى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله؟ ومن حكم هذه السرايا:

١- أنها تدريب عملى وإعداد نفسى للمسلمين يجعلهم دائما فى حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة.

٢- إشعار الأعداء بالقوة التى تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم وإلقاء الرعب فى قلوب من يفكر بغدر وشر.

٣- الإشعار بالانتقال من مرحلة الصبر إلى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وإيقاف المشركين عند حدهم.

وكانت معركة بدر الضربة الساحقة التى حققت هذه الأغراض جميعا، وكان ما قبلها مقدمة لها، وخلال عشر سنوات قضاها الرسول فى المدينة، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات إلى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة، من غزوة ضد قريش إلى عملية ضد اليهود، إلى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية إلى مناوشة مع الدولة الرومانية، ولم يقبض عليه السلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكرى الذى انطلقوا منه على العالم. فلم يوقفهم شئ إلا ضعف جذوة الإسلام فى أنفسهم لأمد.

والأهم من الناحيـة العسكرية مما قـدمناه هو أن الرسـول ﷺ بلغ باتبـاعـه من الانضبـاط العسكرى مـبلغًـا مـابلغـة قـائد عسكرى آخر، ونحن نعلم أن الانضبـاط العسكرى هو كل شئ فى المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكريا إلا إذا كان الانضبـاط موجودا ولذلك فإن ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر فى انضباط جندها معها فى اللحظة الحاسمة، فإذا بلغ رسول الله ﷺ من هذا قمته وفى أمة العرب الشعب المارد المتمرد الذى لا يعرف انضبـاطا ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات.

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التى تمتع بها المسلمون فى آخر حياته عليه السلام ما حدث يوم غزوة تبوك. إذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه ﷺ فأمر رسول الله ﷺ الناس بمقاطعتهم - وهم ثلاثة - فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معك القصة فى مبحث الثمرات.

إن عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها فى كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيرة، التى نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلها، حتى ينقطع آخر أمل له فى المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده فى الاستسلام، والتى نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم، ممهدا بذلك هذه الأطراف لاستقبال الجيوش الإسلامية فى المستقبل.

واذا كانت نتائج العمل العسكرى ميزانا توزن به قيمة هذا العمل العسكرى، فانه لا يوجد فى ميزان العالم أجمع أثقل من العمل العسكرى الذى قام به رسول الله اذ ما من معركة حدثت للأمة الاسلامية بعد إلا وكانت قبسا من شمس رسول الله، وما من ظفر حققه المسلمون إلا ووراءه الروح التى بثها رسول الله فى موات القلوب، ولئن مرت ظروف انتصرت بها الأمة الإسلامية فى عصرنا. فاستغل انتصارها أعداؤها، فان تعاليم رسول الله ستجعل هذه الأمة فى وضع آخر مرة أخرى بإذن الله.

وبعد.. إن الرسالة الثالثة من هذا الكتاب وهى التى تشكل البحث الثالث فيه ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل. وهذا الذى جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التى تنبع عنها هذه التصرفات، وبصرف النظر

عن الحدود التى حدها رسول الله لكل شئ فى الحياة البشرية لتسهيل البحث، وإنما أردنا إبراز الكمال الذى يتمتع به رسول الله فى كل شئ فى هذا الفصل. بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشرى فى كل شئ فكان الانسان الوحيد الذى يصح أن يكون قدوة البشر العليا فى كل شئ. وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة سترى بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها إلا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به، وأن الحدود التى حدها رسول الله فى حياته السلوكية والعملية فى كل الجوانب هى أرفع وأعدل ما ترتقى إليه آمال البشر مع الواقعية التى لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة، وإن أى انحراف عن التأسى برسول الله واتباع تعاليمه إنما هو فى الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الألقاب والنعوت والتسميات. فالرسول عليه السلام قد أعطى البشر بوحى من الله الصيغة الوحيدة للحق فمهما ابتغت البشرية الهدى فى غير هذه الصيغة فإنها إلى ضلال تسير، لقد رأيت فى هذا الباب:

أن رسول الله صادق ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله أمين فى تنفيذ ما دعا إليه ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله قد بلغ دعوة الله حقا ودلك هذا على أنه رسول الله.

وأن رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فدلك هذا على أنه رسول الله حقا.

وأن رسول الله أعظم الناس فى باب التربية والتعليم ودلك هذا على أنه رسول الله حقا.

وأن رسول الله أكمل الخلق أبا وزوجا وأخلاقا وقيادة وكل ذلك دلك على أنه رسول الله حقا.

ورسول تدلك صفاته على رسالته إلى أين تفارقه متبعا أصنام الهوى وأباطيل الهوس ومجانين الضلال، إن هؤلاء لا يسيرون بك إلا إلى الهاوية.

ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى لم يزغ عن الرؤية إلا أعمى.

فإلى الباب الثانى لترى الدليل الكامل الآخر على أن محمدا رسول الله.

* * *

الباب الثاني

المعجزات

سنكتب في هذا الباب فقرتين وتعقيبا:

الفقرة الأولى:

حول المعجزة القرآنية نتحدث بها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

الفقرة الثانية:

معجزات أخرى لرسول الله غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها كل واحدة منها تشهد أن محمدا رسول الله.

التعقيب:

ونتحدث به عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التي يراها الناس خارقة للعادة، ونرجو ألا ينتهي هذا الباب إلا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمدا رسول الله وأنه ليس أمام الانسان الا طريق محمد وحده. يصح للانسان أن يسلكه ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ** ﴾ [النحل: ٩].

فإلى الفقرة الأولى من هذا الباب:

* * *

الفقرة الأولى
المعجزة القرآنية

يقول عليه الصلاة والسلام: «ما من نبى إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». ان النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحى الذى أنزل اليهم وبلغوه. أما الرسول محمد ﷺ فمعجزته كانت فى نفس الوحى. فالوحى نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل إذ هو ذاته المعجزة، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون الى أن الآية بين أيديهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وإذا كان القرآن باقيا بحفظ الله **﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾** [الحجر: ٩]

فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين.

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وهذا القرآن من أين أخذته دلك على ذاته، على شرط أن تأخذه بعلم، وتطلب الحق فيه بصدق، فالعالم بأى علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى فى القرآن الحق الذى يعلو أن يكون مصدره بشرا.

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

فالعالم باللغة الدارك لأسرارها البصير فيها يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر.

والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة ، ويرى أن ما فى القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جل عن طريق بشر.

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان، سواء قبل نزول القرآن أو بعده، يرى أن ما فيه من خير ليس مصدره البشر.

والعالم بالكون قوانين وواقعا يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفا، شئ ضخم فيه دليله.

والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها، وما يرتفع بها ويهبط، يستطيع إدراك ربانية القرآن.

والعالم بالتشريع الاجتماعى والجنائى والاقتصادى، وكل الجوانب الأخرى، يمكنه معرفة ذلك، والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك، يستطيع أن يرى الله فى قرآنه.

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها، والعوامل التى تبنيها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن فى مصدره الربانى.

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور، يدر كان كتابا يحكم فى أدق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات، ليس مصدره محمدا الذى لم يسمع كتابا ولم يسمع بقرآن.

إن العالم يرى، وطالب الحق يرى، أما المتكبر، أما الحاسد، أما طالب الدنيا، أما الظالم، أما أعمى القلب المظلم البصيرة، أما هؤلاء فلن يروا، لأنهم ليسوا أهلا للرؤية.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

[الأعراف: ١٤٦]

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأسراء: ٤٥- ٤٦].

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ان مثل هذا النوع من البشر الذى يجحد، وقلبه مستيقن يمنعه من الاقرار الكبر والبطر، ليس لك الى مناقشته سبيل، اذ الحجة وعدمها معه سواء.

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً ﴾ [النمل : ١٤].

اذ ليس سبب انكاره عدم الحجة، بل السبب فى ذاته هو، وأن الذين عانى منهم رسول الله ﷺ وكل رسول، اهم من هذه الطبقة العاتية، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى اذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتنقوه.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وإليك هذه القصة:

جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن شريق فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا آمنت فيه أبدا.

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدى المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣].

اكذبوا وهاتوا مثل سوره.. ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذى ادعى النبوة والوحى كمسيلمة، لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحى سماوى، ولكنه تكلم ليقال: وها أنا يوحى الى ولكنه لم يتحد بوحيه.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾

[البقرة: ٢٣-٢٤]

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم: لن تفعلوا، ولم يفعلوا أليس فى ذلك عجب؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة. فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا.

وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان.

وعجب لأنهم فعلوا كل شئ من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام.

وعجب أن وراث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم، أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد. وهم الأعلم باللغة والأبصر فيها ولبعضهم لسان أشد من السيف، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم.

أليس عجبا أن تجد الخنساء الشاعرة وهى التى قالت لحسان بن ثابت فى سوق عكاظ حين أنشدها:

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع، قال: وكيف؟ قالت: قلت: لنا الجفنات والجفنات ما دون العشر. ولو قلت: الجفان لكان أكثر. وقلت: الغر. والغرة البيضاء فى الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتساعا. وقلت: يلمعن، واللمع شئ يأتى بعد الشئ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لان الإشراق أدوم من ا للمعان، وقلت: بالضحى ولوقلت: بالعشية لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف فى الليل أكثر طروقا. وقلت: أسيافنا. والأسياف دون العشر. ولو قلت: سيوفنا كان أكثر. وقلت: يقطرن فدللت على قلة القتل. ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم. وقلت: دما. والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت. ولم تفتخر بمن ولدوك.

هذه نفسها الناقدة الشاعرة التى ملأت الدنيا نحيبا على أخيها صخر تفقد أولادها الأربعة فى الاسلام بمعركة واحدة فلم تذرف دمعة بل تحمد الله، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن أعماقها.

لقد شعر العرب الأقحاح يوم ذاك أن هذا القرآن الذى يسمعونه لم يخرج من بشر، كانوا يحسون هذا فى أعماقهم سواء فى ذلك مؤمنهم وكافرهم.

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر:

(أ) روى أن أبا بكر رضى الله عنه وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها، سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة، عن كلام مسيلمة، وما كان يدعيه قرآنا فحكوا له فقال أبو بكر: سبحان الله.. ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن ال – أى عن ربوبية – فأين كان يذهب بكم؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره. إن القرآن خارج من الله وليس من بشر.

(ب) وروى أن الوليد بن المغيرة المخزومى جاء الى النبى ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم.. ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتى محمدا لتعرض لما قاله. فقال الوليد: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا.

قال أبو جهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا. ووالله إن لقوله حلاوة وان عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعنى أفكر.. فلما فكر قال: «هذا سحر يؤثر» يأثره عن غيره.

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه - يعنى النبى ﷺ - رأيا لا يكذب بعضكم بعضا. فقالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه.

قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول؟

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول إنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس.

إن هذا الإحساس بربانية المصدر، والتحدى من المصدر نفسه، وظهور العجز قديما وأبدا ما ترك لكافر عذرا ولا حجة.

والناس إما صافى الفطرة يستجيب لأول بارقة نور، فيشتعل نور فطرته، وإما إنسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم، سواء بسبب الوراثة أو الفكر الخاطئ مثل هذا إنما نطالبه بالعلم قبل الحكم، وبالبحث بعد العلم، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أى أبواب العلم أتاها.

(أ) فهو لو درس حياة الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدالنبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جوابا قاطعا، أنه الوحى والنبوة وليس غيرهما، رجل أمى جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلالها أنه تكلم بشئ له علاقة بدين، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علما ولم يقرأ كتابا دينيا أو غير دينى. ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئا، فليست هناك مقدمة تشير الى نتيجة ومع ذلك وإذا بقرآن يتلى، ودين يقوم، ومفاهيم تغير بسر هذا القرآن الذى يتحدى فيسكت المتحدون، وهذا ما أشار القرآن إليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[الأنعام: ١٠٥]

إن دارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل، بل يرى أنه صادر عن علم محيط، وهناك سر المعجزة. ولذلك قال الكافرون: تعلم محمد ودرس. وإذ يثبت التاريخ أن محمدا لم يدرس ولم يتعلم، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر إلا الوحى ولابد هنا من التأكيد على ناحيتين:

الأولى: أن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة

إلا إذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذى يجعلهم يستبعدون معنى الوحى. فإذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علما من أحد فليس أمامهم الا نسبة هذا الكتاب إلى الوحى، وكونه لم يتلق علما من أحد، شئ مشهور، فإن مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل وحداد، والحداد أعجمى. كم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية فى زمن ما كانت الكتب الدينية فيه الا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة، ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شئ مبتوت من عدم وجوده. وكذلك ورقة وليس هناك أى نص تاريخى يشير الى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول ﷺ هو الوحى.

الثانية: أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبى اتبعوه لأنه صادق. ولو رأوا – وهم الذين يخالطونه ليل نهار – ذرة شبهة لانكروا وبينوا، وهم من هم، فإذا ما ذكر القرآن كما ورد فى الآيات أن النبى ﷺ لم يتلق علما من أحد وكان الذين حول الرسول ﷺ وهم أعرف الناس به صبيا وشابا وكهلا يعرفونه غير هذا لرأوا فى ذلك مدخلا يشكون فيه بالصدق،ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس، لما نفى مثل هذا النفى الذى يمكن افتضاحه بسهولة لو كان.

فإذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية. شهادة التاريخ، وشهادة واقع الحال. وانتفى إمكانية التعلم البشرى، لم يبق الا الوحى مصدرا لأعظم أثر فى تاريخ البشرية.

(ب) وكذلك لو درس الإنسان ظاهرة الوحى نفسها بإمعان وتبصره وأحاط بها إحاطة ما وحكم العلم والعقل. لوجد أن المسألة وحى وليست غير ذلك، وانها النبوة ليس إلا. ادرس مثلا هذه الآثار التى هى بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة.

عن عمر رضى الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فانزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. إلى عشر آيات منها من أولها وقال: من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم وأرضنا وارض عنا» رواه الترمذى.

وفى مسلم عن أبى هريرة قال:

كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه اليه، حتى ينقضى الوحى. وفى لفظ: كان إذا نزل عيه الوحى استقبلته الرعدة. وفى رواية: كرب لذلك، وتربد وجهه، وغمض عينيه، وربما غط كغطيط البكر.

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال:

كان إذا نزل على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها.

وفى رواية البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها:

فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب من العرق فى اليوم الشديد البرد. إن هذه الحالة التى ترافق ظهور النص القرآنى ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضية.

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآنى وقد يكون سورة طويلة، كسورة الأنعام، أو يكون نصا تشريعيا من أدق النصوص التشريعية فى تاريخ العالم كنصوص المواريث.

إن هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن خارجى عن ذات محمد ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

(جـ) وكذلك لو درس الانسان النص القرآنى بإمعان فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة، هى أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر، بل لابد أن يكون من عند الله والنص القرآنى بين أيدينا. فتعالى نستعرض بعض خصائصه وبعضا من معانيه فإننا سنجده أدل على ذاته، وأكثر إقناعا للراغب فى الحق الطالب له، ونؤثر أن نسلك فى هذا الاستعراض الطريق التالى:

إن الأعلم بالقرآن هو صاحب القرآن، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى من يصف مناحى دلالاته وإعجازه، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن، آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن وخصائصه. فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا خصائص القرآن بشكل أجود، وأكثر إحاطه، وأقرب إلى السهولة: مع ملاحظة أننا سنذكر إن شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب

الشـاك، ويرتاح قلب المؤمن بالعلم الذى لا يدحض ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله، أن السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة، وأنه لا صلة بين الآيات وإن كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة، فان السورة ككل فاقدة هذا التماسك، وكما يتصورون هذا التصور فى السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله، ولسوره كلها فلا رابطة بين السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة.

وهذا التصور أقل ما يقال فيه: إنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير، وعلى بساطة فى الفكر وضحالة فى النظر. فما كان القرآن ليكون كذلك، وقد رتب الله آياته في السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذى نراه. فإن السيد رسول الله ﷺ كان يؤمر بأن يضع الآية فى مكانها من السورة، والسورة فى مكانها من القرآن، فترتيب الآيات فى السورة الواحدة بوحى، وترتيب السور في القرآن بوحى، والله عز وجل حكيم على، وقد وصف كتابه بأنه على وحكيم: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيبا، وأكثر انسجاما من كتاب الله. وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة. نموذجا نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها، ونموذجا نتبين فيه الصلات بين سور القرآن عامة.

* * *

المثال الأول من النموذج الأول

سورة (ق)

افتح المصحف الآن على سورة (ق) وتأمل:

تبدأ السورة هكذا:

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

شَيْءٌ عَجِيبٌ * أئذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [١-٤].

تبدأ السورة بمقدمة هى الآية الأولى ثم يأتى حرف «بل» ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت. واستبعادهم لهذه المسألة، ثم يأتى الرد عليهم أنه وإن أصبحوا ترابا فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم، وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية. إذن بايجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة إشكالا للكافرين ورد عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ فى المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة «بل» كما بدأ المقطع الأول بكلمة «بل» وفيه حديث عن تصورات الكافرين ورد عليهم كالمقطع الأول يقول:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥].

هذا موقف الكافرين من الوحى الذى أنذرهم به الرسول، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتى الرد: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٦-١١].

هذا الجزء الأول من الرد، وفيه لفتهم القرآن الى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته، حتى أوصلهم إلى رؤية احياء البلد الميت بالمطر، والنبات يكون ميتا ينزل عليه المطر فيحيا و . . . «**كذلك الخروج**» بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا يأتى الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الإنسان وكذبوا رسول الله.

ولا زلنا حتى الآن فى المقطع الثانى:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ [ق: ١٢-١٥].

رأينا فى بداية هذا المقطع: «**بل كــذبوا بالحق لما جــاءهم**» ورأينا الرد الأول، وتتمة للرد يذكر القرآن مشيرا: كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم.. وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين. يجعلنا نتعجب ونستنكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة: «**أفعيينا بالخلق الأول**» اذا كان الله خالق الإنسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية؟

وبذلك ينتهى المقطع الثانى ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة «بل» كما بدأ المقطع الأول والثانى وفيه حديث عن نفس المضمون يقول:

﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [ق: ١٥]. الكافرون شاكون فى خلقهم مرة ثانية ويأتى الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة «ولقد» كما كان الجواب فى المقطع الأول مبدوءا بكلمة «قد» عند قوله: «**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**».

يقول:

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ١٦-٣٧].

وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الرد على شكهم، وهى مرحلة تذكر بخلق

الإنسان، وعلم الله بكل ما يجول بخاطره، ورقابة الملائكة على الإنسان، وتذكير الإنسان بالموت، وبالمصير الفظيع الذى أعده للكافر. وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقى، وإن هذا وعد من الله للمؤمن، وتختم هذه المرحلة بالإعلان أن الإنسان ذا القلب وأن الانسان الذى يصغى بتدبر، يكفيه هذا البيان ليتذكر، وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [٣٨-٤٥].

يذكر هذا القسم بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما فى مدة قصيرة بلا تعب وفى هذا الكلام رد مقنع على الشك، هذا الاله لا يعجز عن إعادة الإنسان مرة ثانية.

وهل شك الإنسان فى محله؟

ثم يأمر الرسول ﷺ بالصبر على اقوالهم ــ الآنفة الذكر ــ التى رأيناها فى المقطع الأول «**أئذا متنا وكنا ترابا، ذلك رجع بعيد**» وفى المقطع الثانى: «**بل كذبوا بالحق لما جاءهم**» وفى المقطع الثالث: «**بل هم فى لبس من خلق جديد**» والعبادة لله ويؤكد له أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم اقوالهم وأن مهمته أن يذكرهم. فخاتمة السورة إذن تخاطب النبى وتعلمه كيف ينبغى أن يكون موقفه.

وكما ترى من استعراض هذه السورة، فإن التناسق والترتيب والوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح فى السورة. فإذا ما أتى إنسان مغرض أو معرض، وقال: بأنه لا رابط بين الآيات فى السورة الواحدة، فإنه لاشك يدلل على فساد ذوقه، وعمى بصيرته وليس ذلك بضار القرآن شيئا.

* * *

المثال الثانى من النموذج الأول

سورة الواقعة

تبدأ السورة فى الحديث عن الساعة:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [١-٦] وبعد هذه المقدمة ننتقل الى تصنيف الناس فى ذلك اليوم:

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [٧-١٠] ثم تبين ما أعد لكل صنف من هذه الأصناف مبتدئة بالسابقين لأنهم الأفضل:

﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [١١-٢٦].

ثم تبين ما أعد لأهل اليمين:

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [٢٧-٤٠].

ثم تبين ما أعد لأهل الشمال:

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ *

أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [٤١-٥٦].

ويبقى بعد ذلك عندنا فى السورة مقطعان كل منهما ينتهى بكلمة: **«فسبح باسم ربك العظيم»**.

يبدأ المقطع الأول بهذه الآية: ﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ** ﴾ [٥٧] الخطاب كما ترى من الله للانسان يذكره فيه بانه خلقه ويطالبه فيه ان يصدق، وبديهى أنه يطالبه هنا بالتصديق فى اليوم الآخر الذى كان الحديث السابق كله عنه، ثم يبدأ المقطع يناقش الإنسان لإقناعه بالتصديق، ونجد ان المقطع مقسم الى أربعة اقسام كل قسم مبدوء كلمة **«أفرأيتم»** وكل قسم يلفت الإنسان للإيمان بالله والتصديق بانه الخالق للوصول بعد ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر.

الفقرة الأولى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [٥٨-٦٢].

الفقرة الثانية: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** ﴾

[٦٣-٦٧]

الفقرة الثالثة: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ** ﴾ [٦٨-٧٠].

الفقرة الرابعة: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾

[٧١-٧٤]

ينتهى المقطع وقد أثبت أن الله هو الخالق العظيم، وبإثبات هذه الحقيقة لا يسع الإنسان إلا أن يصدق بما أخبره الله عنه بانه كائن يوم القيامة.

ويبدأ المقطع الأخير في السورة:

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [٧٥-٨٢] فيتقرر فيه أولا أنه لا مجال للتكذيب بشئ أخبر به القرآن ، وإنه لعقوق بالإنسان ان يكذب . ثم يستمر المقطع مبينا أن الموت لابد منه، وأنكم عاجزون أيها البشر عن رده:

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[٨٣-٨٧]

وإذا تقرر هذا كله فإن الذى أخبرتم عنه فى أول السورة حق كله:

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [٨٨-٨٩].

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾

[٩٠-٩١]

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾

[٩٢-٩٤]

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [٩٥-٩٦].

وبذلك تنتهى السورة، مرتبطا أولها بآخرها، معروضة أدلة أولها وآخرها فى وسطها متناسقة كل ما كان من عند الله ولكن العمى لا يبصرون.

* * *

المثال الثالث من النموذج الأول

سورة الأنبياء

تتألف السورة من مقدمة هى آية واحدة، وسبعة مقاطع المقطع الأول مبدوء بكلمة «ما» والمقاطع الست الأخرى مبدوءة بكلمة «وما» فكأن حرف العطف الواو «ما» فى المقاطع الست عليها فى المقطع الأول. وسنرى باستعراضنا لمقاطع السورة

ومقدمتها، ارتباط المقاطع بعضها ببعض، وانسجام الكل مع المقدمة ، لتظهر أخيرا الوحدة المتناسقة فى السورة كلها .

تبدأ السورة بهذه الآية : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [١] فالآية تتحدث عن غفلة الناس وإعراضهم مع قرب الحساب .

ثم يبدأ المقطع الأول :

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢-٦] .

يتحدث المقطع عن موقف الناس من الوحى، وأنهم يستقبلونه بغفلة . وإعراض واتهام صاحبه بأنه بشر بلا ميزة، وأنه ساحر وأن الوحى محض تخيلات وأوهام، وأنه مختلق وأن الرسول إنسان عاطفى غير ذى عقل علمى، وأنهم يطلبون آية كدليل . وفى المقطع تذكير بعلم الله، وتذكير بأن ذلك طبيعة الإنسان فى كل عصر .

ويأتى المقطع الثانى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [٧-١٥] .

والمقطع كله رد على أقوالهم فى المقطع الأول وتوكيد للحقائق الموجودة فيه بالمقطع يقول :

صحيح أن الرسول بشر ولكن ميزته عليكم أنه يوحى إليه. يعرف هذا كل أمة بعث بها رسول، وهؤلاء الرسل فيهم كل صفات البشرية، ولكنهم مؤيدون من الله. منصورون على من خالفهم، وأن هذا القرآن وحى ككل وحى سابق، فينبغى أن يعقل المكلفون فيه هذه الحقيقة، وليعلموا أن قرى كثيرة لم تستجب لوحى الله فكان عاقبتها الهلاك والدمار.

ولاحظ نهاية المقطعين:

نهاية المقطع الأول:

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٦].

ونهاية المقطع الثانى:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ إلى ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [١٥].

ويأتى المقطع الثالث:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [١٦-٢٤].

لقد بين المقطع الأول والثانى حالة الكافرين فى الإعراض عن الوحى، وفى الغفلة واللهو والموقف غير الجدى. ولما كان هذا كله نابعا عن التصور الخاطئ لقضية خلق الكون وعن عدم معرفة الجلال الإلهى وحقوقه، وعن الشرك والتصورات المضحكة التى لا تقوم على دليل. فإن هذا المقطع الذى مر معنا تحدث عن هذه المعانى كلها ويلاحظ

أن المقطع قد ختم بهذه الجملة: «**بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**». وهى تبين ارتباط هذا المقطع بما قبله وبالمقدمة.

وإذ يقرر المقطع الثالث هذه المعانى كلها مما له علاقة بجلال الله، وفساد الشرك وكونه لا دليل عليه، ليصحح موقف الانسان فى الحياة، فان المقطع الرابع يأتى ليؤكد وحدانية الله، وأنها الدعوة التى حملها كل رسول، وأن أى دراسة للكون توصل الى هذه الحقيقة:

أن خالق هذا الكون واحد.

يقول المقطع الرابع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [٢٥-٣٣].

ويأتى بعد ذلك المقطع الخامس وهو أطول المقاطع فى السورة. ويلاحظ منذ بدايته، انسجامه مع السورة كلها فى خطابه ومعانيه. فهو مثلا مبدوء بكلمة: «وما» ككل المقاطع ويخاطب الرسول ﷺ كذلك كمثلها لاحظ: بداية المقطع الثانى الذى بدأ الرد على الأفكار التى طرحها الكافرون.

«**وما أرسلنا قبلك إلا رجالا**».

وبداية المقطع الرابع:

«**وما أرسلنا من قبلك من رسول ..**».

وبداية المقطع الخامس الذى فيه نظرنا الآن: «**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**».

ولطول المقطع نستعرض جملة معانيه حسب تسلسل آياته ثم بعد ذلك نذكر ارتباط هذا المقطع بما قبله.

تذكر الآيات الأولى فيه أن محمدا ﷺ ميت ككل بشر. واذا مات هو فلن يخلد أعداؤه، وما في الحياة كله ابتلاء، والمرجع الى الله، فمن ينبغي أن يخشى من الموت: ﷺ أم هم؟ تقول الآيات:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [٣٤-٣٥].

ثم يتحدث المقطع عن موقف الكافرين إذا رأوا رسول الله ﷺ وكلامهم وإيعاد الله لهم، وسؤالهم متى تحقيق هذا الوعيد والجواب:

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُون * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [٣٦-٤٠].

ثم يبين المقطع أنه إذا استهزئ برسول الله ﷺ فإن كل نبي سابق قد استهزئ به:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [٤١].

ثم يؤمر الرسول ﷺ أمرين كل منهما مبدوء بكلمة «قل».

الأول: **﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾** [٤٢-٤٤].

وواضح أن هذا رد على موقفهم، وتبيان لهم أنهم لو عرفوا الله حق المعرفة ما وقفوا هذا الموقف.

الثاني: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [٤٥]

وفى هذا كذلك رد عليهم أن محمدا ﷺ لا يقول من عند نفسه فاذا لم يسمعوا فهم السبب. فاستهزاؤهم فى غير محله بل هم الجديرون بالاستهزاء.

ثم يبين المقطع حالهم إذا عاقبهم الله فى الدنيا وماذا امامهم فى الآخرة:

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [٤٦-٤٧].

ثم يبدأ المقطع يقص علينا من قصص الأنبياء بحيث نأخذ من كل قصة نبى عبرة تنسجم مع موضوع السورة. وقبل أن نبدأ استعراض هذه القصص واحدة فواحدة، ونرى انسجام كل قصة مع السورة فإننا بشكل عام:

نلاحظ فيما مضى معنا من المقطع. أن الحديث منصب على نفس المعانى التى مرت فى المقاطع السابقة: موقف الكافرين من الوحى والرسول، وعاقبة هذا الموقف ومناقشته.

ونبدأ الآن فى استعراض القصص:

١ - ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [٤٨-٥٠].

وبينة علاقة القصة بالسورة، فالسورة من بدايتها تتحدث عن الذكر المنزل **«ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث»** والقصة هنا تشير الى أن ما أنزل على محمد ﷺ قد أنزل مثله على موسى وهارون، فلا مجال إذن لإنكاره، ويلاحظ أن القصة الأولى منسجمة تمام الانسجام مع معانى المقطع الأول فكأنها مثال عليه.

٢- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِه عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِه كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [٥١-٧٣].

٣- ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[٧٤-٧٥]

٤- ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٧٦-٧٧].

ويلاحظ أن القصص الثلاث هذه: قصة إبراهيم ولوط ونوح عليهم السلام لها علاقة في المقطع الثاني، إذ أنها تؤكد نفس معانيه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ

﴿يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٩]

لاحظ كلمة «**فأنجيناهم**» هنا وورودها فى القصص الثلاثة.

٥- ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [٧٨-٨٢].

٦- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [٨٣-٨٤].

٧- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٥-٨٦].

٨- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٧-٨٨].

٩- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [٨٩-٩٠]

١٠ -﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٩١-٩٢]

هذه عشر قصص وهى بمجموعها وهذه الآية الأخيرة التى أعقبتها تؤكد المقطع الرابع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء: ٢٥]

وكما ترى فإن المقطع الخامس يؤكد بمجموعه المعانى الموجودة فى المقاطع السابقة، ولعل خاتمة المقطع يتبين لك فيها هذا الارتباط. فقد تحدث عن اقتراب يوم القيامة وقد بدأت فيه السورة، وعن مصير الكافرين والمؤمنين فى ذلك اليوم، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وتأمل تتمة آيات المقطع:

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [٩٣-١٠٦].

وأخيرا يأتى المقطع السادس ليبين:

أن محمدا ﷺ رحمة للبشر وأنه مأمور أن يدعو الناس إلى التوحيد والاسلام، وأن عليه أن يبلغ، وأن يوم القيامة آت، وأن الله يعلم السر والجهر وتختم السورة بدعاء للنبى ﷺ.

وإذا تأملت المقطع الأخير تجد ارتباطه الوثيق بكل مقاطع السورة، وتذكر الآن معانى السورة ثم تدبر آخر مقطع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

[١٠٧-١١٢]

* * *

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السور الثلاث وضح لنا تناسق السورة القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها، وهذا الذى رأيناه هنا نستطيع أن نراه فى كل سورة قرآنية من الفاتحة إلى سورة الناس بما فى ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران.. ونتيجة لهذا القول نقول: إن الترتيب فى كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله فى بابه لا يستطيع أن يدركه إلا إنسان بلغ الذروة فى نضج التأمل. فهل يمكن أن يكون هذا وليد أمية؟

* * *

(ب)

والآن ننتقل لإثبات الأمر الآخر:

أن القرآن كله مترابط فيما بينه، يشكل وحدة منتظمة مترابطة.

أول سورة من سور القرآن هى الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معانى القرآن كله. فمعانى القرآن كله تدور حول العقائد، والعبادات، ومناهج الحياة، والسورة بدأت بالعقيدة: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وثنت بالعبادات: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وثلثت بمناهج الحياة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وبينت أخيرا أن منهاج المسلمين متميز: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١] ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة: ﴿ اهْدِنَا ﴾ ويأتى فى أول سورة البقرة ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١-٢] فالرابطة اذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة.

ننتقل الآن إلى سورة البقرة والسور التى تليها إلى سورة يونس وهى المسماة بالسبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور:

نظرة على سورة البقرة نلقيها ترينا:

١- أن السورة مبدوءة بأحرف «ألم» ويأتى بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس فى المصطلح القرآنى، متقين، وكافرين، ومنافقين، وتصف كلا من هؤلاء.

٢- تأتى بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة «يا أيها الناس» وفيها دعوة الى الناس جميعا أن يكونوا من الفئة الأولى «المتقين» وأن طريق التقوى هو عبادة الله، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله، وكون القرآن لاشك فيه، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه.

٣- تأتى بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن، وموقف المهتدين منه، وضلال الضالين به وصفاتهم ﴿ **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [٢٧] ومناقشة من يكفر بالله عز وجل.

٤- تأتى بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة «هو» تتحدث عن الله أنه خلق كل شئ فى الأرض للبشر.

٥- تأتى بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام، ونزوله الى الأرض، وتختتم بالقاعدة التى تحاسب عليها البشرية ﴿ **فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [٣٨-٣٩].

بعد ذلك يقص الله من قصص بنى إسرائيل وموقفهم من الهدى المنزل عليهم. ثم من قصة ابراهيم عليه السلام وعبوديته لله ودعواته ووصاياه، ثم قواعد حول قبلة المسلم بعد قصة ابراهيم، ثم أوامر لها علاقة بالعبادة والتقوى ثم فريضة الله على المسلمين فى أمر القتال الآية (٢١٦):

٦- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم تأتى آية مبدوءة بكلمة « يسألونك » الآية فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات فى أمور كثيرة. حتى تختم السورة. ومن السهل جدا على دارس السورة أن يجد وحدتها، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد إثبات الصلة بين هذه السورة والسور الست التى تليها.

ولعلك تدهش إذا قلنا لك إن السور الست الطوال التى تأتى بعدها إنما تشرح وتفصل هذه المقاطع التى ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل. وهى تشرح هذه المقاطع بالتسلسل الموجود فى سورة البقرة وكأن هذه المقاطع تحتاج الى زيادة إيضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقطعا وهاك الدليل:

١- سورة البقرة مبدوءة بأحرف « ألم » وسورة آل عمران مبدوءة بنفس الأحرف. سورة البقرة مبدوءة بآية «**ذلك الكتاب لا ريب فيه**». سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [٢-٣].

العشرون آية الأولى فى البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين. سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث، والحدود التى ينبغى أن تقف عليها الجماعة المسلمة فى علاقتها مع الفئتين الأخريين.

٢- بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتى الآية المبدوءة بـ «**يا أيها الناس**» والتى تبين للانسان طريق التقوى وأن التقوى هدف ﴿ **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [٢١].

وتأتى سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة بآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ نفس النداء نفس المعانى، وكأنك عندما تدرس النساء إنما تدرس التقوى طريقا وسلوكا.

٣- وبعد هذه الآيات تأتى الآيات التى مرت معنا، والتى تتحدث عن نقض العهد. وتأتى بعد سورة النساء سورة المائدة وهى مبدوءة بالأمر بالوفاء

بالعقود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ وفى السورة أكثر من آية تذكر العهود.

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧] وكأن السورة تذكر المعانى الأساسية للعهود الأساسية التى من تمسك بها اهتدى بهدى القرآن والا ضل.

٤- وبعد آيات البقرة هذه تأتى الآية ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [٢٩] وتأتى بعد سورة المائدة سورة الأنعام التى تتردد فيها كلمة «هو» «وهو» مرات كثيرة. الآية الثانية ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ والآية [١٨] ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ والآية [٦٠] ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم ﴾ و ....

وهكذا مرات، وآخر آية فى السورة تكاد تكون معنى حرفيا لآية البقرة ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فكأن سورة الأنعام كلها تفصيل لمجمل الآية فى البقرة.

٥- وتأتى بعد ذلك فى البقرة قصة آدم، وتنتهى بالقاعدة التى ذكرناها «**فمن تبع هداى** ..» وتأتى بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثالثة فيها ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ والآية الأولى فيها تقول: ﴿ المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا .. ﴾ وتأتى بعد ذلك قصة آدم وقصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكأن السورة كلها عرض عملى وتاريخى ومناقشة فى جو القاعدة التى انتهت بها قصة آدم فى سورة البقرة.

٦- وكما أنه بعد آية القتال فى سورة البقرة تأتى كلمة: «**يسألونك**» وفيها استفتاء عما له علاقة فى القتال، فإن سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوءة بكلمة «**يسألونك**».

والسورة كلها والسورة التى بعدها وهى سورة «التوبة» تتحدثان عن القتال

وأدب الحرب، ويلاحظ أن السورتين فى القرآن مكتوبتان بلا فاصل «البسملة» فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التى ذكرها الله فى سورة البقرة.

ونظن أن قد وضحت الرابطة التى تربط هذه السور فيما بينها.

ولكنك سترى أعجب إن شاء الله تعالى:

١- سورة آل عمران شرحت العشرين آية كلها فى البقرة أما سورة يونس فتفصل الآية الأولى من سورة البقرة ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لاحظ الآن سورة يونس: تبدأ السورة بهذه الآية:

﴿ الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾.

ثم تقول: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ إذن تبدأ السورة بتحطيم الشبه الموجودة فى أذهان الناس حول القرآن، ويستمر هذا المعنى حتى ينتهى عند الآية (٣٧) بهذا الشكل:

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم يأتى حرف «أم» فكأنه استمرار للمقطع المبدوء بحرف الاستفهام الهمزة «أكان»...

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣٨].

إذن لازالت السورة تدحض شبه المرتابين والمكذبين، ويستمر هذا المقطع حتى الآية (٥٧) المبدوءة بـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وكأن السورة حتى هذه الآية تفصل الجزء الأول من الآية الأولى من سورة البقرة ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وتأتى الآية (٥٧) لتبدأ السورة فى تفصيل الجزء الثانى من الآية ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ تقول آية يونس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وتختم السورة بهذه الآية [١٠٤-١٠٩]: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ

اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ وبهذا تنتهي السورة.

٢- وسورة النساء شرحت التقوى في الآية (٢١) من سورة البقرة، أما سورة هود فإنها تفصل الأمر « اعبدوا » من نفس الآية.

واقرأ الآن سورة هود تجد: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ولعلك لاحظت كلمة ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ثم استمر في التلاوة لتجد في الآية الخامسة والعشرين:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية الخمسين تجد ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية (٦١) تجد ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية (٨٤) تجد ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وإلى آخر آية في السورة ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولعلك لاحظت فيها الأمر **«فاعبده»**.

٣- وسورة يوسف تبين مقنعة للانسان أن هذا القرآن من عند الله فهي تفصل - والله أعلم - الآية التي بعد ما مر في البقرة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ فان سورة يوسف تبدأ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [١-٣] وتختم السورة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١١١].

٤- وبعد الآية [٢٥] فى البقرة تأتى الآيتان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ من رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [٢٦-٢٧]

وادرس الآن سورة الرعد لتجدها تفصيلا لهذه المعانى :

فمما يلفت النظر فى سورة الرعد، أن الآية الثانية فيها ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴾ وأن الآية الثامنة ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾.

والآية [٢٦] ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ..

فكأن كل مقطع فى السورة مبدوء بكلمة «**الله**» فالمقاطع كلها تفصل اذن آية البقرة الآنفة الذكر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي ﴾ فإذن سورة الرعد، تعرفنا على الله أكثر ويلاحظ أنه فى المقطع الثانى من سورة الرعد، ترد هذه الآيات فى خاتمته، وهى كما ترى تأكيد لمعنى الآيتين المذكورتين فى البقرة :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

[الرعد : ١٩-٢٥]

ولا يشك الانسان وهو يقرأ آيتى البقرة [٢٧-٢٨] ويقرأ سورة الرعد أن سورة الرعد تفصيل لتلك الآيتين.

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا مثالين يثبتان وجود الترابط بين سور القرآن ككل أن نضع أسس نظرية فى هذه القضية فنقول:

إن كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلا متكاملا، وهذه المجموعات كلها إنما تفصل المعانى التى ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل، وقد رأينا مثالين على ذلك، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرضت الأسس النظرية والعملية للإسلام، بحيث أن من يقرأ أى مجموعة من هذه المجموعات، يتذكر بكل الحقائق الأولية فى الإسلام. كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجاميع قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى، مما يبهر الإنسان ولا يستطيعه مخلوق: أن تعرض قضية واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض. المعانى فى البقرة مرتبة ترتيبًا معينا كل مجموعة سور تشكل وحدة. تعرض المعانى القرآنية على ترتيب عرضها فى سورة البقرة، هذه المجموعة تتدرج من الطول الى القصر، كل وحدة تذكر الإنسان بالمعانى الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها. ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض فى سورة البقرة مع فارق القصر، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر؟!

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات وتفهيم معناها ومما وصف الله به كتابه:

١- ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

٢- ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣- ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

فبسبب مما رأيناه كان القرآن مفصلا، وكان متشابها، وكان مثانى، وكان مذكرا، لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغى أن يتذكره الانسان. وبمثل هذا وبمثل ما يأتى بعد هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبدا عرفه البشر.

(٢)

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره، ما أشار اليه القرآن بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦] ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد أخبر الله فى الآية الأخيرة أنه سيكتشف للناس خفايا هذا الوجود، ودقائق هذا الإنسان وأن هذا الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق، إذ ما سيعرفه الانسان سيطابق ما فى القرآن وهذا لا يكون إلا إذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السموات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة فى حد ذاتها، تحققت بما كشف الإنسان حتى الآن فان ما سنذكره من أمثلة سيكون برهانا كاملا على نسبة القرآن لله جل جلاله:

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية، مما لم يكن معروفا قطعا قبل أربعة عشر قرنا فى أى مكان من العالم، فضلا عن أن يكون معروفا فى جزيرة العرب حيث الأمة الأمية، التى كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية، فكان حديث المحيط بسر كل شئ. وكلما تقادم الزمان أكثر كلما ظهرت دقة القرآن أكثر. فيصبح الانسان أمام الحقيقة التى لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد، الله رب العالمين، وهذه أمثلة وفى القرآن المزيد لمستزيد:

١- قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

يقول العلم اليوم أن الحليب قبل أن يصبح فى الثدى، يمر على عمليتى تصفية. الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبى إلى الأمعاء، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها فى الدم ومبقية الفضلات فى الأمعاء حيث تطرح خارج الجسم. وأما المواد الممتصة التى طرحت فى الدم فان

قسمها منها يغذى جسم الكائن الحى وقسما آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله الى الضرع حليبا خالصا سائغا للشاربين.

إذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولا من الفضلات ثم من الدم.

وقال القرآن: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ[1] وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ﴾..

وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة، وما يملك انسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة، يكفى وحده لإثبات الوحى من الله بهذا القرآن.

٢- قال الله تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

«منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات، استطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء فى طبقات الجو العليا، إذ يشعر الصاعد فى هذا العلو ببعض الصعوبة فى التنفس ويحس بالضيق، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع فى السماء يشعر بعوارض الضيق، ولذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون إلى الارتفاعات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا. ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود فى الجبال بل عبرت عن الصعود فى السماء. كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق».

٣- قال تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

---

(١) الفرث: هو الفضلات.

وقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

القاعدة فى اللغة العربية أن « كل » إذا أضيفت إلى معرفة عمت أجزاؤها وإذا أضيفت إلى نكرة عمت أفرادها وفى الآية الأولى أضيفت « كل » إلى نكرة لذلك تعم جميع الأشياء.

يقول صاحب ظلال القرآن: « وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض وربما فى هذا الكون، إذ أن التعبير لا يخصص الأرض قاعدة الزوجية فى الخلق وهى ظاهرة الأحياء ولكن كلمة شئ تشمل غير الأحياء أيضا، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية، وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية فى كل شئ. حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير.

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول وهى لا تكاد..

إن بناء الكون كله يرجع الى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب.

٤- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾

[الحج: ٥]

وقال: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

﴿ فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ١-٢]

يتم الاخصاب بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة فى أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الانسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصرا فى تلك الخلية الواحدة، ثم تنحدر فى اتجاه الرحم مستغرقة فى رحلتها ما يقارب الأسبوع، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتنهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم وليس أدق من كلمة العلقة فى وصف شكل ونشاط الجنين فى هذه المرحلة ثم تأخذ هذه العلقة فى النمو، وتأخذ خلاياها فى التنوع، ويكون شكلها مستديرا بغير انتظام، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها فى (برك) صغيرة لا فى شرايين محددة، إن شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم الممضوغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات.

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادى هو الغضروف الذى تترسب حوله مادة العظم فيما بعد، وتنشط الخلايا فى كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التى تكسو العظام المتكونة لحما.

وهنا يقف الإنسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحى. وذلك أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم الا بعد ظهور خلايا العظم، وتمام الهيكل العظمى الغضروفى للجنين. وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى: ﴿ فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ﴾ فسبحان العليم الخبير.

فى كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما إن يوشك الشهر الثانى للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر.

إن الجنين الإنسانى مزود بخصائص معينة هى التى تسلك به طريقه الانسانى فيما بعد، وهو ينشأ ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ فى آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيوانى عند التطور الحيوانى لأنه غير مزود بتلك الخصائص. ومن ثم فانه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور الى مرتبة الانسان تطورا آليا كما تقول النظريات المادية، فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الالهية التى بها صارت سلالة من الطين إنسانا. واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتى ينشأ بها الجنين الانسانى خلقا آخر. إن الانسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى، ثم يبقى الحيوان حيوانا فى مكانه لا يتعداه، ويتحول الانسان خلقا آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان إلى نوع الانسان ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾.

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه «معجزات العلم»[(١)] حين يصنع الانسان جهازا يتبع طريقا خاصا فى تحريكه دون تدخل مباشر من الانسان. فأين هذا من سير الجنين فى مراحله تلك وأطواره وتحولاته، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة فى طبيعتها وتحولات كاملة فى ماهيتها؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضى العيون مغلقى القلوب. لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب، وأن مجرد التفكير فى أن الإنسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته فى تلك النقطة الصغيرة التى لا تراها العين المجردة، وأن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك فى مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر. فإذا هى ناطقة بارزة فى الطفل مرة أخرى. وإذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوارثات البشرية العامة. هذه الوارثات وتلك التى كانت كامنة فى تلك النقطة.

إن مجرد التفكير فى هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب.

كل هذا يتم فى القرار المكين الذى هو الرحم وإن من يدرس تشريح الرحم

---

(١) لا يجوز إطلاق المعجزة إلا على الأمر الخارق الذي يجري على يد الرسل بقدر الله.

ومـوضـعـه المكين الأمين فى أسـفـل بطن المرأة ويرى ذلك الوعـاء ذا الجـدار العـريض السـمـيك، ثم يرى هذه الأربطة العـريضـة، والأربطة المسـتـديرة، وهذه الأجـزاء من البريتون التى تشده الى المثانة والمستقيم، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السـقـوط. تطول مـعـه إذا ارتفع عند تقـدم الحـمل، وتقـصـر الى طولهـا الطبـيـعى تدريجـيـا بعـد الولادة. إن من يدرس كل ذلك ثم يعـرف تكوين الحـوض وعظامه يعرف جيدا صدق قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾.

٥- ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣].

إن العوامل المسببة للامطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير اليها إشارات واضحة كما سنرى فى هاتين الآيتين كما ضمت الآيتان معانى أخرى.

لقـد كـان الناس قـبل يحـملون وصف الرياح «باللواقح» على أنهـا لواقح للزرع والشجر وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية. إذ لو كان ما ذهبوا اليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون «للواقح» معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك ــ من ناحية ــ شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول، أو السبب والمسبب، وما عليك الآن إلا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الإعجاز فى الآية:

ان تكاثف السحاب مطرا أثر عن الكهربائية، إذ من السحاب ما كهربائيته سالبة، ومنه ما كهربائيته موجبة، والرياح هى أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر. وهذا هو المراد كما هو ظاهر فى الآية من وصف الرياح بأنها لواقح.

فالملاحقة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائى والتلقيح النباتى فكما تتحد الخليتان فى حالة التلقيح النباتى لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك فى حالة اتحاد سحاب وسحاب إذ ينشأ عنهما برق ورعد ومطر، إذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائى السحابى.

فآية الحجر تلك هى مظهر من مظاهر الاعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث.

ثم زادت آية النور معنى الإعجاز ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ فى الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد.

فإذا كان من السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيما، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض – كما هو الغالب – نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والإنسان لا يعرف كثيرا عن الظروف التى يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت إليه الآية والى طبيعته إشارتين:

الأولى: حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله بالجبال. ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وأنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعدما ركبوا الطائرات.

والثانية: حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها

على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك ﴿ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ** ﴾.

٦- ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً** ﴾ [الفرقان : ٤٥-٤٦].

نحن نعلم أن الجو هو تراكب طبقات متتابعة، تقل فيما بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض، وفى وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئى منحنيا طبقا للقانون الثانى للعالمين « الهيثم - ديكارت » وهو قانون الانكسار . . إن قانون « الهيثم - ديكارت » يقول بأن الشعاع الضوئى الذى ينتشر فى مجال ذى كثافة متغيرة باستمرار يخط فى مسيره خطا منحنيا ذا تجويف متجه نحو النقط الأكثر كثافة وفى هذا المجال يقبض الظل ﴿ **قَبْضاً يَسِيراً** ﴾ بالنسبة لما قد يكون عليه فى الفراغ الذى لا يوجد فيه انكسار . ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الانسان مما لم يكن معروفا زمن تنزل القرآن وبين القرآن .

٧- ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [الذاريات : ٤٧] وهكذا يبدو الكون من خلال الآية - بسبب استعمال اسم الفاعل « موسع » الذى يفيد الاستمرار فى هذه الحالة - وكأنه فى حالة توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهى التى هالت « آينشتين » عندما اكتشف عالم الطبيعة « هابل » أن الكواكب السديمية تبتعد عن « سديمنا » واستنبط عالم الرياضة البلجيكى « لومتر » من ذلك نظرية امتداد الكون، أو ليس عجيبا مذهلا أن يضع الوحى دائما معالمه المضيئة أمام الفكر العلمى حتى كأنها تصف له الطريق؟ وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمى؟

٨- ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل : ٨٨].

﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** ﴾ [الأعراف : ٥٤].

إن فى هاتين الآيتين إشارتين واضحتين الى موضوع دوران الأرض فالآية الأولى تلفت النظر الى أن الانسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة، ولكنها فى واقع الأمر تسير

تبعا لسير الكرة الأرضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين إلى أن الآية فى حديث الآخرة ولكن نهايتها: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تدل على أنها فى عالمنا هذا.

والآية الثانية تشير إلى نفس المعنى وإن كانت الاشارة أبعد وذلك:

لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان إذن يكون قسم من الأرض نهاراً دائما وآخر ليلا دائما، فإذا ما فرضنا أن الشمس هى التى تدور حول الأرض فان فى هذه الحالة المنبع الضوئى هو المتحرك وإذن فالنهار هو السائر والليل تابع.

وعلى عكس ذلك فى حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئى ثابت نسبيا(1) - أى بالنسبة للأرض - وإن كان هو فى حد ذاته متحركا وفى حالة ثبات المنبع الضوئى يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذى ذكرته الآية إذ قالت: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ فالليل هو الذى يطلب النهار ولا يكون هذا إلا إذا كانت الأرض هى التى تدور حول نفسها، ولزيادة التوضيح نقول: إذ عمل الفعل - فى اللغة العربية - بمفعوليه فالأول منهما يكون فاعلا فى المعنى والثانى مفعولا، ولا يصح تقديم ما هو مفعول فى المعنى على ما هو فاعل بالمعنى فى حالة وجود اللبس وآية: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ عمل فعل بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلا ومفعولا. فلابد إذن أن الفاعل فى المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ دل على أن الليل هو الفاعل فى النهار فى المعنى وهو الفاعل فى قوله عز وجل: ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ يقول ابن مالك:

الأصل سبق فاعل معنى كمن	من ألبسن من زاركم نسج اليمن
ويلزم الأصل لموجب عرى	وترك ذاك الأصل حتما قد يرى

٩- والآيات القرآنية فى هذه الناحية كثيرة لمن أراد أن يتبع وكلها تشير الى شئ واحد: إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فانك إذ تجد فى كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا فى زمن متأخر تصبح أمام شئ خارق جدا جدا.

(١) يقول علماء الكون اليوم: إن للشمس ثلاث حركات. حركة عمودية باتجاه كوكب الجاثى مع الكواكب السيارة، وحركة حول نفسها، وحركة مع مجرتها.

فعندما يقول: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ: ٧] تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تقول بان للجبال جذورا وتدية فى الأرض يعدل امتدادها ضعفى ارتفاع الجبل عن الأرض.

وعندما يقول:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١-٢] تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تعب العلم حتى وصل اليها وهى أن الاضطراب سابق البركان وأن باطن الأرض أثقل من قشرتها وان كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية.

وعندما يقول فى قراءة صحيحة:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ [الفرقان: ٦١] عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة علمية غير متوقعة فالسراج فى اصطلاح القرآن الشمس وفى الماضى لم يكن تعرف إلا شمس واحدة واذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس.

وعندما يقول:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس: ٣٨] تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التى تبين أخيراً أنها تشارك مجرتها فى دورتها وتدور حول نفسها وهى مع هذا تسير فى اتجاه عمودى نحو كوكبة الجاثى ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها فى يوم من الأيام.

وعندما يقول:

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥] تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض إذ التكوير إنما يكون للشئ الدائرى كما تجد نفس المعنى فى قوله: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٠] فالادحية والأدحوة: بيض النعام.

وعندما يقول:

﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] تجد نفسك أمام

الحقيقة العلمية التى تقول أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض فى حالة تشقق دائم وبالتالى فى حالة ميدان واضطراب شديدين.

وعندما يقول:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

[الأنبياء: ٣٠]

تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن فى كلا تفسيرى الآية سواء فسرنا «رتقا» بأنهما كانتا شيئا واحدا وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فسرنا ﴿ رَتْقاً ﴾ بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التى تقول إن الأرض فى الأصل كانت كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شئ حى أو ماء، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير.

وهذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن القرآن أنزله خالق السموات والأرض العليم بهما ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

(٣)

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره ما أشار اليه القرآن بقوله:

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤١].

لقد تكلم القرآن عن الماضى وتكلم عن المستقبل وفى كلامه عن الماضى أو المستقبل تنزيه عن الخطأ وجل عن الباطل، وهو فى كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله.

وقد حاول ناس أن يطعنوا ببعض أخباره عن الماضى متصورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولا عند غير المؤمنين، وهم يدعون فى ذلك: النقد العلمى، والنزاهة التاريخية، ولكن العلم أثبت بالكشوف المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن.

« فمن أقطاب هؤلاء المحرفين من أنكر عادا وثمودا، وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف. فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا Oadita وثمود Thamudida مذكورتان فى تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان فهم يكتبونها « ادراميت » ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد ارم ذات العماد وعثر المنقب « موزيل التشيكى » صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة الى قبائل ثمود.

ومن أقطاب هؤلاء المحرفين من أنكر أبرهة، ونكبة جيشه، واهتمامه بتعطيل الكعبة، وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها، ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » .

ويروى الرحالة « بروس » الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيل » .

إنه ما من شئ تحدث عنه القرآن فى الماضى إلا وكانت وقائع التاريخ القديم ونصوصه وحفرياته تؤيده من أدق التفصيلات ــ حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم فى صلب المسيح، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديما لا تؤمن بصلب المسيح ــ الى أكبر الوقائع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذى تذكره مصادر التاريخ القديم كلها، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية، أو البابلية، ويأتى التنقيب الحديث ليرى طميه ويحدد مكانه.

وعندما نعلم أن قسما من أخبار القرآن كان معروفا عند العرب، وقسما كان مجهولا لا يعرف شئ عنه، كقصة الطوفان. إذ يقول القرآن عنها: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا** ﴾ [هود: ٤٩] ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحى كما هو ثابت تاريخيا يأخذ عنه محمد ﷺ . يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره غير الله عز وجل.

﴿ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وأما حديثه عن المستقبل، وتصديق المستقبل حديثه . فذلك أدل فى بابه على أنه من عند الله . فما من كلمة قالها القرآن قديما نقضتها الوقائع على مر الأيام، حتى هذا الزمان والى آخر الزمان . سواء فى ذلك ما فى القرآن من تشريع أو أخبار أو بيان، ولتشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه .

وقد رأينا مثلا فى الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقا _ ولا يمكن ألا يكون _ لكل ما اكتشفه الإنسان من حقائق . ونريد هنا أن نتحدث عن شئ مما أخبر به عن المستقبل ووقع، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن فى هذه الخاصية دليلا لا يدحض على أن القرآن من عند الله :

إن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضى، أما المستقبل فهو غيب مستور مجهول، والانسان يستطيع أن يوازن ويقايس ليصل الى احتمال فى أمر هذا المستقبل، قد يقع وقد لا يقع وهو أبدا لا يستطيع أن يجزم، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتى حديثا جازما، ثم يقع هذا المخبر عنه تماما وقوعا مطابقا مرات دون أن يخرم ذلك مرة، إننا فى هذا الحالة لابد واجدون غير علم الانسان وإحاطته . إنه لابد أن يكون ذلك أثرا من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضى إنه علم الله عز وجل .

وهذه أمثلة مما فى القرآن :

١ - ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] :

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى الى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله؟ قال : «ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة» قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا؟ فقال : أنا سعد بن مالك، فقال : ما جاء بك؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله . قالت : فسمعت غطيط رسول الله فى نومه .

روى الترمذى والحاكم عن عائشة وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال :

كان النبى ﷺ يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: «يا أيها الناس.. انصرفوا فقد عصمنى الله».

من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يحرس وكان يحب أن يحتاط فى أمر حماية نفسه وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التى تجزم أن الرسول ﷺ معصوم من الناس.

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد اليه، وهذا إخبار عن غيب إذ من الذى يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلا مع توفر دواعى التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد ﷺ عاداه الناس جميعا وصار للعداء مظهر الدم فى أمة تأصل فيها معنى الثأر. إن مثل هذا لا يجزم به إنسان متماسك عقليا، إن لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط.

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله، ومحاولات كثيرة أعدها المشركون كلها لم تبلغ شيئا فى الوقت الذى لم يكن أى مانع بشرى يحول دون تنفيذ الجريمة إلا عناية الله. وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول ﷺ كثيرة وكانت خطرة وكان الرسول ﷺ هو هدف العدو فيها، وما حدث أبدا أن ولى الرسول ﷺ العدو ظهره وكان أقرب أصحابه الى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمى الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم، ومع هذا وذاك فالآية تجزم أن هذا الانسان معصوم لن يقتل وقد كان.

لقد انتقل الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى بيد القدرة الالهية لا بتسليط انسان ـ ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله فى أشد ساعات الخطر تحقيقا لوعده:

- روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة وروى مسلم فى صحيحه عن جابر قال:

كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى ﷺ: أتخافنى؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك منى؟ قال: الله يمنعنى منك.. ضع السيف، فوضعه.

وروى الشيخان: في غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق الرسول ﷺ يركض جهة العدو راكبا بغلته وعمه العباس آخذ بلجامها يكفها عن الاسراع، فأقبل المشركون إليه فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلا بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده.

إن نبوءة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل: لن تقتل. لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحيا من الله الذي يعلم الغيب وبيده الموت والحياة.

٢- ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦].

نزلت هذه الآية في مكة كما روى البخاري عن عائشة: نزل على محمد بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ والمسلمون وقتذاك مستضعفون في مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال، ولو كان قتال فلم يكن متوقعا في ميزان القوة أن يغلب المسلمون، ومع ذلك تنزل هذه الآية المنبئة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر. روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال:

لما نزلت ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ. وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار، وللمشركين دار، واصطدم الجمعان، وكان رسول الله ﷺ عارف يومها أنه اليوم الموعود. روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض. فأخذ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بيده وقال: حسبك يا رسول الله.. ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ**

﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ وقد انتصر جمع الإيمان، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم، وآمن المؤمنون أن هذا إنما هو علم الله الذى لا يخطئ.

٣- ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ [الروم: ٢-٥].

كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة، يقولون لهم: ان الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية..

ولقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين إخبارا بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون. ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدا يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها، وهزمت فى بلادها، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك ـ الى أمد طويل ـ قائمة فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها فيه النصر، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا علي تكذيبه، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾.

إشارة إلى أن اليوم الذى يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس. سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين، وإذا كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعدا عن الناس أشد الاستبعاد، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦] ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين، وكان يوما نصرها هو اليوم الذى وقع فيه نصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر الكبرى. كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ورواه الطبرى عن ابن عباس وغيره. فكانت نبوءة ثالثة فى الآية تحققت.

٤- ﴿ ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢١-٢٦]

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [سورة المسد]

النص الأول :

فى الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .

والنص الثانى فى عم النبى ﷺ وزوجة عمه . والنصان يخبران فى حياة الثلاثة أنهم سيدخلون النار وهذا يعنى أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا فى الاسلام وواضح فى ذلك الإخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضلالا وكفرا وعتوا وكيدا بالمسلمين، ثم كان بعد من المسلمين كأبى سفيان وخالد وعمرو ابن العاص . . وظواهر الأمر لم تكن تدل على أن الوليد مثلا أبعد من أبى سفيان عن الإسلام . فللوليد تلك الشهادة العظيمة التى رأيناها سابقا فى القرآن كما أن الآخر عم النبى ﷺ ولكنها النبوءة التى لا تتخلف إذ تقول فيكون ما قالت ولم يحدث ان القرآن ذكر انسانا بأنه من أهل النار ثم أسلم .

٥- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : ٢٧] .

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش اذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عزلا من كل سلاح إلا السيوف فى القرب .

فهل كان للمسلمين أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود، وقطع الأرحام، وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غدا؟

على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم الى فخ؟ وآية ذلك . اشتراط تجردهم من السلاح الا السيف فى القراب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى انهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول والأمن وقضاء الشعيرة. فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان. وكان من بعد ذلك الفتح القريب.

٦- كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم، ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

[غافر: ٥١].

كان هذا يوم كانوا فى مكة حيث كانوا ينامون على خوف، ويستيقظون على خوف. ثم هاجروا الى المدينة فكيف كان الحال؟

روى الحاكم وصححه: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أترون أنا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

وروى ابن أبى حاتم عن البراء قال: نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد. فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعاديها، وإذا بها بسنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها، وتضرب أكبر دولتين فى العالم: دولة الفرس ودولة الروم فتنتصر عليهما، ثم تنساح فى الأرض فلا يستعصى على سيوف أهلها شعب ولا بلد.

٧- ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١]. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾

[العنكبوت: ٢٢].

إن الكلام عن الشئ فرع تصوره هذا بالنسبة للانسان. أما بالنسبة للذات الالهية، فان الكلام عن شئ أثر العلم به. وأنت ترى فى هاتين الآيتين خطابا للانسان أنه لن يعجز الله، ولكن يلاحظ فى الآية الأولى أنه خاطب الإنسان على الأرض فقط، وفى الآية الثانية خاطبه على الأرض وفى السماء. فزيادة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ إذن فى الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة، هذه الزيادة فيها معنى النبوءة التى تبشر بامكانية صعود الانسان الى السماء وتخاطبه فى كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة الالهية غير خارج عما تريد هذه الذات.

يا إنسان لن تعجزنى على الأرض، وإذا صعدت إلى السماء فلن تعجزنى، ولم يصعد الإنسان إلى السماء إلا فى عصرنا هذا، فكان الخطاب إذن لإنساننا الحالى وذلك من أسرار الإعجاز.

وفى كل حال يظهر لك كيف أن الزمان يظهر ما فى القرآن من حق، وكيف أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٨- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

[النحل: ٨٠].

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢].

الآية الأولى ذكرت أصنافا مما يركبه الإنسان وله فيه زينة، وبعد أن عد هذه الأصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية، ومن جو الآية نفهم أن هذا الشئ سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة بنفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير.

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبات وتقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

ترى ما هذا الذى هو من جنس الفلك ويركبه الإنسان؟

لقد كان يومها فى مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التى رأيناها حديثا تدخل لغويا فى كلمة: ﴿ **وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ** ﴾.

وإذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للانسان، وقد كان ما بشر به القرآن، يبقى معنى لابد من الاشارة اليه وهو أننا نلاحظ تطور المركوبات يوما بعد يوم كل يوم يأتى بجديد لا يعلمه الانسان قبله وهذا الشئ نفسه نفهمه من آخر الآية الأولى ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾.

فالقرآن فى الحقيقة يخاطب الانسان أبدا فى كل زمان ومكان. فعندما أسمع الخطاب اليوم ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ افهم ان فى غد شيئا جديدا، ويكون إذن ما نراه من تطور كل يوم فى عالم المركوبات داخل ضمنا فى الآية.

وأخيرا نقول: إن بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم أن الله سيخلق للإنسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديما يسير فى البر كما تسير السفن فى البحر.

٩- ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً** ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ [الأعراف: ١٦٧]

﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٢]

هذه الآيات فى اليهود وإن واقع التاريخ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن، هو الذى يفسرها. فكان ما حدث تفسير القدرة الإلهية للعلم الإلهى، إذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان، كما أخبر الله ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً** ﴾ ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن الى هذا الزمان.

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود. وأنه اضطهاد دائم. وذلة دائمة، من ملاحقة الأسبان لهم، إلى مطاردة الكنيسة فى كل مكان، إلى ما وقع

لهم فى روسيا، وآخر أنباء هذا العذاب ما سامهم إياه النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعا. هذه صورة مما وقع لهم فى الغرب، والصورة الأخرى التى وقعت لهم فى الشرق والغرب أنهم أبداً محكومون من غيرهم ، وأنهم أبدا يعانون حياة الذلة، وفى هذا وذاك عذاب ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾.

ثم حدث أن عطفت عليهم الشعوب والحكومات. أمريكا، وانجلترا وروسيا، وفرنسا.. والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجع بعد ما ذكرناه الى الآية الثالثة ترى كيف تمت النبوءة ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾.

عذاب متواصل وذلة دائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس. فلما كان هذان الحبلان. صار لهم دولة، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم إلى يوم القيامة. لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وفى التوراة الحالية المحرفة هذا القول: «سأجمعك يا إسرائيل فى أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحا» وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهى هذه الردة عن الاسلام إن شاء الله.

١٠- والذى يريد أن يتتبع هذا النوع مما فى القرآن يجد الكثير. ففى آية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٤] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] نبوءة تحققت. مظهرها ما كشف الانسان من علم وما يكشف، وفى آية ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر: ١-٢] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] نبوءة تحققت.

والشئ الذى نريد أن نخرج به هو أن القرآن إذا قال فذلك العلم الذى لا يخطئ لأنه علم الله المحيط.

غير أن فهمنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن فهما

خاطئا، ونعطيه للناس، بل نلزمهم به أو يلتزمون. وهذا خطر كبير. لذلك ينبغي أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير القرآن: وكل مفسر فهم القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا فهمه للقرآن تفسيرا للقرآن، وشتان بين الفهم الخاطئ للقرآن وحقيقة القرآن.

(٤)

شئ آخر يدلك على أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل، وأنه ما كان ليكون هكذا لولا أنه منزل من عند الله الذى أحاط علمه بكل شئ. هذا الوجه الذى نريد أن نتحدث عنه الآن هو الذى أشارت إليه الآيات القرآنية التالية:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة الا لسفر واحد من أسفارهم. هو سفر «أرمياء» كما يذكر «مونتيه» فى تاريخ الكتاب المقدس، وليس الإنجيل باسعد حالا. فقد الغى مجمع أساقفة «نيقية» كثيرا من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأناجيل. وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح، لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح باكثر من قرن أى بعد عصر الحواريين الذين تنسب اليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فإن شكوكا كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية.

إن إنجيلا واحدا نطق به عيسى على أنه كلمة الله، فلم يكون الانجيل أربعة؟ ولم

كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص؟ ولقد لعن أرمياء فى سفره المذكور « أقلام النساخ الكاذبة ».

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير الى ربانية مصدره، حيث إن هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك، حتى يتحدى فى بعض المواقف أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه:

﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٣].

– أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والانجيل، هذه الموجودة حاليا ليست هى بالضبط الكتب السماوية الأصلية بل داخلها تحريف وتبديل، ونسى قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمى العقلى النصرانى من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التى تتفق مع ما ألح القرآن عليه:

﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٨-٧٩]

﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ [المائدة: ١٣].

* * *

– الموقف الثانى:

ذكر القرآن الكريم كثيرا مما كان فى التوراة والانجيل من معان ووحى، وعندما نستعرض هذه النصوص ونقرأ التوراة والإنجيل فاننا نجد هذه النصوص قد طابقت ما فى التوراة والإنجيل، مما يدل على إن قسما من التوراة والإنجيل لم يحرف، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن. إذ لا شك تاريخيا كما مر أن محمدا ليس له أى اطلاع على كتب دينية أو غير دينية.

وهذه الأمثلة :

١ - يقول القرآن :

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢]

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٦-١١٧].

ويقول إنجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته».

ويقول إنجيل مرقس الباب الثانى عشر (٢٨) «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هى الوصية الأولى».

ويقول إنجيل متى الباب التاسع عشر (١٦) «وإذا واحد تقدم وقال : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية؟ فقال له : لماذا تدعونى صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله»

وهذه نصوص صريحة فى الأناجيل الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وأنه رسول ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف.

٢ - يقول القرآن : على لسان عيسى ﴿ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [آل عمران : ٥٠] ويقول : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [المائدة : ٤٦] ويقول مخاطبا لنا : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣].

ويذكر انجيل متى إصحاح (٥) على لسان عيسى : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء الى أن تزول السموات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات فإنى أقول لكم : إن لم يزد بركم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السموات » .

٣- يقول القرآن :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾

[المائدة : ٤٥] .

وفى الإصحاح (٢١) من سفر الخروج :

وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم (من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض » .

٤- يقول القرآن :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة ق :٣٨] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وتقول التوراة فى الاصحاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق : « وقال الله نعمل الانسان فخلق الانسان ذكرا وأنثى وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا وكان . . يوما سادسا » .

وفى الاصحاح الثانى من سفر التكوين :

- « فأكملت السموات والأرض وكل جندها » .

- « هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات » .

– « وجعل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » .

– « فأوقع الرب الاله ثباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إليه » .

٥- يقول القرآن :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : ٥١] ويقول : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩–٢٠] ويقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَباً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [النبأ : ٦–١٦] ويقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] .

وفى سفر أيوب إصحاح (٣٨) أجاب الرب أيوب وقال : « شد الآن حقويك كرجل – أى قف باستعداد – فإنى أسألك فتعلمنى : أين كنت حين أسست الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى اى شئ قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله . من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار أتخرج المنازل من أوقاتها وتهدى الشمس مع بناته من يهيئ للغراب صيده إذا نعب فراخه إلى الله فأجاب أيوب الرب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجاوبك وضعت يدى على فمى » .

٦- يقول القرآن :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٢–١٠٣] ويقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ويقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [المائدة : ١٢٠] وتقول التوراة سفر الخروج :

«الرب يملك الى الدهر والأبد» الاصحاح (١٥)، وفى الاصحاح (٣٧) «عند الله جلال مرهب التقدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر» وفى الاصحاح (٣٣) «هو ذا الله تعالى بقدرته من مثله» «هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص».

٧- يقول القرآن:

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

[البقرة: ٥١]

ويقول: **﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾** [الاعراف: ١٥٠] ويقول: **﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾** [طه: ٩٧].

وفى الاصحاح (٣٢) من سفر الخروج «فانصرف موسى ونزل من الجبل، وكان عندما اقترب الى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه..

ثم أخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء».

٨ - يقول القرآن: متحدثا عن موسى:

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ [الاعراف: ١٤٣].

وفى الإصحاح (٣٣) من سفر الخروج «فقال موسى: أرنى مجدك (١٩) ...... قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» (٢١).

٩ - يقول القرآن:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة: ٨٣].

وفى الإصحاح العشرين من سفر الخروج: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا

ولا صورة مما فى السماء.. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب الهك غيور وأصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى».

١٠- يقول القرآن فى سورة يوسف عن يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [٤] ويقول سفر التكوين الفصل (٣٧): «قال رأيت حلما أيضا كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة له» ويقول القرآن على لسان إخوة يوسف:

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [٩-١٠].

وفى سفر التكوين:

«والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول: إن وحشا ضاريا افترسه ونرى ما يكون من أحلامه، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه فى هذا البئر التى فى البرية».

ويقول القرآن:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ..﴾[١٧]

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [١٨].

وفى سفر التكوين:

«فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعز وغمسوا القميص فى الدم. وحش ضار أكله افترس يوسف افتراسا».

ويقول القرآن:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [٢٣].

وفى سفر التكوين :

« وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعنى فأبى وقال لامرأة مولاه هوذا مولاى لا يعرف معى شيئا مما فى البيت وجميع ما هوله جعله فى يدى.. فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن فى البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعنى ».

ويقول القرآن :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [٤٣-٤٤].

ويقول سفر التكوين :

« إن فرعون رأى حلما كأنه واقف على شاطئ النهر فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهى حسان المنظر وسمان الأبدان فرتعت فى المرج وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهى قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على الشاطئ النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان..

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة وهى سمان جياد وكأن سبع سنابل دقاقا قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون ».

* * *

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التى ختمت بها سورة يوسف **﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾** [١١١] ونعرف كذلك وحدة الوحى ووجوده إذ رأينا أن سيدنا محمدا ﷺ لم يتلق أى تعليم سابق مما يوهم أن مثل

هذا التلاقى وليد دراسة، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعانى أبدا، ولم تكن تعرفها، بدليل الآية التى ذكرت فى سورة يوسف عقب القصة ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[١٠٢].

فعندما يتم التلاقى بين معنى ذكره الانجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود فى القرآن، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا فذلك دليل لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء: ١٦٦].

* * *

– **الموقف الثالث:**

رأينا فيما مضى أن التوراة والانجيل والزبور فى الأصل من عند الله. ورأينا كذلك أنها قد داخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياع، والشئ العادى إذن بعد هذا. أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا، ومفاهيم خاطئة، وتصورات فاسدة، واختلافات كثيرة، ويأتى القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها، وهذه الأخطاء كلها وهذه الانحرافات كلها. فيبين ويوضح ويوبخ ويعاقب ويدعو وينذر، ويعلل ويوضح، ويطالب ويأمر، وينهى بجزم وحزم وتعليم وإرشاد وأستاذية مطلقة، وسيادة بينة. فرد اليهودى والنصارى معا الى القصد والى الطريق المستقيم ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦] ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾]المائدة: ١٩].

وهذه أمثلة:

١– أعطى قسم من الكتابيين العصمة لبعض البشر ممن ليسوا بأنبياء، فأطاعوهم وعطلوا نصوص الكتب السماوية، وكما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا. فقال لهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]

وقال:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧]

٢- ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه. فقالوا عنه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [سورة ق: ٣٨].

٣- ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفا منكرا فقال عنهم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

٤- وأله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]

٥- وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]

ووضع عيسى وأمه فى المحل الصحيح ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

٦- وتصور بعض الكتابيين أن إثمهم يحمله غيرهم وأن الانسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بالمسيح فقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر: ١٨].

والأمثلة كثيرة جدا على هذا فى القرآن، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الانسان لا يشك بتاتا إذا طالع هذه الكتب كلها، أن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها، وأقام الناس على الحق الذى لا شبهة فيه، ويخرج أخيرا بهذه النتيجة:

إن الحديث عن الكتب السماوية وأهلها فى القرآن يدل على محيط كامل بهذه الكتب وأهلها، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الخلاف التى لم يكن منها شئ معروف فى جزيرة العرب، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الانحراف، وكذلك بالتناقض بين النصوص، كأثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية. هذا مع أمية الرسول ﷺ ووجود هذه الكتب فى غير اللغة العربية، وعدم انتشارها، وجهل البيئة العربية بمضامينها، وثبوت أن الرسول ﷺ لم يتلق تعليما من أحد.

ان هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحى من عند الله.

* * *

(٥)

وآخر ما نريد ذكره فى فصل المعجزة القرآنية. هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن، وأسلوب القرآن، وفى ذلك برهان أى برهان على كون هذا القرآن من عند الله.

إن المبتدئ فى طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله ريادة فيه، يختلف وضعه عن المجرب الخبير، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبرتهم، كما يقال هذا فى الحل والترحال، يقال مثله عن عالم الأدب، لم كان حسان بن ثابت فى الجاهلية أقوى شاعرية منه فى الاسلام؟

لأن المعانى التى كان يتحدث عنها فى الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله. قالوا فيها كثيرا، وفتحوا فيها آفاقا واسعة استفاد منها، فقال وأجاد.

أما فى الاسلام فالوضع يختلف. فقد أتى الاسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليا تختلف عما فى الحياة الجاهلية، وأقام نظاما للحياة على أسس معاكسة تماما لما

كان عليه الناس، والمعركة بين جديد وقديم، فكان إذن وهو يتحدث عن هذا الشئ الجديد كله رائدا غير مسبوق، فشئ عادى إذن أن يكون شعره الاسلامى أضعف من شعره الجاهلى. إن زهير بن أبى سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حجر الشعرية، ولو لا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعانى هؤلاء واحدة.

هذه قضية ينبغى أن تكون على ذكر منا، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن.

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريق التعبير فى قضايا الخيال والتصور أو العاطفة، وفى الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب فيكون كذب وشطط وإسفاف ومجانة..

وهذه قضية ثانية ينبغى أن تكون على ذكر منا كذلك.

والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته، ومن محيطه مما يشاهده أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويحلق ويدقق، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه:

من زهير إذ يقول:

ترى العين والآرام فى عرصاتها واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إلى على بن الجهم إذ يقول للخليفة:

أنت كالكلب فى الحفاظ على الود وكالتيس فى قراع الخطوب

وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغى أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن.

وأى شاعر تكلم، وأى أديب قال أو كتب، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته، لغير أو بدل أو قدم أو أخر، وأى قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون. فيرون كلمة أجود من كلمة، وحرفا أجمل من حرف، وجرسا ألطف من جرس، أو أكثر مناسبة، وقد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها، أو جرسا

غير منسجم مع معنى، الى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيرا أو أجود معنى.

وفيما رأيناه من نقد الخنساء لحسان فى أوائل هذا البحث مثال كاف، فاذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول: إن إنسان يعقل لا يستطيع أبدا أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ أو سواه من البشر، بل لابد أن يكون مصدر هذا القرآن الذات العليا ذات الله عز وجل:

١- فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية. فما فيه من صور وما فيه من أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر. خذ مثالين على ذلك:

(أ) ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٣٩-٤٠] إن هذا النص وخاصة المثل الثانى منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليد العصر الذى وجد فيه ولتعرف لماذا؟ اقرأ هذا التعليق: «فى هذه الآية اشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعبا هى أمواج غير منظورة تتحرك فى خطوط سيرها الغامضة بعيدا فى أعماق البحار وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالى كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت، والذى عرف الآن بانه أمواج داخلية. وفى عام ١٩٠٠ لفت الانظار كثير من مساحى البحار الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التى ترتفع وتهبط بعيدا أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع فى المحيط قد أصبح أمرًا معروفا جيداً فهى تقذف بالغواصات فى المياه العميقة كما تعمل شبقاتها السطحية على قذف السفن. ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج، وبتيارات أخرى قوية فى بحر عميق، فالآية القرآنية تقول: ﴿ **فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ** ﴾ إذن الكلام عن بحر عميق، ﴿ **يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ** ﴾ إذن أمواج

داخلية وأمواج سطحية ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة إنما تنطبق على الانسان إذا كان تحت الأعماق أى تحت الأمواج الداخلية. مثل هذا التصور معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا.

(ب) ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر فى التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التى تعبر عن هذا العلم الذى لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل. أن تنقلب الأشجار كلها اقلاما والبحار كلها حبرا وفوق البحر أبحر وتبدأ الأقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتناهى، إن الأمة التى كان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله، ليس بالإمكان أن يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله.

٢- والقرآن الكريم نزل منجما خلال ثلاث وعشرين عاما وكتاب تم جمعه وكماله خلال هذه الفترات الطويلة لابد - إلا إذا كانت المسألة غير عادية - أن يكون هناك اختلاف فى أسلوبه قوة وضعفا ما بين بدايته الى نهايته ولابد أن يكون هناك اختلاف فى المضامين. وهذا شئ يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام، وصناعة الأفكار، وصناعة الاصلاح وصناعة الأمم. التجربة تغير الرأى والتجربة تقوى الأسلوب وليست آراء الإنسان بعد عشرين عاما من العمل الاصلاحى هى نفسها قبل العشرين، ولكنك فى القرآن تجد ظاهرة الوحدة فى الأسلوب سواء فى ذلك ما نزل أولا أو ما نزل أخيرا وسواء فى ذلك النص التشريعى أو النص الوعظى أو النص الوصفى أو النص القصصى. وظاهرة الوحدة فى المعانى فلا تجد معنى متأخرا ينقض معنى متقدما، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله ﷺ فيأخذ محله فى القرآن، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبديل، ويبقى هذا الأسلوب متميزا متفردا ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفا عن أسلوب محمد ﷺ نفسه فى الكلام مع بقاء معانى القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن

الانسان. فالمسألة بإنصاف ليست بشرية الصنع وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعاني.

من النصوص التشريعية في القرآن:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

[النساء: ١١].

ومن النصوص القصصية:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

ومن النصوص الوعظية:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾

[الانفطار: ٦-١٤]

ومن النصوص الوصفية:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ٦-١٦].

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقا وبعضها نزل لاحقا، وكل يتحدث عن معنى. ولكن هل تجد اختلافا فى الأسلوب؟

إن إنسانا ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة الا أنها خارقة للعادة.

– أول آية نزلت فى الخمر قوله تعالى:

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾

[النحل: ٦٧]

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن، فكانت أول آية غمزت من الخمر. ثم تأتى الآية الأخرى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم تأتى الآية الأخرى:

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم تنزل الآية الأخيرة:

﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠] فهل تجد تناقضا بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية. وعلى هذا فقس. فالقرآن تكامل خلال ثلاث وعشرين عاما. ما نقض معنى متاخر معنى متقدم بل أكمله وأوضحه وتممه. وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

٣– والقرآن الكريم طرق معانى ما طرقها أحد من قبل أمة العرب. فالمفروض لو كان الأمر بشريا، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة، وقلب كلمات، وتلعثم وتكلف الى غير ذلك، إلا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنار والملائكة والانسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والايمان، وتحدث عن الذات الآلهية، وناقش المعارضين، وأفحم المجادلين، وهو فى ذلك كله فى أعلى طبقات البلاغة، وفى أعظمها وكل من أتى بعد وتحدث عن أى معنى طرقه القرآن كان فيما قال أقل إلى درجة الثلاثين اذا قيس ما قيل الى لغة القرآن. لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد فى اللغة

العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها، وما تعطيه من معنى، ومناسبتها لما قبلها وبعدها. هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شحطة فكر، ولا كذبة خاطر، ولا لفتة غير واقعية. بل الحق الذى لا يناقش فيه واحد.

ونرى ذلك بشكل مضطرد من أول القرآن لآخره. كتاب ضخم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه، وزيادة على ذلك فان الكلمة القرآنية، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وإن لم تعرفه، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم، فجرس الحرف، ومحل الكلمة فى الآية، ومحل الآية فى السورة، كل ذلك عجيب، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الإنسان. فانه سهل لدرجة انه يفهمه كل إنسان، ولكن كل إنسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية. وكلما ارتقى أكثر كان فى القرآن أكثر، وكلما أتى جيل وجد فى القرآن جديدا تفهمه الأجيال كلها. ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠]

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصادية للانسان، ويكتب فى ذلك كتابا ضخما وفى القرآن مزيد لمستزيد.

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا فى القرن العشرين، فيؤلف فى ذلك كتابا ضخما، وفى القرآن مزيد لمستزيد.

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الانسان فى الفلك وفى القرآن مزيد...

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن القرآن كان فى ذلك دمارها.

ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا إلا تلاميذ صغارا ولا يحيطون بأسراره علما.

ويقرؤه الرجل العادى فيفهمه فيتذكر ويبكى ويتعظ. أنه كتاب كل إنسان وإن كان بيانه أرقى من كل بيان، وكلمته أفصح من كل كلمة، حتى أنك لو فتشت فى كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية فتكون أجمل منها أو أحكم

أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمـــة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فإنك لا تستطيع مهما بذلت من جهد. بل تنقطع أنت وشيطانك ويبقى القرآن هو القرآن. وزيادة على ذلك فإنك لا تجد الكلمة التى تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية. وهذه أمثلة توضح هذا الذى قدمناه هنا:

١ - ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قارن هذا التعبير بأى كلمة قالتها العرب فى معناها أو يمكن أن تقولها فانك ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآنى وآى تعبير آخر. فمثلا قال العرب فى معنى الآية ما يلى: «قتل البعض إحياء للجميع» وقالوا: «أكثروا القتل ليقتل القتل» وقالوا: «القتل أنفى للقتل» ولعل أخرها أجودها فلنقارنه فى الآية لنجد أن التعبير القرآنى أفصح وأبلغ وأحكم فى ستة أوجه وبعضهم أوصلها إلى أكثر من عشرة:

(أ) أن التعبير القرآنى أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتى «القصاص حياة» أو «القتل أنفى للقتل».

(ب) أن قولهم: «القتل أنفى للقتل» فيه التباس إذ ظاهره أن القتل سبب لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن فإنه واضح فيه أن نوعا من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة.

(جـ) فى قولهم: «القتل أنفى للقتل» كررت كلمة القتل مرتين أما التعبير القرآنى فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة.

(د) فى قولهم: «القتل أنفى للقتل» لم يشمل إلا نوعا مما ينبغى القصاص فيه. أما التعبير القرآنى فشمل القتل وغير القتل، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة.

(هـ) أن القصد من القصاص حفظ الحياة الانسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود، إذ أوضح المقصود مباشرة من تعبيرهم الآخر إذ ذكر المقصود تبعا.

(و) وأخيرا فإن تعبيرهم قاصر وموهم وخاطئ، إذ قد يكون القتل سببا لكثرة القتل كالقتل ظلما، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافيا للقتل على خلاف التعبير

القرآني. فإنه صحيح شامل غير موهم، صادق ظاهرا وباطنا. كيف قبلته أعطاك معنى صحيحا.

وفي تعريف كلمة القصاص وتنكير كلمة الحياة في التعبير القرآني، معاني عظيمة كبيرة أما هنا فليس في تعريف ولا إخبار أي ميزة.

٢- ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

هذا مقطع أمرت به الأمة الاسلامية بالاستعداد، وكان هذا الأمر لها في كل زمان ومكان. وشمل كل ما يلزم من أمر الاعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص:

من: في اللغة العربية تأتي للجنس أحيانا وهذا معناها هنا، والقوة فسرها الرسول ﷺ بالرمي فلما قال الله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطيعون إعداده مما يرمى به، أي من جنس ما يرمى به، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية، وكل ما يمكن أن يخترعه الانسان من أدوات الرمي، ولما قال ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ أي وجنس رباط الخيل، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أي شمل التعبير كل الآليات.

أرأيت الإعجاز الواضح اذ يسع النص القرآني الزمان كله، والمكان كله، ولو أنك حاولت أن تغير كلمة أو حرفا من هذا التعبير لبدا القصور، فانك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصرا على جزء مما ينبغي إعداده.

٣- ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

هذا التعبير القصير الذي عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل. وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معان؟

(أ) يشترط في اللباس أن يكون خاصا بصاحبه، وملكا له وحده، وكذلك المرأة ينبغي أن تكون كلها لزوجها لا لغيره. لا خدها. ولا عينها. ولا جسمها ولا...

(ب) ويشترط في اللباس أن يكون ساترا لعورة الرجل، وكذلك لعورة المرأة، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس، زوجتي ينبغي أن تكون ساترة لعيوبي لا تفضحني أما اذا كانت اداة فضيحة فهذا شئ لا يحتمل.

(جـ) ويشترط فى اللباس أن يكون طاهرا وكذلك المرأة أو الرجل.

(د) ويشترط فى اللباس أن يكون مناسبا لمكانة الانسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة.

فهل تجد فى اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطى هذه المعانى كلها.

٤ - ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

الحرث هى الأرض التى تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمر فالرجل مهمته إلقاء البذار والمرأة مهمتها حضانة هذه البذار، الأرض يعتنى بها حتى تقطف الثمرة، وتختار صالحة للزراعة، ولا يلقى الانسان بذاره فى الأرض ويتركها، ولا يبذر فى غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحدا.

هل تجد كلمة فى اللغة العربية تحل محل كلمة حرث، لو قلت: «أرض» لما أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معانى وأجود وأصدق منها فى محلها.

٥ - ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً ﴾ [القصص: ٣٨].

الطين المشوى يسمى آجرا أو قرميدا بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين فى محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة، ثم التعبير القرآنى يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود فى ذلك لفتة تدلنا على حماقة فرعون وبطره إذ لم يقدر الزمان الكافى لعمل يحتاج الى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى؟

٦ - ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الأذن كما هى موجودة فى هذه الصياغة؟ حتما لا..

٧- ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق: ١٥].

لو سـائلك سـائل ماذا تعنى كلمة «سفع» فى اللغة العربية فإنك لا تعرف إلا إذا رجـعت إلى قـامـوس ولكنـك اذا رجـعـت إلى الآية وتلوتهـا فـان قلبك يكاد يحس بمعناها وإن لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة فى هذا القرآن.

وبعـد .. فالقرآن لا يمكن أن يكون وليـد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيـه والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه والاختيار العظيم فيه إلا من عند الله العظيم العليم.

* * *

والذى ذكرناه فى هذه الفـقـرة الخامسـة هو من خـصـائص القـرآن المذكـورة فى الآيات:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠] ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢] ﴿ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨] ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية، ولم نذكر إلا الطرف الأقل عنها. وإلا ففى القـرآن مناحى لو بحثت لكان هنا محلهـا ككون القـرآن فـيـه تبـيـان كل شئ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

وككون القرآن يهدى دائما وفى كل شئ لأقوم الطرق.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الاسراء: ٩].

وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه، وتجد مصداقه فيه، إلا أن بعضا مما له علاقة بما ذكرناه سنراه فى الرسالة الثالثة التى تأتى بعد هذه الرسالة: «الإسلام».

ولعل فيما كتب فى هذا الباب كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عند

الله، وأن محمدا رسول الله، وإذا بقى فى قلبك شك، فليجرب أن يؤلف مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فإن عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين ممن هم أبلغ، فإن عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق إلا الضلال والحماقة وعمى القلب وموت الضمير.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

وإلى الفقرة الثانية من هذا الباب:

* * *

الفقرة الثانية

معجزات أخرى

إن قدرة الإنسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الانسان وإلا لا. فالإنسان مثلا يستطيع إذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق. ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهبا إذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة. ولكن الإنسان لا يستطيع ان يوجد ذهبا من لا شئ، والبخار الموجود فى الجو ينعقد مطرا إذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها، ويستطيع الانسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط بالجو فينزل مطرا اصطناعيا كما يقولون. ولكن لا يستطيع الإنسان بمجرد الكلام أن ينزل مطرا.

إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه، فإن قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون. ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات.

بعد هذا نقول: إن مما يعرف به الانسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله. فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة، فيعرف الناس بذلك ان هذا الإنسان رسول الله. بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله. وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بانه صادق فى دعوى الرسالة، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك.

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول الله ﷺ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى إقامة الحجة.

* * *

ولم يوجد رسول أبدا فى تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتا تاريخيا يتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فان معايير النقد التى وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ما وصل إليها العالم قط ولا يرقى الى نتائجها شك.

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيا يرى بوضوح لا مزيد عليه،آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع. مما لا يبقى ريبا لمرتاب، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله.

وهذه نماذج من هذه الواقعات التى لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله وبها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور هى القرآن، الذى رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله فى الفقرة السابقة ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وإنما أردنا ضرب الأمثلة فقط، وإلا فمعجزات الرسول عليه السلام كثيرة جدا.

* * *

(١)

أخرج مسلم والبيهقى وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: قال «سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله ﷺ: يا جابر .. ناد بوضوء. فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ قلت: يا رسول الله .. ما وجدت فى الركب من قطرة. وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فقال لى: انطلق إلى فلان الأنصارى فانظر فى أشجابه من شئ فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة فى عزلاء شجب يابسة مما لو أنى أفرغه لشربه واحد، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته قال:

اذهب فأتنى به. فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشئ لا أدرى ما هو ويغمزه بيده ثم أعطانيه فقال:

«يا جابر .. ناد بجفنة الركب».

فقلت: يا جفنة الركب.. فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا فبسطها فى الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها فى قعر الجفنة وقال: خذ يا جابر فصب على وقل بسم الله. فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلأت نقال: يا جابر.. ناد من كانت له حاجة بماء. فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى».

وأخرج الشيخان من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس رضى الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده فى ذلك الاناء وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم».

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضى الله عنه أن النبى ﷺ دعا بماء فأتى بقدح رحراح فيه شئ من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه فجعل القوم يتوضئون فحزرت من توضأ منه ما بين السبعين الى الثمانين.

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه «أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه فتوضأ أصحابه به جميعا. قلت لأنس: كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاث مائة».

وأخرج أحمد والبيهقى والبزار والطبرانى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس فى العسكر ماء فقال رجل: يا رسول الله.. ليس فى العسكر ماء. قال: هل عندكم شئ؟ قال: نعم. فأتى بإناء فيه شئ من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه فى فم الاناء وفتح أصابعه قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه فأمر بلالا ينادى فى الناس: الوضوء المبارك».

وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «إنكم تعدون الآيات عذابا وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله ﷺ قد كنا مع النبى ﷺ ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتى النبى ﷺ باناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبى ﷺ : حى على الطهور المبارك والبركة من الله، حتى توضأنا كلنا».

وأخرج البخارى عن مسور بن مخرمة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى لرسول الله ﷺ العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من الصحابة » .

وأخرج البخارى عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة ما ترويها فقعد رسول الله ﷺ على جباها - يعنى الركبة - فإما دعا وإما بزق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا » .

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه « أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك فقال : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشئ من ماء فغرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شئ ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا » .

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كنا فى سفر مع رسول الله ﷺ فشكا إليه الناس العطش ودعا عليا ورجلا آخر فقال : اذهبا فابغيانى الماء فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين - أو سطيحين - من ماء على بعيرها فقالا لها : أين الماء؟ قالت : عهدى بالماء أمس هذه الساعة - أى يبعد مسيرة يوم كامل - فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض فى الماء وأعاده فى أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى - أى مصب الماء من القربة - ونودى فى الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهى قائمة تنظر ما يفعل

بمائها وأيم الله لقد أقلعوا عنهما وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءا منها حين ابتدأوا فيها فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لها فجمعوا من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما كثيرا فقال رسول الله ﷺ : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئا ولكن الله عز وجل هو سقانا . قال : فأتت أهلها وقد احتبست عنهم فقالوا : ما حبسك يا فلانة؟ قالت : العجب . . لقيني رجلان وذهبا بي إلى هذا الذى يقال له : الصابئ، ففعل بمائي كذا وكذا . الذى قد كان فوالله لأنه أسحر من بين هذه وهذه – وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعنى السماء والأرض – أو أنه لرسول الله حقا .

قال : فكان المسلمون بعد يعيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذى هى فيه فقالت يوما لقومها : ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم فى الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا فى الإسلام » .

وأخرج مسلم عن أبى قتادة أن النبى ﷺ كان فى سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس فى ظهره فدعا بميضاة[1] كانت معى فيها شئ من ماء فتوضأ منها ثم قال : احفظ علينا ميضاتك فسيكون لها نبأ . فسار حتى امتد النهار فقال الناس : هلكنا وعطشنا . فقال : لا هلك عليكم .

ثم قال : انطلقوا إلى عمرى . يعنى القدح الصغير فدعا بالميضأة فجعل النبى ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبى ﷺ : أحسنوا الملء كلكم سيروى . . . حتى ما بقى أحد .

* * *

(٢)

أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه النبى ﷺ فمسحه فسكن .

وأخرج أحمد وابن سعد والدارمى وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ

(١) الميضأة : إناء يوضع فيه الماء .

المنبر وتحول اليه حن الجذع فأتاه فاحتضنه فسكن فقال ﷺ : «لو لم أحتضنه لحن الى يوم القيامة».

وأخرج الدارمى والترمذى وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقوم إلى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل إليه رسول الله ﷺ فالتزمه فسكت فقال: والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزنا على رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن سعد وابن راهويه فى مسنده والبيهقى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يقوم الى خشبة فلما اتخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل رسول الله ﷺ فأتاها فوضع يده عليها فسكنت».

وأخرج الدارمى وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقى عن أُبى بن كعب رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل ﷺ فمسحه بيده حتى سكن».

وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خشبة يستند إليها إذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها ﷺ فاحتضنها فسكنت.

وأخرج ابن أبى شيبة والدارمى وأبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب الى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة الى ولدها فنزل اليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكن».

وأخرج البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: «كان جذع يقوم اليه النبى ﷺ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتا مثل أصوات العشار (النياق) حتى نزل النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت».

قال التاج السبكى: حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة الى نحو العشرين من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه، وقال القاضى عياض بالشفاء: إنه متواتر. وقال البيهقى: قصة حنينه من الأمور الظاهرة التى نقلها الخلف عن السلف.

(٣)

أخرج البخارى عن أنس – رضى الله عنه – قال: أصابت الناس سنة – جدب – على عهد رسول الله ﷺ فبينا رسول الله ﷺ على المنبر يوم الجمعة يخطب أتاه أعرابى فقال: يا رسول الله.. هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى فى السماء قزعة، فوالذى نفسى بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابى فقال: يا رسول الله .. تهدم البناء. فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا.. فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادى قناة شهرا ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود» وأخرج مسلم مثله.

وأخرج البخارى عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا انظر إلى وجه رسول الله ﷺ على المنبر يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس – رضى الله عنه – أن ناسا من مضر أتوا النبى ﷺ فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال: اللهم اسقنا غيثا مغيثا، هنيئا مريئا، مريعا غدقا، طبقا نافعا غير ضار، عاجلا غير رائث. فاطبقت عليهم حتى مطروا سبعا.

* * *

(٤)

وأخرج الدارمى وأبو يعلى والطبرانى والبزار وابن حبان والبيهقى وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

كنا مع النبى ﷺ فى سفر فاقبل أعرابى فلما دنا قال له النبى ﷺ: أين تريد؟ قال: إلى أهلى. قال: هل لك فى خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. قال: من شاهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ وهو بشاطئ الوادى فأقبلت تخد الأرض خدا حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه رسول الله ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابى الى قومه فقال: إن يتبعونى آتك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك.

وروى البخارى فى تاريخه والبيهقى والدارمى والترمذى بسند صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ - ﷺ - فقال: ان دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بى؟ قال: نعم. فدعاه فجعل ينقز - أى يثب - حتى أتاه، فقال: ارجع، فعاد الى مكانه فأسلم الأعرابى.

وفى رواية: فجعل ينزل من النخلة شيئا فشيئا حتى سقط على الأرض فاقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى الى النبى ﷺ ثم قال له: ارجع. فعاد، فأسلم الأعرابى وقال: أشهد أنك رسول الله.

وروى الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى عن يعلى بن مرة الثقفى _ رضى الله عنه _ قال: «كنت مع النبى ﷺ فى مسير فذكر الحديث إلى أن قال: ثم سرنا حتى نزلنا منزلا فنام النبى ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته. وفى رواية: طافت به ثم رجعت إلى مكانها فلما استيقظ ﷺ ذكرت له ذلك فقال: هى شجرة استأذنت ربها فى أن تسلم على فأذن لها».

وأخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: آذنت - أى أعلمت - النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا: من يشهد لك - أى بأنك رسول الله - فقال ﷺ : هذه الشجرة، ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع».

وأخرج الإمام أحمد والبيهقى والطبرانى بسند صحيح عن يعلى ابن سبابة - رضى الله عنه - قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأمر وديتين - أى نخلتين صغيرتين - فانضمتا.

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب - رضى الله عنه قال: سأل أعرابى النبى

ﷺ آية – أى علامة – تدل على أنه رسول الله فقال له: قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك. فدعاها فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله فقالت: السلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابى: مرها فلترجع الى منبتها فرجعت فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابى: ائذن لى أسجد لك. أى بعد أن آمن به ﷺ – كما صرح به فى رواية – فقال له ﷺ: لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. فقال الأعرابى: فأذن لى أقبل يديك ورجليك فأذن له».

قال الشيخ أحمد الدحلان فى السيرة النبوية: وأحاديث كلام الشجر له ﷺ كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، ويعلى بن مرة وغيرهم ورواها عنهم أضعافهم من التابعين.

وقال القاضى عياض فى «الشفاء» عنها: فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى: قال الشهاب الخفاجى: يعنى أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوى وصارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء.

* * *

(٥)

يقول الله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ﴾

[القمر: ١–٣]

روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «انشق القمر فى عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام: اشهدوا».

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما».

وروى الترمذى من حديث ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ**

﴿ الْقَمَرُ ﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ : أشهدوا».

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس».

وروى أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس قال:

«اجتمع المشركون الى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فلقتين، فسأل ربه فانشق».

ونقل الخطيب في تفسيره عن حذيفة وقد خطب في المدائن قوله: «ألا إن الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم».

وكفى ذكره في القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره إذ الآيات واضحة فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضي عياض والسبكي وغيرهم.

ونقل صاحب كتاب «إظهار الحق» عن المقالة الحادية عشرة من تاريخ فرشتة أن أهل مليبار من اقليم الهند رأوه أيضا (أي حادث انشقاق القمر).

وذكر الحافظ المزي عن ابن تيمية ان بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه: بني ليلة انشق القمر.

وقد أثار بعض مبشري النصارى شبهات حول هذا الموضوع، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغي أن يذكر في كل التآريخ العالمية لو كان صحيحا متناسين أن الخسوف مثلا قد يقع في منطقة من العالم، ويبقى ساعات ولا يراه إلا أهلها. وقد ناقش مقالتهم صاحب الكتاب المذكور آنفا. وننقل جزءا من مناقشته للأمر قال:

١- إن انشقاق القمر كان في الليل، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشي، والتردد في الطرق. سيما في موسم البرد، فإن الناس يكونون مستريحين في

داخل البيوت وزواياها، مغلقين أبوابها، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلا من انتظره واعتنى به ، ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيرا وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به فى السحر.

٢- أن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذى هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه.

٣- أنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها فى وقتها، ويرونها كما أنهم يرون هلال رمضان، والعيدين والكسوف والخسوف فى أوقاتها غالبا لأجل كونها متوقعة الحصول، ولا يكون نظر كل واحد الى السماء فى كل جزء من أجزاء النهار أيضا فضلا عن الليل، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة، وكذلك من وقع نظره فى هذا الوقت الى السماء. كما جاء فى الاحاديث الصحيحة: أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبى كبشة، فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثو إلى أهل الأفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا . فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقا وذلك لأن العرب يسافرون فى الليل غالبا ويقيمون فى النهار. فقالوا: هذا سحر مستمر.. ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل.

٤- أنه قد يحول فى بعض الأمكنة وفى بعض الأوقات فى الديار التى ينزل فيها المطر كثيرا فانه يكون فى بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر فى النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة. وكذا لا يرى فى الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور فى بعض أمكنة أخرى. لا أثر للسحاب ولا للمطر، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج فى موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلا عن القمر.

٥- إن القمر لاختلاف مطالعه ليس فى حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر فى بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض..

* * *

أخرج البخارى عن البراء رضى الله عنه : أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبى ﷺ فقال : ابسط رجلك، فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها قط .

وأخرج الشيخان - البخارى ومسلم - عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه . فلما أصبح قال : أين على بن أبى طالب؟ قالوا : يشتكى عينيه قال : فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع » .

وأخرج البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال :

« رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة بن الأكوع فقلت : ما هذه الضربة؟ قال : ضربة أصابتنى يوم خيبر، فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت رسول الله ﷺ فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة » .

وأخرج النسائى والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأخرجه البرهان الحلبى من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجى فى شرح « الشفاء » : فلم يبق فيه شبهة :

عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا أعمى قال :

يا رسول الله . . ادع الله لى أن يكشف عن بصرى . فقال له رسول الله ﷺ : انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى اللهم شفعه فى . فما قام القوم من مجالسهم إلا ورجع الرجل وقد أبصر وكان عثمان بن حنيف وبنوه يعلمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى » .

وأخرج ابن عدى وأبو يعلى والبيهقى من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة عن جده قتادة بن النعمان : « أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال : لا . . فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت » .

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله : « براحته » وقال : « اللهم اكسه جمالا » وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن عين قتادة ابن النعمان أصيبت فسالت على خده فردها رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه » .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم والطبراني من طرق : أن عين قتادة أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردها ﷺ فكانت أحسن عينيه .

ولفظ رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهما ندرت سنه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال :اللهم ق عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظرا . . فصارت كذلك .

والظاهر أن إحدى عينيه أصيبت في بدر والأخرى في أحد .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن الوازع قال : قدمت على رسول الله ﷺ والأشج في ركب ومعنا رجل مصاب فقلت : يا رسول الله . إن معي خالا مصابا فادع الله له . قال : ائتني به، فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض إبطيه ثم ضرب ظهره وقال : اخرج عدو الله . فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له، ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه .

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسند حسنه ابن حجر في « المطالب العالية » عن أسامة بن زيد قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى الحجة التي حجها حتى اذا كنا ببطن الروحاء نظر الى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت : يا رسول الله . . هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته الى يومي هذا، فأخذه رسول الله ﷺ منها ووضعه بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل في فيه وقال : اخرج يا عدو الله فإني رسول الله . ثم ناولها إياه وقال : خذيه فلا بأس عليه، قال أسامة : فلما قضى رسول الله ﷺ حجه انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي والطبراني وأبو نعيم من طريق سليمان ابن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت :

رأيت رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس – أى جنون – قالت : يا رسول الله . . ابنى هذا به بلاء لا يتكلم، فأمرها النبى ﷺ فجاءت بتور – إناء من حجارة فيه ماء – فأخذه ﷺ بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسليه فيه . قالت : فتتبعتها فقلت : هبى لى من هذا الماء . قالت : خذى منه، فأخذت منه حفنة فسقيتها ابنى عبد الله فعاش فكان من يره ما يشاء الله أن يكون قالت : ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وأنه غلام لا غلام خير منه . ولفظة أبى نعيم : برأ وعقل عقلا ليس كعقول الناس .

وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة جاءت بابن لها فقالت : يا رسول الله . . إن بابنى هذا جنونا وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى .

وأخرج الحاكم عن أبى بن كعب قال :

كنت عند النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : يا نبى الله إن لى أخا به وجع . قال : وما وجعه؟ قال : به لمم – أى جنون – قال : فائتنى به . فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبى ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين :

﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ . . وآية الكرسى وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ وآية من الأعراف : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ** ﴾ وآخر سورة المؤمنون : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ وآية من سورة الجن ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا** ﴾ وعشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر و ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئا قط .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد فى الزوائد بسند حسن .

* * *

(٧)

ومعجزة أخرى متواترة النقل نقدم لها بما يلى :

لقد صعد الانسان الى ارتفاعات كبيرة فى هذا القرن، ولكن رغم هذا فإنه باق ضمن إطار معين محدود فى السرعة والزمان والمكان. فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم الى مجموعتنا الشمسية على ما يقال يبعد حوالى أربع سنين ضوئية، أى لو سار الانسان بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية فإنه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات.

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة، والمعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة، أما العادة فهى خاضعة للأسباب التى جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها.

فقد أسرى برسول الله ﷺ من مكة الى القدس وعرج به الى ما فوق السماء السابعة ورجع بمدة زمنية قصيرة جدا لم تتجاوز دقائق أو سويعات قليلة فكان فى ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى أن محمدا رسول الله ﷺ.

وقد يقول قائل: إن المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغى أن تكون مشاهدة يراها الناس، والإسراء والمعراج لم يرهما أحد وإنما أخبر عنهما محمد رسول الله ﷺ نفسه والإخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس.

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول ﷺ أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الإخبار عنها لو لا أنه أسرى به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس. إذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سألوه دليلا فقدم لهم جوابا عن كل ما سألوه وهذه أمثلة:

١- اخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى مالك عن أنس.. فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر.. هل لك فى صاحبك يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع فى ليلة؟ فقال أبو بكر: إن كان قاله فقد صدق. وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الابل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما

قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: لما كذبتني قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه.

٣- أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى وصححه والبزار والطبرانى وابن مردويه عن شداد بن أوس: « .. فأتانى أبو بكر فقال: يا رسول الله.. أين كنت الليلة، فقد التمستك فى مظانك؟ فقلت: علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة. فقال: يا رسول الله.. إنه مسيرة شهر فصفه، قال: ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شئ إلا أنبأته عنه، قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله . فقال المشركون انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: إن من آية ما أقول لكم أننى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريبا من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله ﷺ.

وليس فى هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول فى القافلة وعليه غرارتان سوداوان.

٤- أخرج أحمد وابن أبى شيبة والنسائى والبزار والطبرانى وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبى. فقعد معتزلا حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ:

هل كان من شئ؟ قال: نعم. قال: وما هو؟ قال: انى أسرى بى الليلة. قال: الى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه اليه قال: أرأيت إن دعوت قومك

أتحدثهم ما حدثتني؟ قال : نعم. قال: هيا معشر بني كعب بن لؤى.. فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ:

إني أسرى بى الليلة. قالوا: إلى أين ؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا قالوا: وتستطيع أن تنعت المسجد؟ وفى القوم من سافر إليه قال رسول الله ﷺ: فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت فجئ بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فنعته وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

٥ - أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه حدث عن ليلة أسرى به.. ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب: أنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى إلى السماء ثم رأيت كذا وكذا، فقال أبو جهل: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ قال: فأخبرهم بعير قريش قال: لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وأنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل: أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس فنظر اليه فقال: بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا.. فقال: صدقت.

٦- وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى قال: بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبى إلى قيصر صاحب الروم وذكر قصة اجتماع أبى سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبى سفيان إلى أن يذكر ما يلى على لسان أبى سفيان:

قلت: أيها الملك.. ألا أخبرك عنه خبرا فعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق ايلياء عند رأس قيصر قال البطريق: قد علمت تلك الليلة.. قال فنظر إليه القيصر وقال: ما علمك بها؟ قال: انى

كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجناه فلم نستطع ان نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع ان نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحا فلما أصبحت غدوت فاذا الحجر الذى من زاوية الباب منقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى وقد صلى الليلة فى مسجدنا، فقال قيصر: يا معشر الروم.. أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيا بشركم به عيسى؟ وهذا هو النبى الذى بشر به عيسى فأجيبوه إلى ما دعا إليه. فلما رأى نفورهم قال: يا معشر الروم.. دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم فى دينكم فشتمتوه وسببتموه وهو بين أظهركم.. فخروا له سجدا.

٧- وأخرج مسلم من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لقد رأيتنى من الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شئ الا نبأتهم به.

* * *

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هى السماء التى عرج إليها رسول الله ﷺ؟

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء فى كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوى لها. وذكر أحيانا السماء وأراد بها المعنى اصطلاحيا له ارتباط بالمعنى اللغوى، ففى اللغة كل ما علاك فهو سماء، قال الله تعالى: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ [الرعد: ١٧] ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فهنا قصد المعنى اللغوى فقط ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ [الشورى: ٥] ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ [الطلاق: ١٢] ذكرت هنا السماء بالمعنى الاصطلاحى.

«إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ليس

فيها موضع أربع أصابع إلا . . . » فالمقصود بالسموات هذه سكن الملائكة، والتى فيها الجنة فى السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، فهذه السموات هى التى عرج إليها رسول الله ﷺ كما سنرى فى الأحاديث بعد قليل. أما أين هى فالله أعلم بذلك. إذ هى من المغيبات عنا، أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هى هذه السموات فهذا خطأ ووهم، إذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فإذا ما ارتفع الإنسان فى الفضاء غابت فهى انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء.

وإذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعا، وعرشا فوقها، أثبتناها بإثبات الله إياها، وإخبار رسول الله ﷺ عنها، ولا نجزم بمكانها وإن كنا نجزم أنها فى جهة فوق بالنسبة لسكان الأرض، ولا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله ورسوله، هذه السموات هى التى كان إليها العروج وهى التى تصعد إليها أرواح البشر وتنزل الملائكة والروح منها.

ويتساءل آخرون: ما الحكمة فى الإسراء والمعراج؟

والحكمة - والله أعلم - تكمن في ناحيتين:

الأولى: أن الله أرى رسوله ما دعا اليه فقد أمر الرسول ﷺ أن يدعو إلى الايمان بالجنة، ورأى الجنة وأن يدعو إلى الإيمان بالرسل ورأى الرسل. صلوات الله وسلامه عليهم، وإلى الإيمان بالملائكة ورأى الملائكة، والى الايمان بالله ورأى آثار قدرة الله وملكوته وقد ذكر الله فى القرآن:

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الاسراء: ١].

الثانية: أن الله يعد رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية. هذه المرحلة تشبه المرحلة التى رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهى مجابهة فرعون.

فقد قال الله عن موسى: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٣-٢٤] إن موسى الذى سيقابل فرعون الطاغية قد هئ بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله، وسيدنا رسول الله ﷺ كان مأمورا بالصبر طوال المرحلة المكية، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل. فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيدا لهذه المرحلة التى سيقف فيها رسول الله ﷺ بالقلة من أصحابه فى وجه الدنيا كلها. قال الله فى أوائل سورة النجم بعد

الحديث عن المعراج: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم: ١٨] ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة.

* * *

وأخيرا بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبدأ بذكر طرف عنها. قال الحافظ السيوطى:

اعلم أن الاسراء ورد مطولا ومختصرا من حديث أنس وأبى بن كعب وبريدة وجابربن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وشداد بن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن أسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن فرط وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبى أمامة وأبى أيوب وأبى حية وأبى الحمراء وأبى ذر وأبى سعيد الخدرى وأبى سفيان بن حرب وأبى ليلى الأنصارى وأبى هريرة وعائشة وأسماء بنتى أبى بكر وأم هانئ وأم سلمة.

وعد الامام القسطلانى فى «المواهب اللدنية» ستة وعشرين صحابيا وصحابية رووا حديث الاسراء والمعراج فهو إذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه فى سورتى الإسراء والنجم وهذه بعض روايات الحديث:

١- أخرج مسلم عن طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق - وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه - فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الانبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء

الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث اليه، ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسي فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع الى بك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم فرجعت إلى ربى فقلت: يا ربى.. خفف عن أمتى، فحط على خمسا فرجعت إلى موسى فقلت: حط عنى خمسا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى حتى قال: يا محمد.. إنهن خمس صلوات بكل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك الخمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه.

٢- وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: مررت ليلة أسرى بى على موسى قائما يصلى فى قبره.

٣- وأخرج احمد وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم وصححاه والنسائى وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن حذيفة أنه حدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ فقال: «ما زايل البراق حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عاد» ولفظ ابن مردويه: فأرى ما فى السموات وأرى ما فى الأرض.

٤- أخرج مسلم من طريق مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ فانتهى الى سدرة المنتهى وإليها ينتهى ما يصعد به - وفى لفظ: ما يعرج به - من الأرواح حتى يقبض منها وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض. ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا المقمحات.

* * *

(٨)

وعندما يدعو رسول الله لإنسان فإنك تجد ما دعا له قد تحقق تماما كما دعا، وكثرة الحوادث فى هذا الموضوع تجعل الإنسان على اليقين الكامل أن محمدا رسول الله وأن الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه بقيمة الكلمة التى تخرج من فم رسول الله ﷺ.

وقد قال القاضى عياض فى «الشفاء»: إجابة دعوة النبى ﷺ لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة. وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ إذا دعا للرجل أدركت ولده وولد ولده».

وهذه امثلة منتقاة من عشرات أو مئات الحوادث من نوعها فى كل منها دليل ما قلناه:

١- أخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن على رضى الله عنه قال بعثنى رسول

الله ﷺ الى اليمن فقلت: يا رسول الله.. تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء. فضرب بيده فى صدرى وقال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه. فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين.

٢- أخرج البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن: «بارك الله لك» وأخرجه ابن سعد والبيهقى من وجه آخر وزاد: قال عبد الرحمن: لقد رأيتنى ولو رفعت حجرا لرجوت ان أصيب تحته ذهبا أو فضة.

٣- أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: اللهم استجب لسعد إذا دعاك. فكان لا يدعو الا استجيب.

٤- أخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دعا لى النبى ﷺ فقال: «اللهم فقهه فى الدين» وأخرجه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة: «وعلمه التأويل» فصار حبر هذه الأمة ولا سيما فى علم التفسير.

وأخرج الامام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مسح رسول الله ﷺ رأسى ودعا لى بالحكمة فلم تخطئنى دعوة رسول الله ﷺ.

٥- أخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال:

اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ونحته فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبر النبى ﷺ بما كان منهما فقال ﷺ: لعل الله يبارك لكما فى ليلتكما. قال سفيان: قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

٦- أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: ما على وجه الأرض مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبنى، قلت: وما علمك بذلك؟ قال: إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى فقلت: يا رسول الله.. ادع الله أن يهدى أم أبى هريرة إلى الإسلام، فدعا لها فرجعت فلما دخلت البيت قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى من الفرح كما كنت أبكى من الحزن

وقلت: يا رسول الله.. قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة إلى الإسلام فادع الله أن يحببنى وأمى إلى عباده المؤمنين وأن يحببهم الينا، فقال ﷺ: اللهم حبب هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما. فما أعلم مؤمنا ولا مؤمنة إلا وهو يحبنى وأحبه.

٧- أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم بقوله:

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اقتنينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله. قال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله هلا أمتعتنا به؟ فلما تصاف القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودى فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه. وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه: فقال من هذا القائل؟ قالوا: عامر. قال: غفر لك ربك. قال: وما خص رسول الله ﷺ قط أحدا به الا استشهد، فقال عمر: لو لا متعتنا بعامر؟ أى ما استغفر لإنسان يخصه قط إلا استشهد.

٨- أخرج البخارى عن أبى عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله ابن هشام الى السوق ليشترى الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان: أشركنا فان رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها الى المنزل.

٩- أخرج الشيخان عن أبى بكر رضى الله عنه قال: طلبنا القوم فلم يدركنا منهم غير سراقة بن مالك على فرس له فقلت: يا رسول الله.. هذا الطلب قد لحقنا، قال: لا تحزن إن الله معنا. فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله ﷺ فقال: اللهم اكفناه بما شئت. فساخت به فرسه فى الأرض إلى بطنها فقال: يا محمد.. قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب. فدعا له ﷺ فانطلق راجعا.

١٠- أخرج البخارى فى «الأدب» والنسائى عن أم قيس أنها قالت: توفى ابنى

فجزعت فقلت للذى يغسله لا تغسل ابنى بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة بن محصن الى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها فتبسم ثم قال: طال عمرها. فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت.

١١- أخرج البيهقى وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال: سمعت النابغة - نابغة بنى جعدة - يقول: أنشدت رسول الله ﷺ شعرا فأعجبه فقال: جدت.. لا يفضض الله فاك. قال يعلى: فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن.

١٢- أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه الى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.. فمزقوا.

١٣- وروى البيهقى باسناد صحيح أنه ﷺ دعا على الحكم بن أبى العاص وكان يختلج بوجهه - أى يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه - استهزاء بالنبى ﷺ فقال: كن كذلك. فلم يزل يختلج الى أن مات.

١٤- وأخرج مسلم بن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أن رجلا أكل عند النبى ﷺ بشماله فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع قال: لا استطعت - ما منعه الا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه بعد.

* * *

(٩)

عندما تدرس حياة رسول الله ﷺ تجدك دائما أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التى لا دخل لعالم الاسباب فيها، ولا تستطيع أبدا أن تجد تعليلا لما تراه، أو نقل اليك نقلا صحيحا، إلا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم ﷺ ما تقوم به الحجة على الكافر، ويزداد به المؤمن يقينا ويخرج به الشاك عن شكه.

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعا آخر من أنواع معجزاته ﷺ أن نشير مرة ثانية

إلى أن هذه النقول هى أدق نقول تاريخية فى العالم. لأن معايير النقد التى وضعت لاستخراج صحيحها لا مثيل لها أبدا. مع ملاحظة أنها منقولة فى النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر، وقد رباهم رسول الله ﷺ على الصدق، وما كان أحدهم يسكت عن باطل رآه. فلو حدث أن صحابيا أخطأ فى النقل فانهم جميعا كانوا يردون عليه إذا بلغهم خطؤه، وإذن فنحن اذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق إلى ما بين يديه، ولئن كان فى الأخبار المروية عن الرسول ﷺ ما هو ضعيف فالعلة تكمن فى أجيال ما بعد الصحابة والتابعين. وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر ونحن نحاول ألا ننقل إلا ما كان ثابتا بعد النقد وإلا كشاهد. بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار تدور حول معنى واحد، يظهر فيه الإعجاز، وما ننقله فيه غيض من فيض وكثير مما نقلناه مروى بعدة روايات عن عدة صحابة ومخرج فى عدة كتب ولكنا اخترنا رواية من مجموعة روايات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات.

* * *

١- روى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فى قصة حفر الخندق قال: رأيت بالنبى ﷺ خمصا شديدا - وهو ضمور البطن من الجوع - فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة - وهى الصغيرة من أولاد المعز - وفى رواية عن جابر رضى الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاءوا الى النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق فقال: أنا نازل. ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبى ﷺ فضرب فعادت كثيبا أهيل فقلت: يا رسول الله.. ائذن لى إلى البيت فاذن فقلت لامرأتى: رأيت بالنبى ﷺ شيئا ما كان لى فى ذلك صبر، فعندك شئ؟ قالت: عندى شعير وعناق، فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ثم جئت النبى ﷺ والعجين قد اختمر والبرمة بين الأثافى - أى الأحجار التى توضع عليها القدر - كادت أن تنضج وقالت امرأتى: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله.. ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك

– يعنى دون العشرة – وفى رواية: فقلت: طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجلا أو رجلان، وكنت أريد أن ينصرف وحده قال: كم هو؟ فذكرت له: فقال: كثير طيب، قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى. فصاح النبى ﷺ: يا أهل الخندق.. إن جابرا صنع سؤرا فحيهلا بكم – أى هلموا مسرعين – والسؤر الطعام الذى يدعى إليه.

وفى رواية: فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك.. جاء النبى ﷺ بالأنصار والمهاجرين ومن معهم. قالت: هل سألك ؟ قلت: نعم. وفى رواية: قال: لقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتى أقول: افتضحت .. جاء رسول الله بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا. وفى رواية: إنها خاصمته فى أول الأمر وقالت: بك بك. فلما أعلمها بأنه أعلم النبى ﷺ سكن ما عندها وقالت: الله ورسوله أعلم. لعلمها بإمكان خرق العادة ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها رضى الله عنها، واسمها سهيلة بنت معوذ الأنصارية.

فقال النبى ﷺ: لا تنزل برمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجئ. وفى رواية قال جابر: فجئت وجاء النبى ﷺ يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد الى برمتنا وبصق فيها وبارك – أى دعا بالبركة – ثم قال لجابر: ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها: اقدحى – أى اغرفى – من برمتكم ولا تنزلوها وهم – أى القوم الذين جاءوا معه – ألف وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا – أى مالوا عن الطعام – وإن برمتنا لتغط – أى لتغلى وتفور كما هى – وإن عجيننا ليخبز كما هو. وفى رواية فقال ﷺ لأصحابه: ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا أجمعين والتنور والقدر أملأ ما كانا فقال: كلى واهدى. فلم نزل نأكل ونهدى يومنا أجمع. وفى رواية: فأكلنا وأهدينا لجيراننا فلما خرج ﷺ ذهب ذلك.

٢– وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول

الله ﷺ فى غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبى الله ﷺ فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع فتطاولت لأحرزكم هو فحرزته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حت شبعنا جميعا ثم حشونا جرباننا ثم قال رسول الله ﷺ : هل من وضوء؟ فجاء رجل بإداوة له فيها نطفة ماء فأفرغها فى قدح فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة.

٣- وأخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله.. لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال عمر: يا رسول الله.. إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك الخير. فقال رسول الله ﷺ: نعم. فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ويجئ الآخر بكف تمر ويجئ الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شئ يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم: خذوا فى أوعيتكم. فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة. وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقى وأبو نعيم عن أبى عمرة الأنصارى رضى الله عنه وأخرجه ابن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلفظ:

خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلت: يا رسول الله.. خرج إلينا الروم وهم شباع ونحن جياع وأرادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم. فنادى فى الناس: من كان عنده فضل من زاد فليأتنا. فحزرنا جميع ما جاءوا به فوجوده سبعة وعشرين صاعا فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال: أيها الناس.. خذوا ولا تنتهبوا. فأخذوه فى الجرب والغرائر حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه حتى صدروا وإنه نحو ما كان يحزرون، فقال النبى ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يأتى بهما عبد بحق إلا وقاه الله حر النار.

٤- وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد

سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع فهل عندك من شئ؟ قالت: نعم.. فأخرجت أقراصا من شعير ثم ذهبت الى رسول الله ﷺ فقال: أرسلك أبو طلحة؟ قلت: نعم. فقال من معه: قوموا.. فجئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم.. قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم. قالت: الله ورسوله أعلم. فدخل رسول الله ﷺ فقال: هلمي ما عندك يا أم سليم. فأتت بذلك الخبز، فأمر به ففت وعصرت عليه عكة لها فأدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال: ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلا أو ثمانون. وأخرجه مسلم من عدة طرق وفى بعضها: ثم أكل رسول الله ﷺ وأهل البيت وافضلوا ما بلغ جيرانهم. وفى بعضها: فقال: بسم الله عظم فيه البركة.

٥- وأخرج الدارمى وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقصعة فيها طعام فتعاقبوها الى الظهر منذ غدوة يقوم قوم ويقعد آخرون فقال رجل لسمرة: هل كانت تمد؟ قال: ما كانت تمد إلا من هاهنا - وأشار إلى السماء.

٦- وأخرج البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قال: كنا مع النبى ﷺ ثلاثين ومائة فقال: هل مع أحد منكم طعام؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشترى منه شاة فأمر بها فصنعت وأمر رسول الله ﷺ بسواد البطن أن يشوى قال: وأيم الله ما من الثلاثين ومائة الا وقد حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها إن كان شاهدا أعطاه وإن كان غائبا خبأ له قال: وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير.

٧- وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: دعانى النبى ﷺ فقال: انطلق إلى المنزل فقل: هلموا الطعام الذى عندكم. فأعطونى صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لى: ادع أهل المسجد فقلت فى نفسى الويل لى مما أرى من قلة الطعام، والويل لى من المعصية، فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبى

ﷺ أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال: كلوا بسم الله. فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتها فاذا هى كهيئتها حين وضعتها الا أن فيها آثار أصابع النبى ﷺ .

٨- وأخرج أبو يعلى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم عن قيس بن النعمان رضى الله عنه قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنما فاستقياه اللبن فقال: ما عندى شاة تحلب غير أن ها هنا عناقا حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقى لها لبن. فقال ﷺ: ادع بها. فدعا بها فاعتقلها النبى ﷺ ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب هو ﷺ. فقال الراعى: من أنت.. فوالله ما رأيت مثلك قط؟ قال: محمد رسول الله. قال: أنت الذى تزعم قريش أنه صاب؟ قال: إنهم ليقولون ذلك. قال: فأشهد أنك نبى وأن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى.

٩- وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد كبدى على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على الطريق فمر بى أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى فمر ولم يفعل، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ثم قال: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق. ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لى فدخلت فوجد ﷺ لبنا فى قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان وفلانة، قال ﷺ: أبا هريرة..

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لى. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا فاذا أتته هدية أرسل اليهم فأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك وقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن بشربة أتقوى بها وأنى لرسول فاذا جاءوا أمرنى ﷺ أن أعطيه ما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم فاقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال: أبا

هريرة.. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فاعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح أعطيه آخر فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت الى رسول الله ﷺ وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر إلى وتبسم وقال: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب. فشربت. فقال: اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فأشرب حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة ﷺ.

* * *

وبعد هذا ننتقل الى خاتمة هذا الباب:

تعقيب

إن المعجزة حجة على صحة دعوى الرسالة. غير أن بعض الناس يحاول أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلا على أنه لم تقم عليه الحجة بالمعجزة، والحقيقة أن هنا أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليست كذلك. والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا نقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة:

فى دمشق من بلاد الشام يرى الناس فى حى الأكراد ظاهرة عجيبة هى خروج رجل إنسان من قبر صاحبه، والرجل لم تتغير ولم تتبدل مع أن صاحبها متوفى من مئات السنين، ونسمع كثيرا عن أخبار ناس سحرة يأتون أشياء عجيبة، ونسمع كثيرا عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهنود، والرسول ﷺ أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال فى آخر الزمان ويروى لنا الثقات أن هناك ناسا من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة، فمثلا يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة كراماته تواترا.

فما مقام المعجزة التى تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء؟

كنا ذكرنا فى مقدمة هذه الأبواب أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أى تعلق. على خلاف السحر فإنه علم له قوانينه من

أتقنها ظهر على يده منه، وعلى خلاف الأعاجيب التى تظهر نتيجة الرياضات الروحية. فان ذلك أثر من أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح.

ومن هنا كانت هذه الأشياء فى الحقيقة نتائج عادية لمقدسات خاصة، أما معجزة الرسول ﷺ فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كونى وسبب، أما الخارقة للعادة التى تظهر على يد رجل صالح، فهى مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة.

ولكنها فى العادة لا تكون إلا على يد إنسان متمسك بحبل رسول الله ﷺ فهى أثر من آثار اتباع الرسول. فهى كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول. لأنه لو لا اتباعه للرسول ما أظهر الله علي يديه مثل هذه الخوارق، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة، والكرامة تظهر تأييدا لصاحب الرسالة على يد إنسان متبع للرسول.

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة إلا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله.

إن سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد إنسان كذاب فى دعوى الرسالة عنه، وهنا سر الفرق الحقيقى بين المعجزة وكل خارقة أخرى.

فصاحب الكرامة لا يدعى الرسالة، ولذا فان ظهورها على يده لا يجعل فى الأمر التباسا، خاصة وهو متبع لرسوله متمسك بشريعته.

وأما المسيح الدجال فليس يدعى الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييدا لها حاشا، ولكنه إنسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر إذ يدعى الألوهية ويظهر معه شئ من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشرى مسئولا، إذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الإنسان لا يمكن أن يكون هو الله. فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد، ولا يلتبس ما يظهر على يده بالمعجزة التى تقوم بها الحجة، لأنه لا يدعى الرسالة أصلا، ولو كان يدعى الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق.

وإذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو فى الحقيقة من هذا النوع.

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة.

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة، والكرامة إذا خرجت من أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة قائمة على البشر بها.

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها.

وأخيرا وقد انتهى هذا الباب.

نقول:

إن إنسانا يرى معجزة المعجزات بين يديه «القرآن» ثم لا يؤمن بأن محمدا رسول الله، أعمى القلب والعقل.

وإن إنسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليه السلام ثم لا يؤمن به، مظلم الوجدان والضمير.

وان إنسانا مثل هذا ليقولن في يوم:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠-١١].

* * *

وإلى الباب الثالث لنرى برهانا آخر على أن محمداً رسول الله ﷺ.

* * *

الباب الثالث

النبوءات

إن المستقبل مجهول للإنسان، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التى تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج، وحتى فى هذه فمهما أوتى الإنسان من صدق الحدس، وقوة الادراك، فان كلامه يبقى من باب التوقعات التى يمكن ألا تقع ، أما فى حالة عدم وجود المقدمات التى تؤدى الى النتائج . فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التوهمات، ووقوعها فى هذه الحالة من قبيل المصادفات، وعدم وقوعها هو الأصل، لقد تنبأ اليهودى الشيوعى الخبيث «ماركس» أن الثورة الشيوعية ستكون فى ألمانيا وانجلترا، وكان يستبعد أن تقوم فى روسيا فكانت فى روسيا لملابسات خاصة ولم تكن فى ألمانيا وانجلترا.

فإذا ما وجدنا ظاهرة عند انسان، هذه الظاهرة هى انه تحدث عن المستقبل حديثا ما خرمه المستقبل، ولا فى جزء من أجزائه، فنحن إذن أمام ظاهرة تحتاج الى تحليل وتعليل، وليس كلامنا هنا إلا فى حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءة الثابتة، فليس كلامنا إذن فى التوقعات، وليس كلامنا فى التكهنات الكهنية التى يكذب الواقع عشرات منها، وليس كلامنا فى النبوءات المدعاة التى يدعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها . والحقيقة أنها قيلت بعده، وليس كلامنا فى أمر بيت فتنبأ بوقوعه بعض من بيته، وليس كلامنا فى إنسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها، وليس كلامنا فى نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام، وليس كلامنا فى نبوءة صدرت عن تابع نبى صديق فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبى.

وإنما كلامنا فى إخبار عن المستقبل المجهول، عن رجل يقول عن نفسه إنه رسول، ويتحقق هذا المستقبل تحققا تاما لا يخرم منه شئ. فتلك إذن نبوة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه.

هكذا يذكرون عن التوراة وهكذا ذكر القرآن ، يقول الله فى القرآن :

﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾

[الجن : ٢٦-٢٧]

ويذكرون عن التوراة : « فإن أحببت وقلت فى قلبك كيف استطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهذا الرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه » . الباب الثامن عشر من كتاب الاستثناء : التثنية : ٢٢ .

وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد ﷺ تجعلك على مثل الشمس مبصرة . أن محمدا رسول الله ﷺ وانه لا ينطق عن الهوى والذى نعرضه هنا فى هذا الباب قليل من كثير نجتزئ به حتى يأخذ الانسان صورة واضحة المعالم عن هذا الموضوع ومن اراد التوسع فعليه بالكتب التى استقصت هذه الأبحاث، وسترى فى الأمثلة التى سنذكرها نبوءات عن حوادث معينة لأشخاص معينين ونبوءات وقعت قديما وأخرى نراها الآن . ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للأمة الاسلامية أو بينها قريبا من حياة الرسول ﷺ أو بعيدا وهذه هى الأمثلة فتأملها :

١- روى البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : صعد النبى ﷺ أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان .

وهذه نبوءة فيها أن عمر وعثمان يستشهدان . وقد قتل عمر أبو لؤلؤة، وقتل عثمان فى الفتنة المعروفة .

٢- وفى الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى موسى الأشعرى : « أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقال : لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومى هذا فجاء المسجد فسأل عن النبى ﷺ فقالوا : خرج وجه هاهنا . فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر « أريس » فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ فقمت إليه فاذا هو قد جلس على بئر « أريس » وتوسط قفها - حافة البئر - وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب

فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر.

فقلت على رسلك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله.. هذا أبو بكر يستأذن.

فقال: ائذن له وبشره بالجنة. فاقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى ﷺ وكشف عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا - يريد أخاه - يأت به، فاذا انسان يحرك الباب فقلت: من هذا؟

قال: عمر بن الخطاب.

فقلت: على رسلك.

ثم جئت الى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت: هذا عمر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة. فجئت عمر فقلت: أذن ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ فى القف عن يساره ودلى رجليه فى البئر ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا - يعنى أخاه - يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك وجئت النبى ﷺ فأخبرته فقال:

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه. فجئت فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك. وفى رواية أخرى قال: اللهم صبرا. فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس وجاههم من الشق الآخر».

فهذه نبوءة فى أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى هى ما حدث له فى الفتنة التى أدت الى قتله عليه الرضوان، ومما يرشح هذا المعنى ما رواه ابن عبد البر فى «الاستيعاب» عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«ادعوا لى بعض أصحابى. فقلت: أبو بكر؟ قال: لا. فقلت: عمر؟ قال: لا. فقلت: ابن عمك على؟ قال: لا. فقلت: عثمان؟ قال: نعم. فلما جاء قال لى بيده

فتنحيت فجعل رسول الله ﷺ يساره ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له: ألا تقاتل؟ قال: لا. إن رسول الله عهد إلى عهدا وأنا صابر نفسى عليه».

٣- روى الشيخان عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان - وهى من خالاته فى الرضاع - فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة ابن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر، ملوكا على الأسرة.

قالت: فقلت: يا رسول الله.. ادع الله أن يجعلنى منهم. فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك.

قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله.. كما قال فى المرة الأولى.

قالت: يا رسول الله.. ادع الله أن يجعلنى منهم.

قال: أنت من الأولين.

وقد غزا معاوية بن أبى سفيان قبرص فى سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت، وكانت مع عبادة زوجه أم حرام بنت ملحان.

٤- أخرج الشيخان أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوما: أيكم يحفظ ما قال رسول الله ﷺ فى الفتنة التى تموج كموج البحر؟ فقال حذيفة رضى الله عنه: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا. قال: أيفتح أم يكسر؟ قال: يكسر. قال: إذن لا يغلق أبدا. فقيل لحذيفة: من الباب؟ قال: هو عمر. قيل له: أكان عمر يعلمه؟ قال: نعم، كما يعلم دون غد الليلة إنى حدثته حديثا ليس بالأغاليط.

وأخرج الطبرانى عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم - يعنى عمر.

ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد. وكلنا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر. أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين، وإنما كفر بالإسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة.

٥- وأخرج الشيخان عن مسلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: كان على تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر وكان رمدا فقال:

أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ، فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التى فتح الله فى صباحها قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه. فإذا نحن بعلى وما نرجوه فقالوا: هذا على. فأعطاه الراية ففتح الله عليه.

ووردت القصة أيضا من حديث ابن عمر وابن عباس ومسعد وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وعمران بن حصين وجابر وأبى ليلى، أخرجها كلها أبو نعيم.

٦- أخرج البخارى عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ للحسن: إن ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة، وحقن دماء المسلمين.

٧- وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت: «لعلك تخلف - أى تعيش - حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون» فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى الله به أناسا أسلموا على يديه وغنموا معه. وأضر الله به ناسا من الكفار جاهدهم وقتل منهم وسبى.

٨ - وأخرج الشيخان عن أبى سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية». قال الحافظ السيوطى: هذا الحديث متواتر من الصحابة بضعة عشر.

ففى الحديث ثلاث نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عمارا سيقتل قتلا، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان هذا إذ قتلته فئة معاوية ولم يكن بجانبها الحق، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب على بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له فى كونه على الحق.

٩- أخرج البخارى عن عدى بن حاتم قال: بينما أنا عند النبى ﷺ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة وأتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: يا عدى بن حاتم.. ان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله - قلت فيما بينى وبين نفسى فأين ذعار طئ الذين سعروا البلاد - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى ابن هرمز؟

قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد.

قال عدى: قد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة.

قال البيهقى: قد وقعت الثالثة فى زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول:

اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجده فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس.

١٠- أخرج الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينا نحن عند النبى ﷺ وهو يقسم قسما اذ أتى ذو الخويصرة فقال: يا رسول الله.. اعدل. قال: ويلك.. ومن يعدل إذا لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. قال عمر: يا رسول الله.. ائذن لى فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة - أو مثل البضعة - تدر در يخرجون على خير فرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعته.

وأخرج مسلم عن عبيدة قال: لما فرغ على من أصحاب النهر قال: ابتغوا فيهم

أن كانوا القوم الذين ذكر رسول الله ﷺ فان فيهم رجلا مخدج اليد فابتغياه فوجدناه فدعوناه اليه فجاء حتى قام عليه فقال: الله أكبر - ثلاثا - والله لو لا أن تبطروا لحدثتكم بما قضى الله على لسان رسول الله ﷺ لمن قتل هؤلاء، قلت: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: أى ورب الكعبة - ثلاث مرات.

١١- أخرج مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها قالت للحجاج: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى ثقيف كذابا ومبيرا» فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه. وقد روى ابن سعد والبيهقى عن عمر ما يشير إلى الحجاج، وكذلك روى الإمام أحمد والبيهقى عن الحسن ما يشير إليه، وأخرج البيهقى عن على كذلك ما يشير إليه.

١٢- وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله.

وأخرجه البخارى عن أبى هريرة.

وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن أبى محيريز قال: قال رسول الله ﷺ: فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعد هذا أبدا، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن.

ومعروف تاريخيا أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماما ولم يستردوا ملكهم بتاتا وبقى من يومها الأمر للمسلمين، وبسقوط دولة القياصرة فى القسطنطينية انتهت دولتهم تماما ولم يستردوها مرة ثانية وبقى من يومها الأمر للمسلمين، مع ملاحظة أن الدولة الرومانية طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين سقوطا نهائيا، على عكس الدولة الفارسية وهذا ما أشار إليه الحديث الثانى.

١٣- وأخرج أبو داوود والترمذى عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة، ثم تصير ملكا عضوضا بعد ذلك. وهكذا وقع خلافة أبى بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوما، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة

أيام، وخلافة عثمان إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما، وخلافة على أربع سنين وعشرة أشهر أو تسعة، وخلافة الحسن ستة أشهر فكانت ثلاثين.

والحديث الذى رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل واضح عن مراحل الحكم فى الأمة الإسلامية، كما وقعت ونثبت هنا نص الحديث كما ورد فى كتاب «الموافقات» و «الإمامة»:

«أن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكا عاضا فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى، ويلقى الاسلام بجرانه فى الارض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر الا صبته مدرارا، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا الا أخرجته».

وواضح أن الدور الأول والثانى انتهى بزوال الخلافة الراشدة، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية، وأن الدور الرابع هو الذى نحن فيه وأن الدور الخامس قادم باذن الله.

١٤- وأخرج مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما» والمقصود بالرحم أنهم أخوال إبراهيم ابن السيد الرسول ﷺ، إذ المقصود فى ذلك أرض مصر والآثار فى الأخبار عن فتح مصر كثيرة.

١٥- وأخرج البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: وعدنا رسول الله ﷺ غزو الهند وقد غزوناها.

١٦- روى الستة إلا النسائى عنه عليه الصلاة والسلام:

«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر. ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة» وينطبق الوصف تماما على التتار، أما أصحاب نعال الشعر فقد ذكر البيهقى: أن قوما من الخوارج خرجوا بناحية الرى وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا.

١٧- أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج رضى الله عنه قال: كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله: أنه أوقع بالترك وهزمهم، فغضب معاوية من ذلك ثم كتب له: لا تقاتلهم حتى يأتيك أمرى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم - وهما نبتان يوجدان فى بلاد العرب وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب الا مناطق الصحراء.

١٨- روى البخارى: «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله».

وفى حديث ابن الزبير:

«بين يدى الساعة ثلاثون كذابا».

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد: «سيكون فى أمتى كذابون دجالون سبعة وعشرين، أربعة نسوة، وإنى خاتم النبيين لا نبى بعدى».

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكذابين حتى الآن ولعل أبرزهم فى عصرنا غلام أحمد القاديانى الذى ادعى أنه نبى نسخت به شريعة محمد ﷺ ومن هذه السلسلة الخبيثة مسيلمة، والأسود العنسى وسجاح.

١٩- روى البخارى والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى». وروى ابن أبى شيبة وأحمد والحاكم وصححه عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ليت شعرى متى تخرج نار من جبل وراق تضيء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار. ويبدو أن الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول ﷺ.

وقد وقع هذا.

قال النووى: تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام قال السمهودى وكانت فى زمنه: وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة. لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها، واشتدت فى يوم الثلاثاء وظهرت ظهورا عظيما ثم فى ليلة الأربعاء ثالث الشهر، فى الثلث

الأخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جدا أشفق الناس منها واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم إلى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع فى يوم واحد دون ليلته ثمانى عشرة حركة.

وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار وقد وصف القسطلانى فى كتاب أفرده لهذه الحادثة هذه النار فقال:

«إن ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة، ولونها هى يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف».

وقال القسطلانى كذلك: «إنها لم تزل مارة على سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى، وإن طرفها الشرقى آخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت، وإن طرفها الشامى وهو الذى يلى الحرم اتصل بجبل يقابله يقال له: وعيرة على قرب من شرقى جبل أحد».

وقد ذكر هذه النار السمهودى فى تاريخ المدينة، وذكرها القاضى سنان والقاشانى والعماد بن كثير والمطرى وغيرهم..

٢٠- وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان».

٢١- روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتى من أهل النار لم أرهما بعد. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت. وكذا...».

وروى الامام أحمد والحاكم عن ابن عمر:

«يكون فى آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبواب المساجد. نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف. العنوهن فانهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم».

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء فى زماننا من تبرج وعرى ونتن وميوعة وفتنة، هو ما وصفهن به الحديث الشريف، وهذا لا شك معجزة واضحة، اذ ما كان

أحد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة فى مثل هذه الحالة التى عليها الآن، حتى أنك لو كنت فى بداية هذا القرن الرابع عشر الهجرى لما استطعت أن تتصور بشكل من الأشكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة.

٢٢- أخرج أبو داوود والبيهقى عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها - فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت. والمراقب لوضع المسلمين منذ ظهور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هذه الظاهرة ظاهرة طمح الأمم بالعالم الإسلامى والكيد له والتخطيط لامتصاص خيراته واضحة جدا مع ما وصف به رسول الله المسلمين.

٢٣- أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» وقد مر على الأمة الإسلامية مئات السنين واجتاح الطاعون كثيرا من بلاد الإسلام فى كثير من الأعصار. والمدينة المنورة يأتيها فى كل سنة مسلمون من كل الأمصار وما حدث ولن يحدث باذن الله أن رؤيت مرة ظاهرة انتشار الطاعون فى المدينة، وهذا شئ معروف مأثور متعارف عليه عند علماء الإسلام.

٢٤- وهذه جملة أحاديث تراها فى عصرنا هذا واقعا يتحرك أمامك:

«أن بين يدى الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو الظلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق».

«يأتى على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم، ولا يوقر فيه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضا على الدنيا، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا يمسى الصالح فيه مستخفيا أولئك شرار خلق الله لا ينظر الله إليهم يوم القيامة».

«لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عارا ويكون الاسلام غريبا، وحتى تبدو الشحناء بين الناس، وحتى يقبض العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البشر وينقص

السنون والثمرات ويؤتمن التهماء، ويتهم الأمناء، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق، ويكثر الهرج – وهو القتل – وحتى تبنى الغرف – أى القصور – فتطاول وحتى تحزن ذوات الأولاد – أى لعقوق أولادهن – وتفرح العواقر ويظهر البغى والحسد والشح ويهلك الناس ويكثر الكذب ويقل الصدق وحتى تختلف الأمور بين الناس ويتبع الهوى، ويقضى بالظن ويكثر المطر ويقل الثمر ويغيض العلم – أى علم حقيقة الاسلام – غيضا، ويفيض الجهل فيضا، ويكون الولد غيظا والشتاء قيظا، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقى لشرار أمتى، فمن صدقهم بذلك ورضى به لم يرح رائحة الجنة».

وأخيرا نقول:

إن هذا الباب قد ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيه الكثير الكثير، وهو قليل بالنسبة لما ذكره الرسول ﷺ للصحابة عن المستقبل، فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك الى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وقد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون منه الشئ قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه».

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصارى قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن الى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا».

إنها النبوة ولا شئ غير ذلك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

[الكهف: ٢٩]..

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

[يونس: ١٠٨].

النبوة التى دلتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصاحبها صلة كاملة بالله، ولو لا

ذلك ما ظهر فى كلام صاحبها آثار علم الله المحيط فى الماضى والحاضر، وكأنما المستقبل أمامه مكشوف يكشف الله له.

وهذه آثار أخرى عن رسول الله ﷺ لا تحتاج الى شرح لوضوح انطباقها على وضع أمتنا فى هذا العصر، فكأنما قيلت فيه عنه وهى مسطورة فى كتب الأخبار عنه عليه السلام من مئات السنين نقلناها من كتاب «مطابقة الاختراعات العصرية للأحاديث النبوية»، وقد نسب صاحبه كل حديث الى مصدره ومرجعه من كتب الحديث:

١- «لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم».

٢- «ولن يكون ذلك - أى من قضية الدجال - حتى تروا أمورا يتفاقم شأنها فى نفوسكم وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرا».

٣- «لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة الى الشام يبتغون فيها الصحة».

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد كيف أنها مملوءة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجودا من قبل.

٤- «لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرا لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر». ولعل صورة الطائرات فى الحرب العالمية الثانية وهى تمطر المدن بوابل القنابل فتزعزع كل بناء، تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه، إذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر.

٥- أن الله تعالى قال فى الحديث القدسى:

«أبث العلم فى آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقى عليهم».

ومن رأى تسهيل العلم فى زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس وإذاعة وجرائد ومجلات و... رأى مصداق الحديث.

٦- ومن حديث على وله حكم المرفوع:

«ويحا للطالقان .. فإن لله فيه كنوزا ليست من ذهب ولا فضة» والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول.

٧- «تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من أشرار الناس».

ونحن نعلم أن معدن البلاد القريبة من الحجاز فى عصرنا إنما يستخرجه الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفى الحديث الآخر: «ستكون معادن يحضرها شرار الناس» ولاحظ كلمة يحضرها المشددة الضاد.

٨- «ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره».

ومن راى فى زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذى أخبر عنه الحديث.

٩- «ما أنتم إذا مرج الدين وسفك الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان».

وفى زماننا حدث هذا كله: اختلط الدين وكثر القتل وظهرت الزينة وكثر البنيان وشرف وتطاول كما فى حديث آخر «وحتى يطاول الناس فى البنيان».

١٠- «لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عارا ويتقارب الزمان». وقد أصبح القرآن الآن رجعيا وأصحابه يعيرون بالرجعية وتقارب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير.

١١- «كيف بكم أيها الناس اذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم؟ قالوا: يا رسول الله.. إن هذا لكائن. قال: نعم». وقد حدث هذا كما يشاهد واقعا.

١٢- «اذا كثر قراؤكم وقلت علماؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله».

وقد كثر القراء وقل العلماء وكثر الأمراء حتى فى كل قطر أمير وأصبحت الدنيا هدفا ولم تعد معاهد العلم تخرج طلابا لله.

١٣- «إن بين يدى الساعة سنين خداعة يصدق فيها الكاذب وبكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويتكلم فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الفاسق يتكلم فى أمر العامة».

«سيأتى على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطلق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه ينطق فى أمر العامة».

«والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت. قالوا: يا رسول الله.. وما الوعول وما التحوت؟ قال: الوعول: وجوه الناس وأشرافهم، والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم».

«وكان زعيم القوم أرذلهم».

ومن رأى واقع السنين التى نعيش بها علم مصداق هذه الآثار اذ تسلط على الناس فى كل مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطا وتفاهة، وضاع أصحاب الحلوم والعقول.

١٤- «سيكون بعدى سلاطين، الفتن على أبوابهم كمبارك الابل لا يعطون أحدا إلا أخذوا من دينه مثله» ولعل كلمة: «كمبارك الابل» أبلغ وصف مفهوم يومئذ للسيارات.

١٥- «يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع اليه قوم محلقة أقفيتهم بيض قمصهم فإذا أمرهم بشئ حضروا».

فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التى يلبسها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديما.

١٦- «والمشى بالأسواق والأفخاذ بادية». وهذا ينطبق على ما يسمى فى زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات.

١٧- «قص اللحية» وقد أصبح الآن السائد واللحية مستغربة.

١٨- «لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل، ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبرا فشبر وإن ذراعا فذراع، وإن باعا فباع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه». ومن رأى كثرة تقليدنا للغربيين فى أى مسلك سلكوه شاهد يقينا وقوع الحديث.

١٩- ومما رواه معاذ فى أشراط الساعة:

«ان الدم يسفك بغير حقه، والمال يعطى على الكذب». وترى المال يعطى على الكذب فى صورة إعطائه لرجال المباحث السياسية على تقارير، قسم كبير منها كاذب، ولكتاب روايات مختلقة، وإعداد برامج إذاعية مختلقة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل.

٢٠- «ويح لهذه الأمة.. ماذا يلقى فيها من أطاع الله كيف يكذبونه ويضربونه أنه أطاع الله من أجل أنهم ما أطاعوا الله - قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله.. الناس يومئذ على الاسلام؟

قال: نعم يا عمر.

قال عمر: يا رسول الله.. الناس يومئذ عل الاسلام؟

قال: نعم يا عمر.

قال عمر: يا رسول الله.. ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله؟

قال: ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرج النساء.. زيهم زى الملوك الجبابرة يسمنون كالنساء فاذا تكلم أولياء الله وأمروهم بطاعة الله قيل له: أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تكذب بالكتب، تحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله».

ومن عرف وضع الأمة الاسلامية اليوم رأى كيف أن الدعاة الى الله وشريعته يضطهدون فى كل مكان من قبل الحكام الظالمين.

٢١- «ستكون فتنة يفارق الرجل فيها أخاه وأباه، تطير الفتنة فى قلوب الرجال منهم الى يوم القيامة حتى يعير الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانية بزناها».

وما رؤيت هذه الفتنة فى العالم الإسلامى إلا هذا العصر الذى فيه يلام الرجل

على صلاته ويوبخ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخول أصحابها فيها واستمرارهم عليها مع بطلانها.

٢٢- «يأتى على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور».

٢٣- «سيخرج قوم فى آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم فاياكم وإياهم لا يفتنونكم».

٢٤- «إذا كنت فى قوم عشرين رجلا أو أقل أو أكثر فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلا يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد حضر».

٢٥- «لا تقوم الساعة حتى يفيض المال فيضا، ويغيض الكرام غيضا، ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم».

٢٦- «سيأتى على الناس زمان تمات فيه الصلوات، ويشرف فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا وتباع الآخرة بالدنيا. فإذا رأيت ذلك فالنجا والنجا. قيل: وكيف النجا؟ قال: كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك».

٢٧- «ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه».

٢٨- «إنى لأعلم أهل دينين من أمة محمد - ﷺ - فى النار: قوم يقولون إن كان أولنا ضلالا ما بال خمس صلوات فى اليوم والليلة إنما هما صلاتان: العصر والفجر».

والذى يعرف شيئا عن طائفة الاسماعيليين يدرك صدق الحديث فإنهم يؤمنون أن عليهم صلاتين فقط صباحا ومساء.

٢٩- «سيظهر شرار أمتى على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كما يستخفى فيكم المنافق اليوم».

٣٠- «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف» وهذا واقع الآن بشكل واضح.

٣١- «إنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

٣٢- «لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر».

٣٣- «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة».

٣٤- «يأتى على الناس زمان يصبح الرجل بصيرا ويمسى ما يبصر شعرة» - أى يضل الحق.

٣٥- «إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا».

٣٦- «إن بين يدى الساعة فتنا كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا».

٣٧- «ليت شعرى كيف أمتى بعدى حين تتبختر رجالهم وتمرح نساؤهم، ليت شعرى كيف هم حين يصيرون صفين: صفا ناصبى نحورهم فى سبيل الله، وصفا عمالا لغير الله».

٣٨- «إذا ظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهدوا فى غير سبيل الله فالقائمون يومئذ بكتاب الله سرا وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار».

٣٩- «ذلك أيام الهرج حين لا يأمن الرجل جليسه».

٤٠- قال أبيض - رجل من اصحاب رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة إلا ولها منكم نصيب. قلت: يبادرون يخرجون من الإسلام؟

قال: يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم مى سوادكم، ولكل ملة منهم نصيب. قلت: - أى الوليد راوى الحديث - أى والله لكل ملة منهم نصيب إلا الإسلام فلا نصيب له منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم».

٤١- «من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل».

٤٢- «من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال».

وأنت إذا تأملت هذه الآثار فإنك لا تجد فيها حديثا إلا وتراه أمامك واقعا على الأرض الآن، مما لم يكن موجودا من قبل. حتى أن رائى العين لا يصف بأبلغ من هذا، وإنما كان هذا، لأنه أثر علم الله المحيط الذى اطلع على بعضه محمدا ﷺ فقال ما قال ووقع كل ما قال. وفى ذلك الشهادة الكاملة على أن محمدا ﷺ رسول الله حقا وصدقا لا يمترى فى ذلك الا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه.

إن النبوءات التى اخترناها كلها نبوءات قد وقعت للرسول عليه السلام. ونبوءات أخرى لم يحن وقتها بعد، ومن العجيب أن بعضها مذكور فى الكتب الدينية السابقة على رسولنا عليه السلام. وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوءات السابقة الوحى وأنها من القسم الذى لم يحرف فى الكتب الأولى، وكل تعليل آخر ظاهر الفساد، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفة فى الجزيرة العربية.

والرسول عليه السلام أمى لا يحسن القراءة، ولم تكن هذه الكتب أصلا مترجمة إلى العربية فى ذلك الزمان، عدا عن كون النسخ محدودة جدا لا توجد الا عند رؤساء الدين اليهودى بالنسبة لنسخ التوراة. غير أن بعض هذه النبوءات موجودة فى كتب العهد الجديد التى لا يؤمن بها اليهود أصلا. وليست موجودة عندهم ولم تكن هناك أى صلة بين النصارى ورسول الله ﷺ عدا عن كون الفكر النصرانى لم يكن له أى صدى فى مكة والمدينة. عدا ما ذكر أن ورقة بن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه.

إلا أن اتصال الرسول بورقة كان محدودا ومعروفا ما جرى فيه. وورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الأولى، فليس هناك من تعليل لوجود هذه النبوءات المشتركة إلا وحدة المصدر وهو الوحى.

أبرز هذه النبوءات المشتركة ثلاث:

١- الإخبار عن يأجوج ومأجوج.

٢- الإخبار عن المسيح الدجال.

٣- الإخبار عن نزول عيسى ابن مريم فى آخر الزمان وأنه يقتل الدجال.

فقد أخبر الرسول عليه السلام عن مجئ ناس ذوى عدد هائل سموا باسم يأجوج ومأجوج الى منطقة فى فلسطين قبيل قيام الساعة، وأخبر عليه السلام بأحاديث متواترة عن ظهور إنسان سماه المسيح الدجال يدعى الألوهية وهو أكبر ما فتن به البشر، وأن المسيح عليه السلام يقتله بعد نزوله.

وقد ذكر فى كتاب المشاهدات الباب ١٩ وفى الباب الثانى من الرسالة الثانية الى أهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان:

«أن عيسى - عليه السلام - سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله».

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام فى كتب العهد القديم أنه أخبر عن خروج يأجوج ومأجوج فى الزمن المستقبل وإهلاكهم حين وصولهم إلى جبال إسرائيل ثم عقب على ذلك فى الكتاب المنسوب إليه فى الباب التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة:

«ها هو جاء وصار يقول الرب الإله هذا هو اليوم الذى قلت عنه» إشارة إلى يوم القيامة.

إن هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد بن عبد الله ويجعلنا على اليقين الذى لا شك معه، أن ما قاله عليه السلام هو الحق الذى لا يمترى فيه.

ملاحظة: قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك فى القرآن، ولكن التفصيلات التى ذكرناها عن الرسول ﷺ آنفا توضح وتبين الآيات القرآنية، ومن عجيب الأخبار ما ذكره لنا الأستاذ محمد الصواف عن رجل سعودى سماه لنا كان فى الصين وأخبره هذا الرجل وهو معروف فى الحجاز: أنه عندماكان فى الصين أخبره الصينيون أن عندهم قبيلتين معروفتين تسميان مأجوج ويأجوج وتسميان بهذا الاسم الآن وهما مشهورتان به.

* * *

الباب الرابع

الثمرات

إن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام تختلف عن أى دعوة أخرى من دعوات البشر المنبتة عن هداية الله، ولذلك كان شيئا عاديا تماما أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها، فاذا كان ثمار الدعوات الأخرى الإغراق فى الشهوات والملذات الحيوانية، فان من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس إلا عن المتع المعقولة.

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف. فانه شئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا، واذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدما على الأخلاق، فشئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل إعتبار الجمال فى الأخلاق الكريمة العالية.

والقصد من هذا أن نقول:

إن الفطرة تحس بالخير والشر، وإن فطرة الانسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة، كما يستشعر ذوق الانسان حلاوة الثمرة الطيبة، وإن فطرة الانسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة، كما يستشعر ذوق الإنسان مرارة الثمرة الرديئة.

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب، وأن ترى فى آثار كل ما يدل على صدق الأول وادعاء الثانى.

وقد أشارت الكتب السماوية الى هذا المعنى.

فقال الله تعالى فى القرآن:

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ويذكرون فى انجيل متى الباب السابع الفقرة (١٥-١٦) على لسان المسيح قولـــه:

« احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم، هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا».

ويقول الله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩].

ويذكرون فى الباب الثالث عشر من انجيل متى الفقرة (٣١-٣٢) على لسان المسيح عليه السلام:

« قدم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله. وهى أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها».

يعرف النبى من ثماره، لذلك كان لابد من كتابة هذا الفصل لتبيان أن ثمار محمد عليه السلام لا يمكن أن تكون إلا ثمار نبى.

وسنستعرض فى هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام. فى كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوة الطيبة العطرة المتميزة.

أولا: التوحيد:

فى الهند ٢٠٠ مليون بقرة، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة، وبالتالى فانهم لا يستفيدون منها بتاتا، ويحرمون ذبحها، وأكثر من هذا فان الشعب الهندى كله مسخر لخدمتها، وتعيش على حسابه، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار الى مراع وطعام؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى.

وزيادة على ذلك فان لهذا البقر سلطانا على كل شئ. تقف البقرة فتوقف

وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضى هى فيمضى غيرها. وتبول فى أى مكان وتخشى فى أى مكان. وتعتدى على مال أى إنسان، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشئ. وفى الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين، ترى لو استفاد الشعب الهندى من البقر ألا تنحل شئ من أزمته؟

إن هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخرا لخدمة البقر.

وفى مصر أهرامات ضخمة جدا، أحجارها ضخمة جدا، نقلت من أمكنة بعيدة جدا، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصرى إلى منطقة الأهرامات، وتعبت فى بناء هذه الأهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الأيدى من أجل ماذا؟

من أجل أن يصنعوا قبرا لفرعون الذى كانوا يعبدونه كإله!!

فكم أنفق من جهد، وكم أنفق من أموال؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك.

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر.

وفى العالم اليوم حوالى ثلاثة عشر مليونا من الطائفة الإسماعيلية، التى تعبد رجلا كإله وتقدم له كل عام خمس أموالها، تجعله فى كفة ميزان، وتجعل الذهب فى كفة أخرى حتى يتساويا، وتقدمه له كهدية سنوية، ثلاثة عشر مليونا من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية. ليجهدوا ويقدموا، أما هو فيأخذ ويكنز وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة وقد يكون المرشح لهذا المنصب داعرا فاسقا ماجنا، ينال هذا كله ويصرفه فى كل سبيل داعر، ذلك أثر من آثار الشرك بالله، أن يستغل فرد من البشر شعبا كاملا من البشر باسم ألوهية الإنسان وعبودية الإنسان للإنسان.

وفى العالم اليوم شعوب وثنية، وقديما كانت الوثنية منتشرة فى العالم كله لم تخل منها أمة من الأمم:

الرومان واليونان والهند والصين واليابان والعرب.. والشعوب الأفريقية من مصر إلى غيرها.. فماذا تعنى هذه الوثنية؟ قبل أن نقول ماذا تعنى نضرب أمثلة عن نماذج منها:

(أ) عند العرب :

١- روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به .

٢- وقال الكلبى : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثا أثافى لقدره وإذا ارتحل تركه .

٣- وقال صاعد فى كتاب « طبقات الأمم » : كانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وتميم الدبران، ولخم وجذام المشترى، وطئ سهيلا، وقيس الشعرى العبور، وأسد عطارد .

٤- وقال الكلبى : كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه، فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا .

٥- وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان فى فناء الكعبة وحدها ثلاثة مائة وستون صنما للعبادة .

٦- قال سعيد بن جبير فى شرح الأزلام : « الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوا أو رواحا كتبوا فى قدحين فى أحدهما : أمرنى ربى وفى الآخر : نهانى ربى، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به » .

(ب) عند الهنود :

يقول أبو الحسن الندوى عن حال الوثنية فى الهند :

« بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس، فقد كان عدد الآلهية فى ويد ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليونا، وقد أصبح الها يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالهات الحصر وأربت على العد . فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله – زعموا – فى عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس « مهاديو » الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات

التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والإجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان».

(جـ) والفرس:

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة، واليونانيون يعبدون إله المطر فلانا وآلهة الحب فلانة وإله الحرب فلانا .. وهكذا ...

فماذا تعنى هذه الوثنيات كلها؟

تعنى أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر، وأقل من الشمس، وأقل من الحيوانات، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها، بل جعلها فى مقام السيد، وجعل نفسه فى مقام العبد الذليل، وجعلها تتحكم به بواسطة وبغير واسطة.

وقال النصارى: إن المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فأصبح المسيح عندهم إلها، كما اعتبر الهنود بوذا من قبل إلها، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها، فأصبحت ديانة وثنية شركية من ناحيتين: من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الإنسان، ونتج عن هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذى عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شئ. فكانت مآسى وفظائع من حجر على العقل، وقتل للأنفس، وسلب للحريات، ومقاومة لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير.

وألحد ناس قديما وألحدوا فى هذا العصر إلا الأقل، فماذا يعنى الإلحاد؟

يعنى الإلحاد أن الإنسان عبد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه، وخلع على الكون كله صفات الألوهية، فالكون يخلق ويرزق، ويعطى ويمنع، ويحيى ويميت، ويتصرف ويعمل، ويرتب ويبدع ويكون، واعتبروا أنفسهم أعظم ما فى هذا

الكون فعبدوا أنفسهم، اعتبروا أن الانسان مصدر التشريع، ومصدر الحاكمية، ومصدر الأمر والنهى. وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شئ فغلبتهم شهواتهم، وظلموا بعضهم، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه الها، وأخيرا اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله إلها يفعل ما يشاء، لا راد لحكمه، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كآلهة، فحدث على يدهم من المآسى ما لم يحدث على يد غيرهم، حتى أنه قتل فى زمان ستالين وحده تسعة عشر مليونا من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتي.

فلم يكن الإلحاد إذن إلا صورة جديدة من صور الشرك، انتقل به الإنسان من الجزئية الى الكلية، ومن الشرك الواضح الى الشرك المقنع، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطى أجزاء منه، وعبد نفسه وتعبد لها بعدما كان يعبد غيره.

ومحمد وحده بوحى من الله، من يوم بعثته إلى قيام الساعة، هو الذى وضع الانسان فى محله الصحيح فعلمه:

١- أن الكون كله، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل، ونباتاته كلها، وأحجاره ومعادنه وكل شئ فيه خلق للإنسان! فالإنسان سيده والإنسان مكرم ومفضل عليه.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾

[لقمان: ٢٠]

ومن حق الانسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها، ومن القمر وما فيه، ومن المريخ وغيره، كل الكون مسخر للانسان والانسان أكرم ما فيه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الاسراء: ٧٠].

٢- وأن الله خالق الكون والانسان، هو وحده الإله المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، المستحق وحده للعبادة، والانسان عبده وحده:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالناس كلهم عباد الله.. رسولهم ونبيهم، وملكهم وخادمهم، وكبيرهم وصغيرهم، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف: ١١٠]

لا إله إلا الله.

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلسا نيابيا يحلل ويحرم كما يشاء، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها.

كل الكون للإنسان، والانسان لله. مقام الإنسان السيادة على المخلوقات، لأنها مسخرة له، والعبودية لله وحده: بنقلة واحدة نقل محمد ﷺ البشر من أحط الدركات الى أعلى الدرجات، وبذلك وجه المسلم، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ﷺ وهي أول ثمرة من ثمار كل نبي ولكن الناس انحرفوا:

مكتوب فى نسخ التوراة الموجودة الآن:

«لو دعا نبى أو من يدعى الالهام فى المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعى وإن كان ذا معجزات عظيمة». الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء، وفى الباب السابع عشر منه:

«لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلا كان أو امرأة».

ومكتوب فى نسخ الانجيل الحالى:

«وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته». انجيل يوحنا الباب السابع عشر – ٣

وفى الباب الثانى عشر من إنجيل مرقص – ٢٨ « فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله : أية وصية هى أول الكل؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد » .

وبهذه النظرة إلى الكون والإنسان، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة، يدفعه فى ذلك عقيدة أن الكون كله للانسان، وعليه أن يستفيد منه، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم الى القمة فى تسخير الكون، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية، ولولا ذاك لما كان فى أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر، بقول « بريفولت » فى كتابه « بناء الانسانية » :

« ما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » .

ويقول فى موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية التى يرجع فيها الفضل الى العرب هى التى أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا » .

ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءا فقط من هدى محمد ﷺ فى هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

إن هذه الثمرة من ثمار محمد ﷺ التى لا يصلح الإنسان إلا بها، ولا يأخذ محله الصحيح إلا إذا اعتقدها، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام فى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لو لا أنه رسول الله حقا . أراد الله به أن ترجع الانسانية عن الإنحراف إلى الاستقامة .

ثانيا : التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الإنسان :

مكتوب فى كتاب أيوب فى الباب الثانى والأربعين منه فقرة (١٧) : « ومات أيوب شيخا معمرا ويبعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب » .

ومكتوب فى انجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (٣٢) :

« وما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن – أى المسيح – إلا الآب – أى الله »، وتعالى أن يكون أبا أو يكون له ولد، وإنما ذكرنا العبارة هنا لنذلل على ذكر يوم القيامة فى كتب العهد القديم والجديد.

ومكتوب فى الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا (١٦) : « وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح . . أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية »؟

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدى للطالحين.

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾

[النساء : ١٦٥]

إن من ثمار محمد ﷺ أنه أخرج بإذن الله وأمره جيلا من البشر لم يعد له همة إلا فى أن ينال رضا الله، وينال سعادة الأبد، ودل البشرية على الطريق الى ذلك. فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة. هذا مع قيام كامل فى أمر الدنيا إصلاحا ورعاية، ولكن كممر إلى الآخرة. وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد ﷺ فى كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

١- أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ – ورق السلم يدبغ به – فى ناحية من الغرفة، وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت : يا نبى الله . . وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته، وهذه خزانتك. قال : يا ابن الخطاب . . أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟

٢- وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت:

«مات أبو بكر رضى الله عنه فما ترك دينارا ولا درهما، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه فى بيت المال».

٣- ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصرى فى عمر بن الخطاب:

«فقالوا: ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار الى زهد هذا الرجل والى حليته؟

لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر، وطرفى المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتى عشرة رقعة. فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ﷺ وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغدى عليه جفنة من الطعام ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار.

فقال القوم بأجمعهم: ليس لهذا القول إلا على بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته، أو ابنته حفصة - فإنها زوجة رسول الله ﷺ وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ -.

فكلموا عليا فقال على:

لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبى ﷺ فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه.

قال الأحنف بن قيس: فسألوا عائشة وحفصة رضى الله عنهما وكانتا مجتمعتين.

فقالت عائشة: إنى سائلة أمير المؤمنين ذلك.

وقالت حفصة: ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك.

فدخلتنا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما.

فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين! أتأذن أكلمك؟ قال: تكلمى يا أم المؤمنين

قالت: إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله. إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده، وكذلك مضى أبو بكر رضى الله عنه على أثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ وقتل المكذبين، وأدحض حجة المبطلين، بعد عدله فى الرعية، وقسمة بالسوية، وارضاء رب البرية، فقبضه الله الى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى. لم يرد الدنيا ولم ترده، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحمل إليك أموالهما ودانت لك أطراف المشرق والمغرب، ونرجو من الله المزيد، وفى الإسلام التأييد، ورسل العجم يأتونك، ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة، قد رقعتها اثنتى عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار؟

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديدا ثم قال:

سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة، وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله؟!

فقالت: لا.

فأقبل على عائشة فقال:

هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرب إليه طعام على مائدة فى ارتفاع شبر من الأرض. كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع؟

قالتا: اللهم نعم.

قال لهما: أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، ولكما على المؤمنين حق وعلى خاصة. ولكن أتيتما ترغبانى فى الدنيا وإنى لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف فربما حك جلده من خشونتها، أتعلمان ذلك؟

قالتا: اللهم نعم.

فقال: هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحا فى بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطا وبالليل فراشا فندخل عليه فنرى

أثر الحصير على جنبه، الا يا حفصة أنت حدثتينى أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال لك: يا حفصة.. ماذا صنعت؟ أثنيت المهاد ليلتى حتى ذهب بى النوم إلى الصباح؟ مالى وللدنيا ومالى شغلتمونى بلين الفراش يا حفصة!

أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أمسى جائعا ورقد ساجدا، ولم يزل راكعا وساجدا وباكيا ومتضرعا فى آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه! لا أكل عمر طيبا، ولا لبس لينا، فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين إدامين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحما الا فى كل شهر ينفض ما انفض من القوم، فخرجنا فخبرنا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل.

٤- رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه يقيل فى المسجد وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصير بجنبه.

فيقال: هذا أمير المؤمنين.. هذا أمير المؤمنين..

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

٥- أخرج أبو نعيم فى «الحلية» جـ١ ص٨٢ عن رجل من ثقيف أن عليا رضى الله عنه استعمله على عكبر قال:

ولم يكن السواد يسكنه المصلون - وقال لى: إذا كان عند الظهر فرح إلى، فرجعت إليه فلم أجد عنده حاجبا يحبسنى عنه دونه، فوجدته جالسا وعنده قدح وكوز ماء - فدعا بطينة فقلت فى نفسى:

لقد آمننى حتى يخرج إلى جوهرا ولا أدرى ما فيها، فإذا عليها خاتم فكسر الخاتم، فإذا فيها سويق، فأخرج منها فصب فى القدح، فصب عليه ماء فشرب وسقانى، فلم أصبر فقلت:

يا أمير المؤمنين.. أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك!؟

قال: أما والله ما أختم عليه بخلا عليه، ولكنى أبتاع قدر ما يكفينى فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره، وإنما حفظى لذلك، وأكره أن أدخل بطنى إلا طيبا.

٦- أخرج أبو نعيم فى «الحلية» جـ١ ص١٠١ عن عروة قال: دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله، متوسد الحقيبة فقال له عمر: ألا اتخذت ما أتخذ أصحابك؟

فقال: يا أمير المؤمنين.. هذا يبلغنى المقيل.

وقال معمر فى حديثه: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر: أين أخى؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك. فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال: ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه ورحله.

٧- وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن الحسن قال:

كان عطاء سلمان رضى الله عنه خمسة آلاف درهم، وكان أميرا على زهاء ثلاثين ألفا من المسلمين، وكان يخطب الناس فى عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، وإذا خرج عطاؤه أمضاه - أى تصدق به - ويأكل من سفيف يده.

٨- روى الامام أحمد عن محمد بن كعب أن ناسا نزلوا على أبى الدرداء رضى الله عنه ليلة قرة فأرسل إليهم بطعام سخن ولم يرسل إليهم بلحف، فقال بعضهم: لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر، لا أنتهى أو أبين له. قال الآخر: دعه، فأبى.

فجاء حتى وقف على الباب، رآه جالسا وامرأته ليس عليها من الثياب إلا مالا يذكر فرجع الرجل وقال:

ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به.

قال: ان لنا دارا ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها - أى الدار الآخرة - ولو ألفيت عندنا منه شيئا لأرسلنا إليك به وأن بين أيدينا عقبة كؤودا، المخف فيها خير من المثقل أفهمت ما أقول لك؟

قال: نعم.

٩- وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال: كنت جالسا مع أبى فمر رجل فقال:

أخبرني ما قلت لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما يوم رأيتك تكلمه بالجرف؟
قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن.. رقت مضغتك، وكبر سنك، وجلساؤك لا يعرفون حقك ولا شرفك، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئا يلطفونك إذا رجعت إليهم، قال: ويحك.. والله ما شبعت منذ إحدى عشرة سنة ولا ثنتى عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة فكيف لى؟

وإنما بقى منى كظمئى الحمار.

١٠- أخرج عمر بن شية عن أفلح مولى أبى أيوب رضى الله عنه قال: كان عمر رضى الله عنه يأمر بحلل تنسج لأهل بدر يتنوق فيها - أى يتجود ويبالغ - فبعث إلى معاذ بن عفراء حلة فقال لى معاذ: يا أفلح.. بع هذه الحلة. فبعتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال: اذهب فابتع لى بها رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءا اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأى، اذهبوا فأنتم أحرار.

مما مضى يتبين كيف أن الجيل الذى رباه محمد رسول الله ﷺ جيل أصبح همه الأعلى الآخرة، ولم يعد له فى غيرها همة، إلا إذا كان وسيلة إلى الآخرة تقربهم إلى الله، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له فى أى جانب من جوانب الحياة، والحياة والمال هما الميزان الذى يمتحن به إيمان الإنسان بالمبدأ والعقيدة. فعلى قدر تضحيته يكون إيمانه، والتضحية التى نراها عند الصحابة - الجيل الذى رباه رسول الله - بالنفس والمال ابتغاء وجه الله والدار الآخرة تضحية لا مثيل لها فى تاريخ العالم أبدا، مما يدل على مقدار إيمانهم باليوم الآخر، حتى أصبح محور وجودهم. وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى فى أنفسهم:

(أ) تقول زوجة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه:

دخلت يوما على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له: مالك؟ لعله رابك منا شئ فنعتبك.

قال: لا. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت. ولكن اجتمع عندى مال ولا أدرى كيف أصنع به؟

فقلت: وما يغمك منه! ادع قومك فاقسمه بينهم.

فقال: يا غلام.. على بقومى.

فسألت الخازن: كم قسم؟

قال: أربع مائة ألف.

كذا فى «الترغيب» ورجاله ثقلت.

(ب) وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن سعيد بن عبد العزيز قال: - كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه شئ.

- سمعت السيدة عائشة رضى الله عنها يوما رجة فى المدينة فقالت: ما هذا؟ قالوا: قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شئ، وكانت سبعمائة بعيْر فقالت: يدخل عبد الرحمن الجنة حبوا - أى بسبب غناه - فلما بلغه ذلك قال:

إنى لأرجو أن أدخلها قائما، فجعل القافلة كلها فى سبيل الله الجمال وما عليها ووزعها على الناس.

(ج) أخرج الطبرانى فى «الكبير» عن مالك الدار - هو مالك ابن عياض مولى عمر - ذكره الحافظ فى «الإصابة»:

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربع مائة دينار، فجعلها فى صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - ثم تله فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك.

فقال: وصله الله ورحمه. ثم قال:

تعالى يا جارية.. اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة الى فلان، حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فأخبره. فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فقال:

اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتله في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه فقال:

يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، تعالى يا جارية.. اذهبى الى بيت فلان بكذا. اذهبى الى بيت فلان بكذا. فاطلعت امرأة معاذ وقالت:

ونحن والله مساكين.. فأعطنا. فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فدحى بهما - أى رمى - إليها، ورجع الغلام الى عمر فأخبره فسر بذلك فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

(د) أخرج ابن سعد عن أم درة قالت: أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهى يومئذ صائمة فقلت لها: أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه؟

فقالت: لو كنت أذكرتنى لفعلت.

(هـ) وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه الى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: ان الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله.. إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك، والله انى أرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد.

وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة. فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا.

(و) تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال:

يا سعد بن معاذ.. الجنة ورب الكعبة إنى أجد ريحها من دون أحد، قال أنس:

فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه إلا أخته ببنانه.

(ز) وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمدانى رضى الله عنه قال:

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفى رضى الله عنه رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب فى غير مقتل فأخرج السهم ووهن شقه الأيسر – لما كان فيه. وهذا أول النهار وجر الى الرحل، فلما حمى القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدى رضى الله عنه يصيح بالأنصار:

الله.. الله.. والكرة على عدوكم، وأعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار:

أخلصونا.. أخلصونا.. فأخلصوا رجلا رجلا يميزون. قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل.. ما فيك قتال؟

قال: قد نوه المنادى باسمى. قال ابن عمر: فقلت انما يقول: يا للأنصار.. لا يعنى الجرحى.

قال أبو عقيل: أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا، قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجردا ثم جعل ينادى: يا للأنصار.. كرة كيوم حنين. فاجتمعوا – رحمهم الله – جميعا يقدمون المسلمون دربة – أى جراة وشجاعة وقفة – دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم. قال ابن عمر: فنظرت الى أبى عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت الى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة، قال ابن عمر:

فوقعت على أبى عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت: يا أبا عقيل..

فقال: لبيك – بلسان ملتاث – لمن الدبرة؟ قال: قلت: أبشر، ورفعت صوتى قد قتل عدو الله. فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله. قال ابن عمر: فأخبرت عمر رضى الله عنه بعد أن قدمت خبره كله فقال: رحمه الله.. ما زال يسأل الشهادة ويطلبها، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلام.

(ح) وفى يومن اليرموك قال عكرمة بن أبى جهل:

«قاتلت رسول الله ﷺ فى مواطن، وأفر منكم اليوم؟ .. ثم نادى: من يبايع على الموت؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضى الله عنهما فى أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد رضى الله عنه حتى أثبتوا جميعا جراحا وقتل منهم خلق، منهم: ضرار ابن الأزور، وأتى خالد رضى الله عنه بعدما أصبحوا بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول: كلا.. زم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد».

(ط) وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: «إنى لفى الصف الأول يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يمينى ويسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانهما إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه: يا عم.. أرنى أبا جهل.

فقلت: يا ابن أخى.. ما تصنع به؟

قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه.

فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله.

قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء».

فهل وجد جيل فى العالم مثل هذا الجيل، بلغ فى التضحية فى سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعا فى جنته وخوفا من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذى رباه رسول الله ﷺ.

ولعل فى الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثباتهم على دعوة الله حرصا على السعادة الأبدية، ما يجعلك عل اليقين الذى ما بعده يقين، أن تربية الرسول ﷺ كانت أعظم تربية ربانية فى تاريخ الانسان. هدفها رضوان الله دون مطمح آخر:

(أ) أرى خباب بن الأرت عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب المشركين له فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال خباب: أوقدوا لى نارا فما أطفأها إلا ودك ظهرى» أى دهنه.

(ب) وقال أبو ذر:

قلت: يا رسول الله.. إنى أريد أن أظهر دينى. فقال رسول الله: أخاف عليك أن تقتل، قلت: لابد منه وإن قتلت.

قال: فسكت عنى فجئت وقريش حلقا يتحدثون فى المسجد فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فانتفضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلونى، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بى من الحال فقال لى: ألم أنهك؟ فقلت: يا رسول الله.. كانت حاجة فى نفسى قضيتها».

(جـ) عن أبى رافع قال:

وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبى ﷺ فأسره الروم، فذهبوا به الى ملكهم فقالوا له: ان هذا من أصحاب محمد - ﷺ - فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى؟

فقال له عبد الله: لو أعطيتنى ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذن أقتلك.

قال: أنت وذاك. فأمر به فصلب.

وقال للرماة: ارموه قريبا من يديه قريبا من رجليه، وهو يعرض عليه وهو يأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقى فيها فلما ذهب به بكى، فقيل له: إنه قد بكى ، فظن أنه جزع فقال:

ردوه، فعرض عليه النصرانية فأبى.

فقال: ما أبكاك إذن؟

فقال: أبكانى أنى قلت فى نفسى: تلقى الساعة فى هذا القدر فتذهب فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تلقى فى الله.

فقال الطاغية: هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك؟

قال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلت فى نفسى عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلى عنى وعن أسارى المسلمين لا أبالى، فدنا منه فقبل رأسه فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر رضى الله عنه فأخبر عمر بخبره فقال عمر:

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ فقام عمر فقبل رأسه.

(د) وعن عثمان رضى الله عنه قال:

بينما أنا أمشى مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذ بعمار وأبيه وأمه يعذبون فى الشمس ليرتدوا عن الإسلام فقال أبو عمار: يا رسول الله.. الدهر هكذا. فقال: صبرا يا آل ياسر. اللهم اغفر لآل ياسر. وقد فعلت، وفى رواية: صبرا يا آل ياسر صبرا يا آل ياسر.. فان موعدكم الجنة».

(هـ) وعن أبى الأسود قال:

... وكان عم الزبير يعلق الزبير فى حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع الى الكفر. فيقول الزبير: لا أكفر أبدا.

ترى أيمكن أن يكون هذا التفانى فى طلب رضوان الله إلا ثمرة من ثمار نبى؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه فى هذه الدرجة من الرغبة فى نيل رضوان الله؟ إن من المعروف أن فاقد الشئ لا يعطيه، إن الرجل الذى يكذب عل الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذى أعده، فلا يستطيع أن ينقل الناس الى هذه الحال من الايمان، لولا أنه أعلى فى هذا الموضوع منهم بكثير. فلقد نقل رسول الله ﷺ الناس الى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله الا عند نبى.

فأعطاهم اليوم الآخر حسا رقيقا مرهفا. اذا وقع أحدهم فى المعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها، وترفعوا عن الشهوات والدنايا واحتقروا مظاهر الحياة الفانية، حتى أن أحدهم أصبح ولا تساوى الدنيا عنده شيئا يذكر، فأصبحت الفضيلة لهم عادة، والأمانة عندهم محترمة، وكلمتهم عهدا. وكل ذلك حرصا على رضوان الله وطلبا لجنته وخوفا من ناره.

(أ) روى الامام مسلم:

«أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. انى ظلمت نفسى وزنيت، وإنى أريد أن تطهرنى، فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله.. إنى زنيت، فرده الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ الى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأسا؟ تنكرون منه شيئا؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم.

قال: فجاءت الغامدية فقالت:

يا رسول الله.. إنى قد زنيت فطهرنى.

وأنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله.. لم تردنى؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا. فوالله إنى لحبلى. قال: أما لا فاذهبى حتى تلدى، قال: فلما ولدته أتته بالصبى فى خرقة، قالت: هذا قد ولدته.

قال: فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبى الله.. قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبى إلى رجل من

المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه إياها فقال:

«مهلا يا خلد.. فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت».

(ب) حدث الطبرى قال:

«لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به.

فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى. ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه، فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس».

(جـ) أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إنى لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتمونى، فإن تركتمونى هكذا، وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام.

(د) هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله . قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟

قال : لاشئ . . كنت أذكر الله .

فضحك النبى ﷺ ثم قال : استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول :

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم الى الحديث .

فقلت : يأبى الله عليك والإسلام .

(هـ) عن أبى موسى قال :

انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك، فقال جعفر : لا نسجد إلا لله .

إنه بمحمد رسول الله ﷺ أصبح الضمير يقظا على اليوم الآخر، لا يغفل عنه، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها . اليوم الآخر الذى دعا إليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الانسان لأنها قضية مصيره ويجعلها الانسان أبسط قضاياه لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى اذا مات الانسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص .

وإحياء الإنسان بهذه الذكرى وإحياء هذه الحقيقة فى قلب الإنسان هى الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله ﷺ وإنها لثمرة نبوة لا ثمرة كذابين مدعين، ولا يستطيع العقل أن يتصور إلا هذا .

ثالثا – إنسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله ﷺ ونظرة الناس بعضهم إلى بعض ما يلى :

١ – فى الهند :

لم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة، وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الانسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينيا ومدنيا وخضعت له آلافا من السنين ولا تزال، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقى فى آخر العهد الويدى، بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها. وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى. وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه فى البلاد، وأصبح قانونا رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر ».

يقسم هذا القانون أهل البلاد الى أربع طبقات متمايزة وهى :

١– البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين. ٢– شترى : رجال الحرب.

٣– ويش : رجال الزراعة والتجارة. ٤– شودر : رجال الخدمة.

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه. وشترى من سواعده. وويش من أفخاذه. والشودر من أرجله. ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم ويد، أو تقديم النذور للآلهة، وتعاطى الصدقات. وعلى الشترى حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد، والعزوف عن الشهوات. وعلى ويش رعى السائمة، والقيام بخدمتها، وتلاوة ويد والتجارة والزراعة. وليس لشودر إسيلا خدمة هذه الطبقات الثلاث.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وأن ما فى العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق، وسادة الأرض، لأن العبد لا يملك شيئا، وكل ماله لسيده، وأن البرهمى الذى يحفظ رك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة. بذنوبه وأعماله،

ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية، أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح لبرهمى فى بلاده أن يموت جوعا، وأن استحق برهمى القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل.

أما الشترى فانهم وإن كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير. يقول « منو » : إن البرهمى الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده.

أما شودر « المنبوذون » فكانوا فى المجتمع الهندى – بنص هذا القانون المدنى الدينى – أحط من البهائم، وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة « شودر » أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالا، أو يدخروا كنزا، فان ذلك يؤذى البراهمة، وإذا مد أحد من المنبوذين الى برهمى يدا أو عصا ليبطش به، قطعت يده، وإذا رفسه فى غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فائرا، وكفارة قتل الكلاب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء ».

٢– فى فارس:

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم الهى، وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة، ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئا علويا مقدسا يدعون أنه يجرى فى عروقهم، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر ولا يجرى اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد فى مجالسهم، ويعتقدون أن لهم حقا على كل لسان، وليس لأنسان حق عليهم، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق.

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة فى طينتهم، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها، ويخضعون له خضوعا كاملا يقول « آرتهرسين » :

«كان المجتمع الايرانى مؤسسا على اعتبار الحرف والنسب، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقارا لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية، أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه. ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعا وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع.

وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للانسانية. يظهر لك جليا فى مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم، ويجلسون مزجر الكلب.

ثم يبالغون فى تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدا. وكانوا ينظرون الى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية.

٣– هذان مثلان يبينان لنا حال العالم فى قضية الإنسان حين البعثة. وليس هما كل شئ فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة، وهى وحدها نموذج النوع الإنسانى العالى، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة، حتى على مستوى الأسرة، ولم يكن يخطر ببال قضية الإنسانية الواحدة..

٤– وما لنا نذهب بعيدا فحتى الآن نرى:

أن هتلر يعتبر الشعب الجرمانى أعظم شعوب الدنيا، وله حق سيادة العالم.

والشعب الأمريكى لا يزال يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود. ومطعم البيض لا يدخله سود، ومدرسة البيض لا يدخلها سود. وفى جنوب افريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب.

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة فى أفريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لأن يكون قسيسا، وأخيرا تظهر الطبقية بشكل آخر: رأسمالية – بورجوازية – بروليتاريا.

هذا بشكل عام، فإذا ما نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى، زاوية أن الإنسانية رجل وامرأة، وكل منهما إنسان، فانك تجد ولا تزال تجد مثل هذه الصور:

فى القرن السادس الميلادى كانت بعض المجامع الكنسية تبحث: هل المرأة إنسان أو حيوان؟

وكان العرب يئدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية:

جاء الاسلام وقد فديت ثلاثة مائة موؤدة.

وكان الهنود إذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها إذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته فى القمار، وفى كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة.

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسى لا يسمح للمرأة أن تتصرف فى أموالها إلا بإذن زوجها، والقانون الإنجليزى لا يسمح لها بتغيير اسمها إلا باذن زوجها، أما هو فحر..

وإذا نظرنا إلى الإنسانية من وجه آخر. وجه الأحرار والعبيد، فإننا نجد صورا من البشاعة فى معاملة الرقيق لا تصور، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد شعور أصلا بإنسانيته.

هذا كله وبعض منه كما رأينا لا يزال.

فماذا فعل محمد رسول الله ﷺ بأمر من الله ووحى؟

لقد أعلن محمد رسول الله ﷺ وحقق عمليا انسانية الإنسان، ووحدة الإنسانية، وكرامة الإنسان، الرجل إنسان، والمرأة إنسان، والعبد انسان، والناس كلهم سواء فى هذه الإنسانية، فلا شعب أعلى من شعب، ولا جنس أعظم من جنس.

وفى ذلك يقول صاحب كتاب «هذا الدين»:

«من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت، التى كانت تسود الجزيرة، ومن عصبية البلد، وعصبية الوطن، وعصبية اللون، وعصبية الجنس، التى كانت تسود وجه الأرض كله..

من هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان، جاء الاسلام ليقول للناس:

إن هناك إنسانية واحدة، ترجع الى أصل واحد، وتتجه إلى إله واحد. وأن اختلاف الأجناس والألوان، واختلاف الرقعة والمكان، واختلاف العشائر والآباء.. كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا، ويتحوصلوا وينعزلوا، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا. وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض، ويرجعوا بعد ذلك الى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها.

وقال لهم الله سبحانه في القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعا عملية.

لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان.. وذابت كلها في النظام الإسلامي. ولم تقف وراثة لون، ولا وراثة جنس، ولا وراثة طبقة، ولا وراثة بيت، دون أن يعيش الجميع إخوانا، ودون أن يبلغ كل فرد مهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية، وما تكفله له صفة الانسان.

واستقر هذا الخط العريض في الأرض، بعد أن كان غريبا فيها، أشد الغرابة، ومستنكرا فيها كل الاستنكار - وحتى بعد انحسار المد الاسلامي، لم تستطع البشرية أن تتنكر له كل التنكر، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب.

حقيقة: إنها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة، ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامي.

وحقيقة: إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش، عصبيات الأرض والوطن، وعصبيات الجنس والقوم، وعصبيات اللون واللسان.

وحقيقة: إن الملونين فى أمريكا وجنوب أفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة فى أوروبا كلها.

ولكن فكرة الانسانية الواحدة ما تزال خطا عريضا فى هتافات البشرية اليوم، وما يزال هذا الخط الذى خطه الإسلام هو أصل التفكير البشرى - من الناحية النظرية - وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تبزغ وتختفى، لأنها ليست أصيلة ولا قويمة.

وجاء الإسلام والكرامة الانسانية وقف على طبقات معينة، وعلى بيوت خاصة، وعلى مقامات معروفة. أما الغثاء - غثاء الجماهير - فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة .. غثاء!!

وقال الإسلام كلمته المدوية: ان كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها، لا من أى عرض آخر كالجنس، أو اللون، أو الطبقة، أو الثروة، أو المنصب، الى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة.. والحقوق الأصيلة للإنسان، مستمدة إذن من تلك الإنسانية التى ترجع الى أصل واحد كما أسلفنا.

وقال لهم الله في القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الاسراء: ٧٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]

وعلم الناس منذئذ:

أن الإنسان - بنوعه - كريم على الله، وأن كرامته ذاتية أصيلة. لا تتبع جنسه، ولا لونه، ولا بلده، ولا قومه، ولا عشيرته، ولا بيته. ولا عرضا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة.

إنما تتبع كونه إنسانا من هذا النوع الذى أفاض عليه ربه الكريم. ولم تكن هذه المبادئ نظرية، إنما كانت واقعا عمليا، تمثل فى حياة الجماعة المسلمة، وانساحت به فى أرجاء الأرض، فعلمته للناس، وأقرته فى أوضاع حياتهم، كذلك وعلمت جمهور الناس.. ذلك الغثاء.. أنه كريم، وأن له حقوقا، هى حقوق الإنسان، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة. وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس - وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم أو أمير.

وكان هذا ميلادا جديدا «للإنسان» ميلادا أعظم من الميلاد الحسى.

فأى إنسانية لإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان، وكرامة الإنسان، وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته، وبحقيقته التى لا تتخلف عنه فى حال من الأحوال؟

بدأ أبو بكر رضى الله عنه عهده بقوله:

«لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى. وإن أسأت فقومونى. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم».

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء:

«يا أيها الناس.. إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا من أموالكم. ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم. فمن فعل به شئ من ذلك فليرفعه إلى. فوالذى نفس عمر بيده، لأقصنه منه.. فوثب عمرو بن العاص فقال:

«يا أمير المؤمنين.. أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته، إنك لتقتص منه»؟

قال عمر: «أى والذى نفس عمر بيده لأقصنه منه. وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص منه نفسه. ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم».

وكتب عثمان رضى الله عنه كتابا إلى جميع الأمصار قال فيه :

« إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم قد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يرفع على شئ ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم، يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى، أو تصدقوا، إن الله يجزى المتصدقين » .

والمهم – كما أسلفنا – أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال .

فقد طبقت تطبيقا واقعيا، وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص، فاتح مصر وواليها، فسبقه فضربه ابن عمرو، فشكا أبوه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأقصه منه فى موسم الحج وعلى ملأ من الناس . . حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر . . ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الإسلام فى ضمائر الناس وفى حاجاتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح الإسلامى . وهذا القبطى لم يزل على دينه فردا من جماهير البلد المفتوحة . وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم، وأول أمير عليه من قبل الإسلام . . وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان :

أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات، ولعل ذلك القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان .

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الإسلام فى أنحاء الأرض، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذلها، وأطلقه إنسانا حرا كريما، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما فى سباق . وهذه أخرى، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر الى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا، ولكن جملا، يخب به ويضع الأشهر الطوال، كل ذلك ليشكو للخليفة .

الخليفة الذى حرره يوم الفتح تحت راية الإسلام، والذى علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان.

وهكذا ينبغى أن نفهم، وأن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى. فليست المسألة فقط أن عمر عادل، وأن عدله لا تتطاول اليه الأعناق فى جميع الأزمان.

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الإسلام، ومنهجه ونظامه، انطلق فى الأرض تيارا جارفا محررا مكرما للإنسان.. بصفته «الإنسان».

هذا المستوى الرفيع، لم ترتفع إليه الانسانية قط.. هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الإسلام، فى كرامة الإنسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه، قد ترك فى حياة البشر آثارا لاشك فيها. وبعض هذه الآثار هو الذى يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان «حقوق الإنسان».

وحقيقة أن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعى فى حياة البشرية.

وحقيقة أن «الإنسان» ما يزال يلقى المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان فى شتى أنحاء الأرض.

وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة، وتقتل حرية الانسان وكرامته وخصائصه العليا فى سبيل الإنتاج ومضاعفة الدخل، والتفوق فى الإنتاج كل هذا صحيح.

ولكن هذا الخط ما يزال قائما فى مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الإسلام.

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول ﷺ فى هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه فى بناء جوانب إنسانية الإنسان:

(أ) كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب.. لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان.

(ب) وعن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت - يعنى للنبى ﷺ - : إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة. فأرسل النبى ﷺ إلى أبيها فجعل

الأمر اليها فقالت : يا رسول الله . . إنى أجزت ما صنع أبى ولكن أردت ان أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ .

(جـ) عن معاوية بن سويد بن مقرن قال :

لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبى فدعاه ودعانى ثم قال للخادم : أمثل منه . فعفا ثم قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أعتقوها . فقيل له : ليس لهم خادم غيرها . فقال : فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها .

(د) وعن المعرور بن سويد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه .

(هـ) وكان عمر رضى الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا – يعنى بلالا .

وسنرى إن شاء الله فى الرسالة الثالثة « الإسلام » هذه المعانى بالتفصيل .

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله ﷺ وهى ثمرة ما كانت لتكون لو لا أنه رسول الله .

إن بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتنبع منها فكرة وحدة الانسانية وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج إنسانا له رسالة للبشرية عامة . فكل المقدمات ما كانت لتوحى بنتيجة من هذا النوع .

يقول العقاد :

ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الإنسان جميعا الى دين واحد وإله واحد وحق واحد :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل إليه فيقول فى تفسير هذه الآيات :

« لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات، وهذه النتيجة غير هذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية . لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم فإن الرسول ﷺ الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين . بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها الكافرون، وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس أنهم اذا صلحوا واستقاموا ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١]

رابعا : المسئولية الفردية :

« ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستنجدة إن والديها يهددانها بالطرد، ولما سألها عن السبب أجابت : لأنها ستضع مولودا وقالت : إنها لا تعلم اسم أو شخصية والده، لأنه كان يرتدى قناعا حيث إنها ارتكبت الفاحشة فى أيام الكرنفال أو الناشنج، وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة فى بلاد الاباحية التى أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر . فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج التى تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمات، بل إنه من المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها . وأيام الاباحة الثلاثة تبدأ رسميا فى الدقيقة ١١ من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة مع تفاوت بسيط فى مواعيدها بين مدينة وأخرى، وفى أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعرى النساء من كل شئ تقريبا وهن يختلطن بالرجال حيث تجرى الدعارة الجماعية ومن

دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التى يرافقها ومن دون أن تعرفه هى أيضا، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة، وفلسفة الألمان فى هذه الاعياد هى أن من حق البشر أن يخطئوا، لأنهم إذا لم يخطئوا فسيرتفعون الى مستوى الآلهة، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتما لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم، وهم يرددون هذه الفلسفة فى صحفهم ومجالسهم وفى كل مكان».

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التى تقول:

إن الانسان خاطئ منذ ولادته، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة. وأن المسيح عليه السلام صلب - حسب زعمهم - حتى يكفر عن البشر خطاياهم، فهو قد تحمل خطايا البشر.

وهذه الفكرة معناها أن الانسان مسئول عن أعمال غيره، وغيره مسئول عن أعماله، وبين هذا وهذا تضيع المسئولية الفردية التى يحس بها الإنسان أنه مسئول عن أعماله فقط. صغيرها وكبيرها، وليس مسئولا عن عمل غيره بتاتا.

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان:

الأولى: أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة وهذا يؤثر تأثيرا سيئا فى نظرته لنفسه من حيث إنه كما ورث الخطيئة ولم يخطئ، فسيعتمد على غيره فى حمل خطاياه عنه.

الثانية: أنه ما دام غيره مسئولا عن ذنوبه، فانه لن يبالى بهذه الذنوب. وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض، وادرس ما يحدث فى كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرهما بالذات تجد مقدار اللامبالاة فى الخطيئة.

وهذا أكثر الأديان أتباعا الآن فى العالم.

توجد عند البراهمة والبوذيين والجينيين - وهى ديانات لها أتباعها الكثر فى العالم عقيدة شبيهة - من حيث سلب مسئولية الانسان الفردية - بالديانة النصرانية.

هذه العقيدة هى عقيدة تناسخ الأرواح، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفارق جسدا فى هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر فى هذه الدنيا نفسها. ولا يكون

هذا الجسد الثانى أو القالب الثانى بكلمة أصح إلا متفقا مع الحياة التى قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه فى حياته الأولى. فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة، فإن روحه سترتقى الى طبقة من الطبقات العليا».

هذه العقيدة مقتضاها أننى أنا الإنسان الحالى، إنسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيرى، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلى، وهذه المخلوقات السابقة على، هى أنا، وأنا بأعمالى الحاضرة ساكون بالتالى نباتا أو حيوانا أو إنسانا. ويحس الإنسان بذاته أنه منقطع الشعور النفسى بما كان.

فماذا ينتج عن هذه العقيدة؟

١- سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواء فى ميدان الوجود، اذ الحيوان كان إنسانا والنبات كان حيوانا. ويترتب على هذا ألا يجوز إيذاء النبات والحيوان والانسان، حتى ولو آذانى الانسان، وعندئذ فإن أمة من هذا النوع تعتقد مثل هذه العقيدة معرضة للفناء والحرمان والاضمحلال، ومثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فإن أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذى يعملون، وعقيدتهم التى يعتقدون.

٢- كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عمليا. إذ أن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هى أصل كل فساد فى الأرض وهى التى تلوث الروح بالذنوب والآثام، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة، فالإنسان إذا أودى بها، وقضى عليها، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ. ويقولون:

ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه، لأنه من المحال إذا انشغل الانسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها. والنتيجة اللازمة لذلك - يقولون - إن من

أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا، ولا يسكن إلا فى الغابات، ورؤوس الجبال وكهوفها، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ، ويستعد للانضمام الى طبقات الحيوانات والنباتات.

٣- ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين.

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق.

وأما إنسان لن يمشى فى هذا الطريق وهو بالتالى لا يبالى لأنه ليس مسئولا عن حاضره ولا يهمه مستقبله.

ويظهر انعدام المسئولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى، كلها غير معقول:

تظهر بصورة أخذ الثأر من أى قريب للقاتل، كما يحدث عند العرب فى الجاهلية، وتظهر بصورة الإيمان بأن الإنسان غير مسئول أمام أحد عند الملحدين الفوضويين، وتظهر بصورة أن الإنسان مسئول أمام القانون فقط فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء.

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسئولية موجودة عند اليهود:

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، الذى غفر له كل شئ، فمهما فعلوه من جرائم أو مآسى، أو مفاسد، أو مظالم، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله إلا بشكل بسيط جدا جدا.

هذه صور من فرار الإنسان من المسئولية كانت يوم بعث محمد رسول الله ﷺ ولا زالت. وهى كلها صور غير معقولة، وآثارها خطيرة على الإنسان، والحياة الإنسانية كلها، من حيث انعدام مسئولية الإنسان أو قصورها، مما يؤدى إلى انحراف فظيع فى السلوك.

فماذا فعل محمد ﷺ بأمر الله ووحيه:

لقد كان الإعلان الذى أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسئولية أعماله وحده، فلا يتحمل مسئولية جد ولا مسئولية ذنب أخ وعم، إلا إذا كان له

علاقة فى الموضوع، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق. وإنما الإنسان مسئول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله فى الآخرة، وأمام شريعة الله فى الدنيا فقال القرآن: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وخاطب القرآن الناس:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾

[النساء: ١٢٣]

فاصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة. حتى قال قائل المسلمين: «كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام» وأصبح الذى يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش .. اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف .. لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب .. لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية – عمة رسول الله ﷺ – لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة – بنت محمد ﷺ – سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئا» رواه البخارى ومسلم.

وبذلك استقام سلوك الإنسان، وتحرر ضمير الإنسان من التواكل والاعتماد على الآخرين، وبذلك لم يعد الإنسان غير مبال فى أمر الخطيئة، وبذلك استقلت شخصية الإنسان استقلالا تاما، وبذلك أصبح الخير مرجوا من الإنسان، وبذلك قضى على الخرافة، وقامت الحقيقة محلها.

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد ﷺ تدل على أن محمدا رسول الله، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحى، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلى:

«وللديانة الانسانية مناط واحد، هو ضمير كل فرد من أفرادها. فما لم يكن لهذا الضمير حساب، وعليه تبعة، فلا ديانة لإنسان، ولا لجملة الناس. وفكرة التبعة الفردية والمسئولية الفردية بسيطة، سهلة الفهم، تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم، فى كل بيئة اجتماعية، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها، وسهولة فهمها،

وتجدد الحاجة إلى تطبيقها، لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع.

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت، وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الأولى، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد، إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه. فإن لم تسلمه تضامنت فى الدفاع عنه، ووقعت الحرب بين القبيلتين، أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثار منه، وقد يتوارثون الثار إلى الأبناء والأعقاب.

فمضى نظام القبيلة على مسئولية القبيلة كلها من جميع أفرادها، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة، وعلى رعاية المأثورات السلفية، وبلغ من ثبات هذه العادات أن روما التى كانت تسمى أم الشرائع، جعلت الأب مسئولا عن الأسرة، وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها. وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى، فجعلت من حق الرجل الذى تقتل ابنته أن يتسلم ابنة القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنسانا مستقلا بحياته.

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية، ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال، فهو مولود بجرائره وآثامه، وكفارة تلك الجرائر والآثام الى الأجل المقدور، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده. بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد».

«كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسئل عنها وحده بل يسئل عنها كل ولد من ذريته».

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شئ جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات.

ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدرها كل عرف قائم، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات.

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية، ولا قانون فيها غير قانون الثار، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة، وتعلم الناس ﴿ وأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] أن جيلا لا يؤخذ بجزيرة أسلافه، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].. ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]

فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده، مبتدئا بغير سابقة، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات. ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ. إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب.

خامسا – العدل:

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث عنها فى هذه الفقرة. تشهد أنه رسول الله ، ولو لا ذلك ما كانت ولا غيرها هذه الثمرة، هى العدل الذى ما عرف تاريخ العالم له مثيلا وسنختار حوادث من حياة رسول الله ﷺ والصحابة الذين رباهم. نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد ﷺ وبهديه إلى آفاق هى أعلى ما يطمح اليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال. ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعا حيا متمثلا بهذا الجيل الفريد، وكيف أن القرآن يرفع الانسان إلى أعلى آفاق الإنسانية وغيره يدنيه نحو حضيض الحيوانية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

١- أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابى الى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أحرج عليك الا قضيتنى . فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك . . تدرى من تكلم؟ قال : إنى أطلب حقى . فقال النبى ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك . فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فاقترضه فقضى الأعرابى وأطعمه، فقال : أوفيت . . أوفى الله لك . فقال :

« أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع » .

أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه . والحديث رواه البزار عن عائشة مختصرا والطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه بإسناد جيد .

٢- وأخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضى الله عنه يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله .

فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله .

فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد . . فإنما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت . قالت عائشة رضى الله عنها : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله ﷺ .

٣- أخرج البيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنهم - قام يوم جمعة فقال :

إذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا باذن .

فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملا، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال: استقد - أى اقتص منى كما ضربتك فاضربنى - فقال له عمر: والله لا يستقيد.. لا تجعلها سنة. قال أبو بكر: فمن لى من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: ارضه. فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة - أى كساء له خمل - وخمسة دنانير فأرضاه بها.

٤- كان الرسول ﷺ قد وكل بتقدير حصة المسلمين فى خيبر عبد الله بن رواحة، وكان أهلها يهودا وفى ذلك يروى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنه حديثا منه:

كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يأتيهم كل عام فيخرصها - أى يخمنها - عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال:

يا أعداء الله.. تطعمونى السحت - أى الحرام - والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى اياكم وحبى اياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض».

٥- أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقى عن الشعبى قال: كان بين عمر وبين أبى بن كعب رضى الله عنهما شئ فقال عمر:

«اجعل بينى وبينك رجلا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت رضى الله عنه، فأتياه فقال عمر:

أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم. فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال: هاهنا يا أمير المؤمنين.. فقال له عمر: هذا أول جور جرت فى حكمك، ولكن أجلس مع خصمى، فجلسا بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى: أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء».

٦- وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال: «يا أيها الناس.. إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أمالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم فمن فعل به غير ذلك فليقم» فما قام أحد إلا رجل قام فقال:

يا أمير المؤمنين.. إن عاملك فلانا ضربنى مائة سوط. قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك. فقال: كيف لا أقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه. قال: فدعنا لنرضيه.

قال: دونكم فأرضوه.. فاقتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين».

٧- وأخرج ابن عساكر قال:

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمى رضى الله عنهما:

«أما بعد.. فقد بلغنى أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فإذا أتاك كتابى هذا فاقدم على بركة الله فاغز فى سبيل الله» فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضى الله عنهما فأذن له فزاحمه فتى من قريش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشى فدخل القرشى على عمر مستدمى فقال له عمر: من فعل بك؟

قال: فيروز.. وهو على الباب.

فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال: ما هذا يا فيروز؟

قال: يا أمير المؤمنين.. إنا كنا حديثى عهد بملك، إنك كتبت إلى ولم تكتب إليه وأذنت لى بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل فى إذنى قبلى فكان منى ما قد أخبرك.

قال عمر: القصاص.

قال فيروز: لابد؟

قال: لابد.

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر رضى الله عنه:

على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشئ سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول: قتل الليلة الأسود العنسى الكذاب قتله العبد الصالح فيروز الديلمى. أفتراك مقتصا منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال الفتى: قد عفوت عنه بعد أن أخبرتنى عن رسول الله ﷺ بهذا. فقال فيروز لعمر: أفترى هذا مخرجى مما صنعت إقرارى له وعفوه غير مستكره؟ قال: نعم. قال فيروز: فأشهدك أن سيفى وفرسى وثلاثين ألف من مالى هبة له».

٨- وأخرج الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال: أمط عن الطريق. فلما كان فى العام المقبل لقينى فأخذ بيدى فانطلق بى إلى منزله فأعطانى ست مائة درهم وقال: استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك. قلت: يا أمير المؤمنين.. ما ذكرتها.

قال: ما نسيتها».

٩- أخرج المحب الطبرى فى مناقب العشرة قال:

كان لعثمان عبد فقال له: إن كنت عركت أذنك فاقتص منى فأخذ بأذنه ثم قال عثمان: اشدد.. يا حبذا قصاص فى الدنيا لا قصاص فى الآخرة.

١٠- وأخرج ابن عساكر عن على بن ربيعة قال: جاء جعدة بن هبيرة إلى على رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين.. يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه - أو قال: من أهله وماله - والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضى لهذا على هذا. قال: فلهزه على رضى الله عنه وقال: إن هذا شئ لو كان لى فعلت ولكن إنما ذا شئ لله.

١١- وأخرج الترمذى والحاكم عن الشعبى قال: خرج على بن أبى طالب الى السوق فإذا هو بنصرانى يبيع أدرعا فعرف على رضى الله عنه الدرع فقال: هذه درعى.. بينى وبينك قاضى المسلمين. وكان قاضى المسلمين شريحا - كان على استقضاه - فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس عليا فى مجلسه وجلس شريح قدامه الى جنب النصرانى فقال على:

اقض بيني وبينه يا شريح. فقال شريح:

ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال علي: هذه درعي وقعت مني منذ زمان. فقال شريح: ما تقول يا نصراني؟

فقال النصراني: ما أكذب أمير المؤمنين.. الدرع درعي.

فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده، فهل من بينة؟

فقال علي: صدق شريح.

فقال النصراني: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء. أمير المؤمنين يجئ إلى قاضيه، وقاضيه يقضيه علي؟ .. هي والله يا أمير المؤمنين درعك اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فقال علي:

أما إذ أسلمت فهي لك – وحمله على فرس –.

١٢– وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن الحارث بن سويد قال: كان المقداد بن الأسود رضي الله عنه في سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لا يجشر أحد دابته – أي لا يخرجها للمرعى – فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول: ما رأيت كما لقيت اليوم قط. فمر المقداد فقال: ما شأنك. فذكر له قصته فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال: أقد من نفسك. فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول: «لأموتن والاسلام عزيز».

إن هذا العدل الذي رأينا بعض نماذجه فيما مضى، إنما كان وليد دعوة السيد الرسول ﷺ وإلا فان العرب قبل كان شعارهم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» وإن الانسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله ﷺ هذا العدل بهذه السرعة، وبهذا العمق، بحيث إنهم غلبوا أمما، وسيطروا عليها. فساسوها سياسة عادلة لا مثيل لها، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل في الاسلام أفواجا بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون، العادلين الذين لا يجورون.

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة، فان قوة

الحياة التى صبتها تربية الرسول ﷺ فى قلوب الأصحاب، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشى فى طريقها المستقيم.

وحتى بعد ذلك، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فان قضاة الإسلام المتحققين بالاسلام علما وعملا. هم الذين يضربون أبدا المثل الأعلى فى العدل الربانى العظيم، الذى يتضاءل بجانبه كل قضاء.

وأنقل هنا مثلين لقاض من قضاة الدولة العباسية. هو شريك بن عبد الله قاضى الكوفة فى زمن الخليفة المهدى. لنرى فيهما نزاهة القضاء الإسلامى وعدله.

١- قال عمر بن الهياج: كنت من صحابة شريك، فأتيته يوما وهو فى منزله باكرا فخرج الى بفرو ليس تحته قميص عليه كساء، فقلت له: ألا تقوم الى مجلس الحكم؟

قال: غسلت ثيابى أمس فلم تجف فأنا انتظر جفوفها، اجلس. فجلست فجعلنا نتذاكر باب «العبد يتزوج بغير إذن مواليه» فقال: ما تحفظ فيه؟ ما تقول فيه؟

وكانت الخيزران قد وجهت رجلا فى الطراز الى الكوفة وجاء الوالى عيسى بن موسى الأمر بالا يتعرض له، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر، ولا سلطان للأمير عليه.

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضى إلى النخع، ومعه جماعة من أصحابه. عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره، وإذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر ببيت القاضى صاح الرجل:

وأغوثاه.. أنا بالله ثم بالقاضى، ففتح شريك الباب وخرج،، فدعا به فإذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه، فأقعده إلى جنبه وقال له: ما شأنك؟ قال: أنا رجل أطرز وأعمل الوشى، هذه صناعتى، وكراء مثلى مئة فى الشهر. وأخذنى هذا منذ أربعة أشهر قسرا، وحبسنى وألزمنى بالعمل بقوتى، ولا يعطينى أجرا ولى عيال قد ضاعوا، فهربت منه فلحقنى فضربنى وكتفنى. فقال شريك للوكيل: قم فاجلس مع خصمك.

قال: أصلحك الله يا أبا عبد الله.. هذا من خدم السيدة، وهذا أمرها فاحبسه

حتى يشتغل لها. قال: ويلك.. قم فاجلس معه كما يقال لك. فقام فجلس معه. قال:

مـا هذه الآثار التى تظهـر بظهـر هذا الرجل؟ من أثرها به؟ قـال: أصلح الله القاضى.. إنما ضربته أسواطا بيدى وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة. احبسه حتى يشتغل، هذا أمر السيدة.

فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره، وأخرج سوطا وضرب بيده على مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل:

اذهب إلى أهلك.. وجعل يضرب الوكيل. فهم أعوانه أن يخلصوه فقال: من هاهنا من شباب الحى؟ فجاءه جماعة فقال:

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به الى الحبس، فهربوا جميعا وتركوه، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة، فألقى السوط من يده، وعاد إلى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئا وقال لى:

يا أبا حفص.. ما تقول فى العبد يتزوج بغير إذن مواليه؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه، ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك:

أرفق به.. ويلك، فإنه أطوع لله منك، فمضى ماشيا، فقال لى شريك: خذ فيما كنا فيه، قلت: ما لنا ولهذا الآن؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة. من ضرب وكيل الخيرزان فكأنه ضربها، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة. قال: أعز أمر الله يعزك.

خذ فيما كنا فيه. فعدنا نتذاكر فى مسألة العبد يتزوج بغير إذن مواليه. وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكيا باكيا، وكشف عن ظهره فارتاع الوالى وغضب وقال: من فعل بك هذا؟

قال: شريك.

قال: لا والله ما أتعرض لشريك.

قال: ساشكوك إلى السيدة.

قال: لا أتعرض لشريك. فمضى الوكيل ولم يعد».

٢- وكان موسى بن عيسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسى، وكان له سلطان الإمارة وسلطان النسب، وكان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه وبين القاضى خلاف، ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه فى شئ. ولم ينج مع هذا كله من الخلاف، ولم يختلفا لأن الأمير عرض له فى قضائه بين الناس، ولا لأنه دخل مؤيدا لمدع أو مدعى عليه، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه، وسبب الدعوى أن الأمير أراد أن يوسع داره، وكان الى جنبها بستان نخل لإخوة ورثوه من أبيهم، وكانوا خمسة إخوة وأختا واحدة، فاشترى منهم جميعا إلا الأخت، فإنها أبت أن تبيع فزادها فى الثمن وضاعفه لها أضعافا، وهى تصر على الإباء، فغاظه أن يفسد عليه أمره حمق هذه المرأة وأراد أن يضطرها إلى البيع وكان بينها وبين حصص إخوتها التى باعوها سياج، فبعث غلمانه ليلا فأزالوه. وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل إخوتها ولم تعد تعرف أرضها من الأرض التى باعوها للأمير. فأقبلت تبكى وتلطم، ولا تدرى ماذا تفعل، وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها:

خذى ثمن الأرض أضعافا.

فقالت: لا أبيعها.. وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد، فما وجدت منهم مسعفا ولا معينا فقال لها واحد من جيرانها:

أنا أدلك على من يخلص لك حقك. فاستبشرت وابتهجت وقالت: ومن هو؟

قال: القاضى. اذهبى اليه فنادى: أنا بالله ثم بالقاضى، وقصى عليه قصتك.

فذهبت تسأل الناس: أين قصر القاضى؟ فيضحكون منها ويقولون لها: ومتى كان للقاضى قصر؟ اطلبيه فى المسجد أو فى داره، ودلوها على داره فرأت دارا صغيرة من اللبن والطين، ما على بابها حرس، وليس حولها جند. فقالت فى نفسها: أين هذا من قصر الأمير؟ وهمت بالرجوع، ثم أحبت أن تجرب. فقرعت الباب تسأل عنه، فقالت لها امرأته: هو فى مجلس الحكم فى المسجد، فدخلت إلى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه، فصاحت: أنا بالله ثم بالقاضى. قال: من ظلمك؟

قالت : الأمير . . موسى بن عيسى .

قال : فيم . . وما دعواك ؟ فحكت له قصتها، فاعطاها ورقة بعد أن ختمها وقال لها : امضى بها إلى بابه حتى يحضر معك .

فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب : مكانك يا امرأة ماذا تريدين ؟

قالت : الأمير .

فأراد إرجاعها فقالت :

إن معى هذه، قال : وما هذه يا امرأة؟ قالت : بطاقة القاضى للأمير فوثب وقال : تقولين إنها بطاقة القاضى، هاتيها لأراها . فلما رآها قال : ويحك . . ولم لم تقولى من أول الأمر إن معك بطاقة القاضى ؟ ادخلى . فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال :

امض إلى شريك فقل له : يا سبحان الله . . ما رأيت أعجب من أمرك ؟ امرأة ادعت دعوة لم تصح أعديتها على، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه إلى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك إلى السجن لأنه يتدخل فى شأن القضاء، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضا، فأرسل إليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعا ، فجاء الأمير ليلا ففتح باب السجن وأخرجهم جميعا، ولما بلغ من الغد الأمر إلى شريك قال لغلامه :

الحقنى بثقلى الى بغداد، والله ما طلبنا هذا منهم، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الاعزاز فيه اذا تقلدناه لهم، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة فى طريقه الى بغداد، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشى معه ويقول له :

يا أبا عبد الله . . تثبت، أنظر، دع أعوانى، افتحبس إخوانك؟ إخوانك تحبسهم؟ قال : نعم . لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه، ولست براجع حتى يردوا جميعا إلى الحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدنى . فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس وهو واقف مكانه، حتى جاءه السجان فقال : قد رجعوا إلى

الحبس. فقال القاضى لغلامه: خذ بلجامه فقده إلى مجلس الحكم، ونودى على المرأة فجاءت فأجلسها معه، فقال الأمير: أنا قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال: أما الآن فنعم، وأمر بإخراجهم من السجن وقال للأمير:

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة؟

قال: صدقت.

قال: أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها؟

قال: نعم.

قال للمرأة: بقى لك شئ تدعينه؟

قالت: نعم. بيت حارس البستان ومتاعه.

قال: ما تقول؟

قال: أرد ذلك كله.

قال: بقى لك شئ؟

قالت: لا ، وجزاك الله خيرا.

قال: قومى. ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه فى مجلسه وقال له: السلام أيها الأمير.. أتأمر بشئ؟ فضحك وقال: بأى شئ آمر؟ قال: ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب.

عدل لا مثيل له، ذلك ثمرة من ثمار محمد ﷺ تدل على أنها ثمرة نبى، إذ ليس لها مصدر سواه تنسب إليه فى أمة لم تهذبها ثقافة سابقة، ولا تجربة قضائية مستمدة، ولا رقابة اجتماعية متعارف عليها.

سادسا - الطاعة المبصرة:

وثمرة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله ﷺ تشهد أنها ثمرة نبى ونبوة، هى الطاعة المبصرة، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد، ولم يترب على نظام ولا انضباط، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما، أو الخضوع لها، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف، طاعة عمياء لملوكهم، ومرؤوسيهم فى كل

شئ. إذا أمروا بالشئ كان خيرا، وإذا نهوا عنه نفسه كان شرا، لا يقال لهم لا، ولا يحاسبون ولا يراقبون.

وحدث ذلك الحدث الضخم، أن الأمة التى لا تعرف النظام، أصبحت منظمة، والتى لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد، طاعة بالحق لا بالباطل، بالعدل لا بالظلم لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها، فكان ذلك فتحا جديدا فى تاريخ الوعى عند الشعوب، لدرجة أن العربى الذى كان يتعصب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل، ولا يطيع فيه أحدا أبدا صار على ابن عمه إذا كان على الباطل، ويطيع فيه أبعد الناس نسبا عنه فى الحق، والذى كان أبعد الناس عن الانضباط، صار أكثر الناس انضباطا، ومن قرأ تاريخ العرب فى الجاهلية، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد. وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ﷺ إياهم:

(أ) روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبى: ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول بأبى أنت وأمى؟ قال: يقول: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال: فقد صدق والله يا رسول الله.. أنت والله الأعز وهو الأذل. أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وان أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بأبيه منى، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به. فقال رسول الله ﷺ: لا. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال:

«أنت القائل: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك، أو لرسول الله ﷺ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله».

فقال: يا للخزرج.. ابنى يمنعنى بيتى!

فقال: والله لا يأويه أبدا إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا باذن من الله ورسوله. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه فقال: اذهبوا اليه فقولوا له: خله وسكنه. فأتوه فقال: أما إذ جاء أمر النبى ﷺ فنعم.

(ب) ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله ﷺ:

«إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم.. فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك».

(جـ) ويروى كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها:

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال:

«فاجتنبنا الناس – أو قال: تغيروا لنا – حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الأرض التى أعرف. الى أن قال: حتى إذا طال على من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار أبى قتادة، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له:

يا أبا قتادة.. أنشدك بالله، هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار».

ويقول: بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:

«من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءنى، فدفع الى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه: أما بعد.. فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا أواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور، فسجرتها» حتى نزلت توبته وكان ما كان.

(د) وللعرب ولع فى الخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها

الشعراء، وشغلت جانبا كبيرا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها فى لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما يرفرف عليها علم يسمى غاية، وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهى أمر الخمر من أرض العرب. روى أبو بريدة عن أبيه قال:

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ وقد نزل تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [٩١] فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.. قال: وبعض القوم شربته فى يده، شرب بعضا وبقى بعض فى الإناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا فى باطيتهم فقالوا: انتهينا.. انتهينا.

(هـ) ولقد تأصل فقه الطاعة فى المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتى وصل الى عجائز الناس:

أخرج مالك عن ابن أبى مليكة قال: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بامرأة مجذومة وهى تطوف بالبيت فقال لها: «يا أمة الله لا تؤذى الناس، لو جلست فى بيتك.. فجلست، فمر بها رجل بعد ذلك فقال: إن الذى نهاك قد مات فارجعى. قالت: ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا».

(و) وتأصل فقه الطاعة بالمعروف فى أنفسهم ظاهرا وباطنا فى الغيبة والحضور فى المنشط والمكره:

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس، وممن غضب علقمة بن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه فى هذه الحادثة اللطيفة:

«لقى عمر رضى الله عنه علقمة بن علاثة جوف الليل وكان عمر يشبه بخالد ابن الوليد رضى الله عنه. فقال له علقمة: يا خالد.. عزلك هذا الرجل، لقد أبى بى شحا، لقد جئت إليه وابن عم لى نسأله شيئا فأما إذ فعل فلن أسأله شيئا. فقال له

عمر: هيه فما عندك؟ فقال: هم قوم لهم علينا حق فنؤدى لهم حقهم وأجرنا على الله. فلما أصبحوا قال عمر لخالد: ماذا قال لك علقمة منذ الليلة؟ قال: والله ما قال لى شيئا. قال: وتحلف أيضا. فجعل علقمة يقول لخالد: مه يا خالد.. فقال عمر: كلاهما قد صدق، وأجاز علقمة وقضى له حاجته».

(ز) ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا:

أخرج الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: استعمل النبى ﷺ رجلا من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم ان يسمعوا له ويطيعوا. قال: فاغضبوه فى شئ فقال:

اجمعوا لى حطبا، فجمعوا فقال: أوقدوا نارا، فاوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. قال: فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبى ﷺ ذكروا ذلك له فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة فى المعروف».

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم:

لما ولى زياد الحكم بن عمر الغفارى خراسان أرسل عمران ابن الحصين رضى الله عنهما يطلبه حتى إذا لقيه قال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى؟ قال: نعم. فقال عمران: الحمد لله – أو الله أكبر.

(ح) وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على سرية ومعه فى السرية عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال: فخرجوا حتى اذا أتوا قريبا من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا فى بعض الليل قال:

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته

فأمر اهله فتحملوا وقال: قفوا حتى آتيكم، ثم جاء حتى دخل على عمار رضى الله عنه قال:

يا أبا اليقظان.. إنى قد أسلمت وأهل بيتى فهل ذلك نافعى إن أنا أقسمت. فان قومى قد هربوا حيث سمعوا بكم، قال: فقال له عمار: فاقم فانت آمن.

فانصرف الرجل هو وأهله، قال: فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار: إنه لا سبيل لك على الرجل.. قد أسلم.

قال: وما أنت وذاك؟ أتجير على وأنا الأمير؟

قال: نعم، أجير عليك وأنت الأمير. ان الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه، فأمرته بالمقام لإسلامه. فتنازعا فى ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله ﷺ فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله ﷺ أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير، فتشاتما عند رسول الله ﷺ فقال خالد:

يا رسول الله.. أيشتمنى هذا العبد عندك، أما والله لولاك ما شتمنى. فقال نبى الله ﷺ:

كف يا خالد عن عمار فإنه من يبغض عمار يبغضه الله عز وجل ومن يلعن عمارا يلعنه الله عز وجل. ثم قام عمار وأتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتى رضى عنه، ونزلت هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ(١) فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فيكون الله ورسوله هو الذى يحكم فيه.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٢) [النساء: ٥٩].

والمسألة فى هذا الموضوع كما يلى:

أن رسول الله ﷺ علم الانسان أن الله وحده هو الذى يستحق الطاعة وحتى الرسول ﷺ إنما يطاع لله، وغير رسول الله انما يطاع بطاعة الله ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ

---

(١) أمراء السرايا.

(٢) خير عاقبة.

فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[النساء: ٥٩] أى من المسلمين، أما غير المسلم فلا طاعة له، والمسلم طاعته فى حدود كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لذلك ختمت الآية: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[النساء: ٥٩] وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له، وبهذا تماسكت شخصية الإنسان تماسكا لا مثيل له، فصار المسلم يقول: لا ، إذا كان ينبغى أن تقال مهما كان وراءها، لا يبالى إن كان الناس كلهم عليه فى الباطل، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق. أما فى الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطا إذ فى هذه الحالة جعل رسول الله ﷺ بأمر الله طاعة الأمير فرضا، وفى الباطل معصيته فريضة: قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاووس: ناولنى الدواة. فرفض. قال: أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريكك فيها. فما أبلغ هذا فى ثمار النبوة وما أدله عليها ألا يطيع الانسان غير الله.

سابعا - أجيال خيرة جريئة بالحق:

وثمرة أخرى من ثمار محمد ﷺ تشهد أنه رسول الله:

ما هو الخير وما هو الشر؟ وما هو المعروف وما هو المنكر؟ وإذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر، فما هى أجزاء هذا وهذا، وأفراد هذا وهذا؟ وإذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضى عليه، ونمكن للخير وندعمه؟ وكيف نوجد بشرا ليس للشر فى قلوبهم نصيب، وقد نذروا للخير أنفسهم، همهم الأعلى إقامة بنيانه وإرساء حقائقه؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير، ولا يجمع بينها أحد ولكن محمد رسول الله ﷺ بفترة بسيطة من الزمن عرف الانسان بالخير كله والشر كله وربى جيلا يعشق الخير، ويبغض الشر ويتفانى من اجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير. فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها، ولا أصلب فى هذا الأمر.

اقرأ سيرة الرسول ﷺ واقرأ القرآن والحديث فانك لا تجد خيرا إلا ذكر، ولا شرا إلا ذكر، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله ﷺ انه خير تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك

إلا إذا جانبت العقل ولم تخضع لحجة، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله ﷺ انه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك، إلا إذا كنت متبعا للشهوات ميالا مع الهوى ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] ومهما حاولت أن تجد شيئا من الشر لم ينه عنه رسول الله ﷺ فانك لا تجد، ومهما حاولت أن تجد شيئا من الخير لم يأمر به فانك لا تجد، والشئ المهم بعد ذلك ان هذا الخير تمثل بمجتمع بشرى لم يبق فيه للشر ظهور، وكل ذلك ببركات رسول الله ﷺ وتربيته.
وسنضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به:

ولن نختار هذه الأمثلة من حياة الصحابة فى زمن الرسول ﷺ، فانه هو الذى كان يتولى الأمر، ولا فى زمن الخلفاء الراشدين لشهرة ذلك عن عصرهم. بل سنقدم أمثلة عما حدث بعد يرى منها كيف أن الماء الذى فجره محمد رسول الله ﷺ بقى أبدا صافيا زلالا خيرا يحيى القلوب بالخير ويميت بها الشر:

(أ) أخرج الطبرانى وأبو يعلى عن أبى فنيل عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال عند خطبته:

إنما المال مالنا والفئ فيئنا، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه، فلم يجبه أحد، فلما كان فى الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد، فلما كان فى الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام اليه رجل ممن حضر المسجد فقال:

كلا.. إنما المال مالنا والفئ فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا.

فنزل معاوية رضى الله عنه فأرسل الى الرجل فأدخله فقال القوم: هلك الرجل، ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس: إن هذا الرجل احيانى.. أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة.

وإنى تكلمت أول جمعة فلم يرد على أحد فخشيت أن أكون منهم ثم تكلمت فى الجمعة الثانية فلم يرد أحد على قلت فى نفسى انى من القوم، ثم تكلمت فى الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد على فأحيانى، أحياه الله.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(ب) أخرج مسلم عن الحسن البصري أن عائذ بن عمرو رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال: أى بني.. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن شر الرعاء الحطمة. فإياك أن تكون منهم، قال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم».

(جـ) روى الخمسة إلا البخاري عن طارق بن شهاب: «أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة» وفي رواية الترمذي: «يا مروان.. خالفت السنة» زاد أبو داوود: «أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبدأت بالخطبة قبل الصلاة» قال: قد ترك ما هنالك. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وليس عند النسائي الا الأخير أي المسند.

(د) وفي «الإحياء» عن الشافعي قال: حدثني محمد بن علي قال: اني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن ابي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال: اتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد قال الحسن: يا أمير المؤمنين.. سل عنهم ابن أبي ذؤيب. قال: فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ قال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيروا الأذى لهم. قال أبو جعفر: قد سمعتم. فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين ... سله عن الحسن ابن زيد قال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق، ويتبع هواه. فقالوا: قد سمعت ما قال فيه ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح؟ قال: يا أمير المؤمنين.. اسأله عن نفسك. فقال: ما تقول في؟ قال: أعفني. فقال: أسألك بالله الا أخبرتني. قال: تسألني بالله.. كانك لا تعرف نفسك؟ قال: والله لتخبرني. قال:

أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش.

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أنى جالس هاهنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك، قال : فقال ابن أبى ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لو لا أعلم أنك صادق لقتلتك . . فقال ابن أبى ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدى .

(هـ) وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب : يا أيوب . . ما حجتك عند الله إن قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور . قال : وهل جرى ذلك؟ قال : نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة، قال : هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبى . قال : أنت ممن يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢] فأمر الملك برفعها .

وسأل الشيخ تلميذه الباجى قال : يا سيدى . . أما خفته؟ قال الشيخ : يا بنى . . استحضرت هيبة الله فصار قدامى مثل القط .

(و) وللنووى مواقف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيرا من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها – أى بحجزها – وتكليف واضعى اليد على شئ منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه فلجأوا إلى الشيخ النووى فى دار الحديث فكتب الى الملك هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة المسلمين، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة.. لله، وكتابه، وأئمة المسلمين وعامتهم».

ومن نصيحة السلطان – وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته – أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام. فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم.

قال تعالى:

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨].

وفى الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم».

وقال ﷺ: «من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».

وقال ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه».

وقال ﷺ «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».

وقال ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان، أعز الله أنصاره. فقد أقامه لنصرة الدين، والذب على المسلمين، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف وفتح عليه الفتوحات المشهورة، فى المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه فى قلوب أعداء الدين وسائر الماردين. ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالاعانة واللطف والسعادة، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها فى خير وعافية.. آمين.

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين.

فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الحوطة على أملاكهم، أنواع من الضرر، ولا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين. بل من فى يده شئ فهو ملكه، لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصى نوابه به، فهو أولى من عمل به.

والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة، ومنهم الأيتام الأرامل والمساكين الضعفة، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق، وهم سكان الشام المبارك، جيران الانبياء صلاة الله وسلامة عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حرمات من جهات، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم، وأطلقهم فى الحال، ولم يؤخرهم، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها، فالله أغث المسلمين يغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار، وتلف غلاتهم فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء - أى إسناد تمليك - وقد نهبت كتبهم، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ويظهره على أعدائه.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وتتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر فى مملكته البركات، ويبارك له فى جميع ما يقصده من الخيرات. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التى يذكر بها الى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه».

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشى إذا لان له أن يعيد معه فى الشام سيرة العز بن عبد السلام فى مصر، فأجابه بالرد الشديد، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه.

فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب، وليس له منصب.

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع، ذهب إليه بنفسه، وقابله وكلمه كلاما غليظا. وأراد السلطان البطش به، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه، وأبطل الأمر بـ«الحوطة» وخلص الناس من شرها.

ثم جاءت قضية أخرى:

أراد السلطان أن يجهز جيشا، ففرض على الناس ضريبة جديدة، فعاذوا منه بالشيخ واجتمع إليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضون معه الكتاب، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك، لما كان منه فى «قضية الحوطة». فلم يكتب إليه رأسا بل كتب إلى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه إليه وكان بدر الدين نائب المملكة وأتابك الجيوش - أى القائد العام - وكان موصوفا بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة.

قال تلميذه السخاوى:

فمما كتبه وأرسل به ورقة الى الظاهر تتضمن وجوب العدل فى الرعية، وإزالة المكوس عنهم، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه.

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة إلى السلطان، فاشتد غضبه، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل، ومثابرته عليه. وتوعد العلماء، فتقاعسوا، ولكن النووى لم يبال، وكتب إليه فى الجواب هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الحمد لله رب العالمين.. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، من عبد الله يحيى النووى ينهى: أن خدام الشرع، كانوا يكتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا من أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾

[آل عمران: ١٨٧]

﴿ وَلَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصا بالأجناد، وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجنادا مخصوصين، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هوالواقع، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شئ ما دام فى بيت المال شئ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا. وبيت المال بحمد الله معمور، زاده الله عمارة وسعة وخيرا وبركة، فى حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وإنما يستعان فى الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبى ﷺ وملازمة أحكام الشرع وجميع ما كتبناه، أولا وثانيا هو النصيحة التى نعتقدها وندين لله بها، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية، وليس فيها ما يلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله ﷺ فى الرفق بالرعية، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبى ﷺ، وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذى كتبناه،

وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا فى البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن، بطغاة الكفار، وبأى شئ كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام؟ وأما أنا فى نفسى فلا يضرنى التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وأن لا نخاف فى الله لومة لائم، نحن نحب للسلطان معالى الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه فى آخرته ودنياه ويكون سببا فى دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الأيام يخلد فى سنته الحسنة ويجد نفعه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وأما ما ذكر فى تمهيد سلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء، فهو بحمد الله من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصة والعامة، وسارت فى أقطار الأرض ولله الحمد.

وثواب ذلك مدخر للسلطان الى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وبعد.. إذا لم يكن تمييز الخير والشر والمعروف من المنكر وتبيان كل، وتربية الناس على محبة الخير والمعروف، وبغض الشر والمنكر، إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة فما هى ثمار النبوة؟

لقد بين محمد رسول الله ﷺ للناس الخير والشر.

ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده، وعلى أن يحاربوا الشر أنى كان. فكانوا مثلا عليا لا مثيل لها فى ذلك، استحقوا معها أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

نعم أنها ثمار النبوة، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فلم تكن الجزيرة العربية مرشحة لشئ من هذا ولا غيرها لو لا وحى الله.

* * *

ثامنا – دولة هداية لا جباية:

وثمرة ثامنة:

أخرج ابن سعد عن سفيان بى أبى العوجاء قال: قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : والله ما أدرى خليفة أنا أم ملك؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم. قال قائل: يا أمير المؤمنين.. إن بينهما فرقا، فان الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا.. فسكت عمر.

وقال عمر لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين – اى أرض الدولة الإسلامية وان كانت لذمى غير مسلم – درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حق، فأنت ملك غير خليفة.

هذه هى الثمرة المقصودة، أن رسول الله ﷺ قد شرع بأمر من الله للناس فى شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها، فلا يؤخذ من أحد المال إلا بعدل، ولا يتملك إنسان ملكا إلا بحق وعدل، وقبل ذلك لم تكن فى الأرض نظرية للتملك صالحة ولا عادلة، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة، وكان شعار الحكومات قبل الاسلام: الجباية، فأصبح شعار حكومة الإسلام: الهداية.

يقول الدكتور «الفردج. ميكر» عن الحكم الرومانى فى مصر:

«إن حكومة مصر – الرومية – لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة، أو تهذيب نفوسهم، أو إصلاح أمور

أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد الا على القوة ولا يحس بشئ من العواطف على الشعب المحكوم».

ويقول مؤلف «إيران فى عهد الساسانين» عن الوضع فى ايران:

«كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة، واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الأموال.

«إن ما قام به كسرى أنوشروان من إصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكثر منه فى مصلحة الرعية. فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضنك كما كانوا فى السابق.

«كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم، وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يستخدمون مجانا، ويكلفون كل عمل. يقول المؤرخ «اميان مارسيينوس»: إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعا من راتب أو أجرة، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة».

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله ﷺ مما نرى نماذجه هنا:

(أ) أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلى أمر المسلمين بعده منها:

«وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء الإسلام، وجباة الأموال، وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم». «وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم».

(ب) وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقيف قال: استعملنى على بن أبى طالب رضى الله عنه على عكبرا فقال لى وأهل الأرض عندى: «إن أهل السواد قوم خدع، فلا يخدعنك فاستوف ما عليهم» ثم قال لى: رح إلى. فلما رجعت اليه قال لى:

إنما قلت لك الذى قلت لأسمعهم، لا تضربن رجلا منهم بسوط فى طلب درهم، ولا تقمه قائما، ولا تأخذن منهم شاة، ولا بقرة إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو.. أتدرى ما العفو؟ الطاقة.

وفى رواية البيهقى: «ولا تبيعن لهم رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجلا قائما فى طلب درهم».

قال: قلت: يا أمير المؤمنين.. إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك.

قال: وإن رجعت كما ذهبت.. ويحك، إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو - يعنى الفضل -.

(جـ) وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبى مالك قال: كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا فى عنبه فخرج عمر رضى الله عنه حتى لقى رجلا من أصحابه أحمل ترسا عليه عنب فقال عمر: وأنت أيضا؟ فقال: يا أمير المؤمنين.. أصابتنا مجاعة. فانصرف عمر رضى الله عنه وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه.

(د) وأخرج الحاكم عن إبراهيم بن عطاء عن أبيه أن زيادا - أو ابن زياد - بعث عمران بن حصين رضى الله عنه ساعيا فجاء ولم يرجع معه درهما، فقال له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتنى؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها فى الموضع الذى كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ.

(هـ) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد:

«أما بعد.. فانك كتبت إلى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت. على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال ان أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف - أى خذ - الحق فاعمل به بالغا بى وبك ما بلغ وإن أحاط بمهج أنفسنا وإن لم ترفع الى من جميع اليمن إلا جفنة من كتم فقد علم الله أنى بها مسرور، إذا كانت موافقة للحق.. والسلام».

(و) وأخرج ابن عساكر والواقدى عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى رضى الله عنهما قال: لما قدمنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم، فسأل عنه فقيل: هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف، فوضع

عنه عمر رضى الله عنه الجزية التى فى رقبته وقال: كلفتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال.

وفى رواية أبى عبيد وابن زنجويه والعقيلى عن عمر رضى الله عنه أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال: ما أنصفناك إذا كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك. ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

(ز) وأخرج عبد الرازق عن سعيد بن المسيب قال: «أراد عمر رضى الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فيزيدها فى المسجد، فأبى العباس أن يعطيها إياه، فقال عمر: لآخذنها. قال: فاجعل بينى وبينك أبى بن كعب رضى الله عنه. قال: نعم، فأتيا أبيا فذكرا له فقال أبى: أوحى الله الى سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام أن يبنى بيت المقدس وكانت أرضا لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال: الذى أعطيتنى خير أم الذى أخذت منى؟ قال: بل الذى أخذت منك. قال: فإنى لا أجيز ثم اشتراها منه بشئ أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثا فاشترط عليه سليمان عليه الصلاة والسلام أنى أبتاعها منك على حكمك فلا تسألنى أيهما خير؟ قال: فاشتراها منة بحكمه فاحتكم اثنى عشر ألف قنطار ذهبا فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله إليه: «إن كنت تعطيه من شئ هو لك فأنت أعلم وان كنت تعطيه من رزقنا فاعطه حتى يرضى». ففعل. قال: وأنا أرى أن عباسا أحق بداره حتى يرضى. قال العباس: فاذ قضيت لى فإنى أجعلها صدقة للمسلمين».

وفى رواية: فقال أُبى لعمر: ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه. فقال له عمر: أرأيت قضاءك هذا فى كتاب الله وجدته أم سنة رسول الله ﷺ؟ فقال أبى: بل سنة رسول الله ﷺ. فقال عمر: وما ذاك؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان سليمان بن داوود ﷺ لما بنى المقدس جعل كلما بنى حائطا أصبح منهدما فأوحى الله إليه: أن لا تبنى فى حق رجل حتى ترضيه. فتركه عمر فوسعها العباس رضى الله عنهما - بعد ذلك فى المسجد.

وأخرج ابن جرير الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى فقال: افتتحنا الاسكندرية

فى خلافة عمر رضى الله عنه فذكر الحديث وفيه: ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو رضى الله عنه وفيه:

«أما بعد.. فإنه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فىء يقسم ثم كأن لم يكن، فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه ضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به».

قال: فبعث عمرو الى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين قال فقال: قد فعلت. قال: فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام والنصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى اشد من تكبيرنا حين نفتح القرية. قال: ثم نحوزه إلينا واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله ابن عبد الرحمن قال القاسم: وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد قال: فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه واخوته فى النصارى فاختار الإسلام فحزناه إلينا ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفا كما ترى.. فذكر الحديث.

إن نقل الدولة من دولة جباية ظالمة، إلى دولة هداية كاملة، مع مرافقة نظرية فى التملك والحقوق فى الملك لا مثيل لها فى تاريخ العالم، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ وإذا لم يكن رسم طريق التملك العادل الذى ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام، والحقوق التى فى هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين.. بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذى لا باطل معه. إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة، فما هى ثمار النبوة؟ ان محمدا رسول الله لاشك فى هذا ولا ريب.

تاسعا وعاشرا - جهاد وحرية:

وثمرة تاسعة:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

اذن هى الحرية الدينية لغير المسلمين فى ظل دولة الإسلام.

فقد أعطى الإسلام الحرية للناس فى عقائدهم إذا خضعوا لحكم الإسلام ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب، فهذا لا حرية له، وما عدا هذا فما عرف الناس مكانا يأمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام. والدليل على ذلك واضح، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضا فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة. إنك لا تجد مثلا مسلما واحدا فى أسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليونا، بينما تجد نصارى فى بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين، وتجد يهودا، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثرية فى الهند مع أن المسلمين حكموا ثمان مائة سنة، وهكذا تتكرر الظاهرة فى كل مكان.

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الإسلام، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين، وأعلنوا أن هذا لا يجوز فعدل عن فكرته.

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة وجد سعة صدر المسلمين وتسامحهم، وعلم أن دعوة الإسلام لم تسلك طريقها إلى القلوب الا عن طريق الاقناع والمعاملة الحسنة، والايمان بالقيم العظيمة الموجودة فى هذا الدين، واقرأ نص المعاهدة التى كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجد هذا المعنى واضحا، وهذا نص المعاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان، أمان لأنفسهم وكنائسهم وصلبنانهم سقيمها وبرها، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء أحد من اليهود. وعلى

أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم اللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية، ومن أحب من ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعتهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم، وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء رجع إلى أرضه. وأنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية» شهد على ذلك من الصحابة رضى الله عنهم: خالد بن الوليد رضى الله عنه وعمرو بن العاص رضى الله عنه وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .. ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك.

يقول البطريرك «عيشويابه» عام ٦٥٦ هجرية:

«إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون».

ويقول «مكاريوس» بطريك أنطاكية: «أدام الله بناء دولة الترك خالدة إلى الأبد. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين، أم ناصريين، يهودا أو سامرة».

ويقول أرنولد: حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية.

ويقول: وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر.

ويقول ريتشارد ستيبر من أبناء القرن السادس عشر: وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب.. سمحوا للمسيحيين جميعا للاغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن

منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنتى عشرة عاما قضيتها فى أسبانيا اننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل إنا فى خطر على حياتنا وسلفنا.

وحتى الجزية التى هى من جانب رمز للخضوع لسلطان الاسلام، هى من جانب آخر رمز على الحرية الدينية، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين، فى مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم فى الحروب، وفى ذلك منتهى العدل. إذ القتال فى الإسلام قتال عقيدى. فالمسلم الذى يقاتل انما يقاتل بوحى من إسلامه وعقيدته، وفى سبيل ربه ودينه. فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا فى هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها، وذلك منتهى الظلم، وخاصة إذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم. فالجزية إذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا، وجزء متمم لحريتهم ، بدليل أنه حدث فى التاريخ الاسلامى أن ناسا من غير المسلمين شاركوا فى جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمون الجزية.

وحتى العقوبة الصارمة التى فرضها الإسلام على المرتدين عن الإسلام وهى القتل، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الإسلامية فى الأرض الاسلامية من جانب. إذ غير المسلم عندما يعلم ان الدخول فى الاسلام باختياره، ولكنه اذا دخل وخرج فجزاؤه القتل، فذلك يجعله يفكر كثيرا قبل اعتناقه الاسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل.

قارن هذه الحرية المعطاة لغير المسلمين فى الأرض الإسلامية، فى عقائدهم وديانتهم، بما يفعل الآخرون حديثا وقديما من إجبار الإنسان على تغيير عقيدته، أو قتله أو سجنه، أو تعذيبه أو اضطهاده، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته، أو يحال بينه وبين من يمكن أن يلقنه دينه، وتجد فى ذلك مآسى وحوادث تثير شجن الإنسان. لكن لو درست التاريخ الإسلامى، فانك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين:

يذكر صاحب كتاب «كشف الآثار فى قصص أنبياء بنى إسرائيل» وهو كتاب صاحبه نصرانى:

١- أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة، ثم أمر امبراطور الروم فى القرن الخامس أن يخرج اليهود من الاسكندرية التى كانت مأمنهم.. وأمر بهدم كنائسهم، ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم، وعدم نفاذ الوصية ان أوصى أحد منهم لأحد فى ماله، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيرا « ص٢٧ ».

٢- ان يهود بلدة أنطيوح لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعضاء البعض وقتل البعض، وأجلى الباقين كلهم، وظلم الامبراطور الرومانى اليهود الموجودين فى المملكة كلها، وأجلاهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا إلى أقصى حد فى أوروبا، ثم بعد مدة كلفوا فى أسبانيا ان يقبلوا شرطا من شروط ثلاثة: أن يقبلوا المسيحية، فان أبوا عن قبولها يكونون محبوسين، وإن أبوا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حدث فى فرنسا (٢٨).

٣- ومن القوانين التى أصدرها الكاثوليكيون: ولا يجوز الأكل مع اليهودى ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص٢٩)

٤- وقد ثبت تاريخيا أن اليهود أجلوا من فرنسا سبع مرات (ص٣٠، ٣١).

٥- وحدث لهم فى النمسا وأسبانيا وبريطانيا من القتل والطرد والاكراه الكثير، وقد أجلى إدوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفا من اليهود بعد ان نهب أموالهم (ص٣٢).

ويذكر توماس نيوتن فى كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة: ان النصارى عندما فتحوا بيت المقدس فى الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين.

ونقول: ان المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا إنسانا واحدا بعد الفتح.

وأصدر الملك لويس الحادى عشر سنة ١٧٢٤ قانونا يقول فيه: ان الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة، وكل واعظ يدعو إلى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت.

وقتل فى فرنسا فى مذبحة واحدة وهى الشهيرة بمذبحة برتولماوس واحدا وثلاثين ألفا من البرتستانت .

وقتلت محاكم التفتيش حرقا بالنار حوالى مائتين وثلاثين ألفا، والذني قتلوا بالسيف وبالآت التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبق فى أسبانيا من الثلاثين مليونا من المسلمين مسلم واحد، كلهم غدر بهم فمن قتيل أو طريد أو مكره على تغيير دينه .

إن إعطاء الانسان الحرية الكاملة فى أمر اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأى واسطة من وسائط الاكراه، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ . ما كانت لتكون لو لا الوحى . إن العرب هذا الشعب القاسى، كان يمكن أن يمثل فى حال النصر الدور الذى مثله التتار من بعد . قتل جماعى، ومحو للحضارة، ولكن العرب على العكس من ذلك . مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة، وهذا ليس من أخلاقهم فى الأصل لو لا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله ﷺ .

بل إن عملية الجهاد المستمر، والتضحيات الكثيرة الى بذلت فيه من أجل إخضاع العالم لسلطان الله، مع اعطاء الفرد الحرية فى البقاء على دينه أو الانتقال منه الى الإسلام دين الله الحق، بالاقتناع الكامل، دليل كامل على أن محمدا ﷺ رسول الله .

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة، تصوراتهم معكوسة تماما . إن حرب الأنبياء وحدها هى المعقولة فى العالم، اذ أن الحياة البشرية لا تستقيم إلا على قانون الله وشريعته . فما لم يكن العالم خاضعا لسلطان الله، فإن العالم تمزقه بمن فيه وقتذاك أهواء البشر، أما إذا خضع لسلطان الله المتمثل بعباده المستقيمين الصالحين، وشريعة الله، فان فى ذلك صلاحه . وكما قدمنا فلا يعنى إخضاع البشر لسلطان الله إجبارهم على الدخول فى دين الله .

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد فى سبيل الله : إما ملحدون، وهؤلاء

أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذى يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحوش. فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل إقامة الحكم الشيوعى تسعة عشر مليونا. وأما أهل دين: كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فان فى التوراة التى يؤمن بها جميعهم نصوصا كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا فى سبيل الله، وفى الانجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد:

١- مذكور فى كتاب المشاهدات الباب (١٩) والرسالة الثانية الباب الثانى لأهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان: أن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله. أى قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضا.

٢- وفى سفر التثنية (١٠): وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولا إلى الصلح فإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذى بها يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية. وان لم ترد تعمل معك عهدا وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت واذا سلمها الرب إلهك بيدك اقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان فى القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها. وكل من سلب أعدائك الذى يعطيك الرب إلهك. وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جدا. فأما القرى التى تعطى أنت إياها فلا تستحيى منها نفسا البتة ولكن أهلكهم هلاكا كلهم بحد السيف. الحيثى والآمورى والكنعانى والفرزى والحوابى والبابوسى كما أوصاك الرب الهك.

٣- وفى الباب الثانى عشر من سفر صموئيل الثانى هكذا (٢٩): فجمع داوود الشعب وسار إلى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه.

والنصوص عندهم فى هذا كثيرة تجدها فى سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (٤٣) وفى الباب الرابع والثلاثين منه (١٠) وفى سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفى سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (٨) وفى سفر الملوك الباب الثامن عشر (٢٠) وغيرها وغيرها كثير. يقول بولس المقدس عند النصارى فى الرسالة العبرانية الباب الحادى عشر فقرة (٣٢): وماذا أقول أيضا لأنه يعوزنى الوقت أن

أحدث عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداوود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود أطفأوا النار، نجوا من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء فى الحرب هزموا جيوش غرباء.

وأخيرا الجهاد فى سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة، وعدم إكراه الناس على الدخول فى الاسلام ثمرة أخرى، وكلتاهما تشهد أن محمدا رسول الله ﷺ.

وهذه الثمار كلها غيض من فيض، وإلا فإن ثمار النبوة كثيرة تعجز الإنسان عن الإحصاء. وحيثما نظرت فى الإسلام دلك الإسلام على أنه دين الله رب العالمين، وأن محمدا رسول الله هذا الإله العظيم وأنه المبلغ عنه.

وإلى الباب الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه السلام.

* * *

الباب الخامس

البشارات

(١)

إن القرآن الكريم ذكر بوضوح وفى أكثر من سورة أن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦-١٥٧] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

إن ظاهرة عامة كنبوة سيدنا محمد ﷺ للعالمين جميعا، ويترتب عيها معانى كثيرة من وحدة للانسانية وتوحيد دينها . تحتاج إلى مقدمات ومبشرات توجد استعدادا عاما عند الناس لها .

* * *

والدارس للنصوص التاريخية التى تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثنائها يلاحظ ملاحظة هامة، هى أن الناس فعلا الذين كان لهم صلة بكتاب سماوى كان واضحا فى أذهانهم أنه سيبعث نبى، وكانوا يرتقبون ظهوره، وأن بعضا من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبى ﷺ .

فمن ذلك قصة سلمان الفارسى كما تذكرها روايات كثيرة، وتنقله من عالم إلى عالم فى النصرانية، حتى دله آخرهم على الترقب لنبى كاد أن يبعث من أرض العرب، وذلك سبب مجيئه الى أرض العرب وسكناه فيها .

ومن ذلك القصة التى يرويها البخارى عن أبى سفيان عندما استدعاه هرقل فى بلاد الشام إذ يقول هرقل فى آخرها : « وقد كنت أعلم أنه خارج نبى ولم أكن أظن أنه منكم » .

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيى أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

« لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء، غدا عليه أبى حيى بن أخطب وعمى أبو ياسر مغلسين، فلم يرجعا حتى كاد غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم، فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو؟ - أى المبشر به فى التوراة - قال : نعم والله، قال : أتثبته وتعرفه . قال : نعم . قال : فما فى نفسك منه؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبدا » .

ومن ذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام فى سيرته : قال ابن إسحاق : وكان من حديثه كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبرا عالما قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء فى بنى عمرو ابن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى

جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى: خيبك الله.. والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت. قال فقلت لها: أى عمة.. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به، قال فقالت: فذاك إذن. قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت الى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا..

ومن ذلك قصة النجاشى وموقفه من أصحاب السيد الرسول ﷺ فى هجرتهم إليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لإخراجهم:

«.. أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر به عيسى فى الإنجيل».

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبى وكان ذلك من جملة العوامل التى جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للايمان:

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة رضى الله عنه، وكان من أصحاب بدر قال: كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم، قال: نعم والذى يحلف به وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا. فقالوا له: ويحك.. وما آية ذلك ؟ قال: نبى يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده الى مكة واليمن. قالوا: ومن يراه؟ فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنا فقال: أن يستنفد - أى يستكمل - هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا ﷺ وهو - أى ذلك اليهودى - بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغيا وحسدا فقلنا له: ويحك يا فلان.. ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت. قال: بلى، ولكن ليس به.

* * *

(٣)

وعلى كل حال فإن وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيرا، وانتشارها واسعا، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما له علاقة بهذه الحقيقة. هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حرفت وبدلت، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولواقعها التاريخي، ويكفى كبرهان عملى على تحريف أحدثها وأقربها إلينا «الإنجيل» أن الإنجيل الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحيانا وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفى سندها التاريخى شك.

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار، جمعوا بين معرفة اللغات، ومعرفة الديانات، فتخرج معهم الشئ العجيب الذى لا يدع مجالا لانسان يحترم عقله أن يشك بأن هناك بشارات بمحمد النبى العربى قبل ميلاده بمئات السنين، ونحن هنا ناقلون نماذج من هذه الدراسات، وسيرى أى منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا فى فهم النصوص ولا حملوها فوق ما تحتمل. بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه، هو الاعتساف والتحريف، وتحميل النصوص ما لا تحتمل، وكتمان للشهادة ونأى عن الحق:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦] .

* * *

(٤)

يقـول العقـاد:

من هذه الدراسات كتاب باللغة الانجليزية ألفه «مولانا عبد الحق قديارتى» وسماه «محمد فى الأسفار الدينية العالمية» واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة، ولا نذكر أننا اطلعنا على شواهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من اتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية.

يقول الأستاذ عبد الحق: إن اسم الرسول العربى «أحمد» مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى، ونصفها : «إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس». ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البوهميين بل ينقل عن أحدهم «سينا أشاريا» أنه وقف عند كلمة احمد فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى «أهم» و «آت» و «هى» وحاول أن يجعلها تفيد «إننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى» قال الاستاذ عبد الحق ما فحواه: إن العبارة منسوبة إلى البرهمى «فاتزا كانفا» من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه.

فى مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبى محمد ﷺ مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم «سشرافا» الذى ورد فى كتاب الآثار «فافيدا».

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب «زندافستا» نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت» ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة «أبا لهب» ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفؤا أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة.

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه فى الإسلام: أحد صمد ليس كمثله شئ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية، تنبئ عن دعوة الحق التى يجئ بها النبى الموعود، وفيها إشارة إلى البادية العربية، ويترجم نبذة منها إلى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف: «ان امة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار فى هياكلهم، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ

وهى الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم، وأن نبيهم ليكون فصيحا يتحدث بالمعجزات».

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى الى فقرات من كتب العهد القديم، والعهد الجديد، فقال: إن النبى عليه السلام هو المقصود بما جاء فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم».

وجاء بالنص العبرى كما يلى: «ويومر يهووه مسيناتى به وزارح مسعير لامو هوفيع مهرباران وأتامر ببوث قودش حيميفو أيش داف لامو».

فترجمة هذا: «أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم».

وقال: إن الشواهد القديمة جميعا تنبئ عن وجود فاران فى مكة وقد قال المؤرخ «جيروم» واللاهوتى «يوسبيوس»: إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من أيلة.

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١: «أن إسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امراة من أرض مصر» ثم قال: إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه: «إن بنى إسرائيل ارتحلوا من برية سيناء، فحلت السحابة فى برية فاران» ولم يسكن أبناء إسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال: إن جبل فاران واقع الى غربها. ولم يحدث قط أن نبيا سار بقيادة عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام، و«قوديش» تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الأخيرة.

كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم فقول موسى الكليم: إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم. يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء إبراهيم تقدمه فى الزمن ا.هـ - نقل هذا المقطع من كتاب العقاد «مطلع النور» باختصار بعض جمله - .

* * *

(٥)

ومن هذه الكتب التى قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية للكتب الدينية اليهودية والنصرانية: كتاب اسمه «إظهار الحق» لـ «رحمت الله بن خليل الهندى» ولعل هذا الكتاب أعظم دراسة نقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات أتباع هاتين الديانتين على الديانة الإسلامية، بحيث يرى أى دارس منصف للكتاب أن يهود اليوم ونصارى اليوم والسابقين لهم إلى فترات طويلة من الزمان ليسوا على شئ، وأن الإسلام وحده هو الذى يصح أن يسمى دينا، فهو وحده دين الله الحق فى هذا الزمان.

ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا، ثم نأخذ منه ما لم علاقة فى بحثنا من نصوص لا زالت موجودة – رغم التحريف والتبديل – تبشر بنبوة محمد ﷺ.

وقارئ الكتاب يحس إحساسا يقينيا أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تمكنا تاما، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه أهلهما من تفاسير أو شروح أوتعليقات عليهما. وكتب كتابه بعد ذلك. وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الإسلام مهاجمات عنيفة فى الهند أثناء الاحتلال البريطانى، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين، وكان من آثار هذا التصدى أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلاطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر رجالات الهند. كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه الحجة ولما يتم النقاش فى المسائل المقرر نقاشها.

والكتاب يناقش المسائل التى أثارها المبشرون النصارى وهاجموا بها الإسلام وهى:

١– أن دعوى القرآن بأن فى التوراة والانجيل تحريفا وأن اليهود والنصارى حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة.

٢- أن بعض آيات القرآن منسوخة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس من عند الله لأن احكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل.

٣- أن الله ثلاثة: الآب والابن وروح القدس، والإسلام يدين بوحدانية الله ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد.

٤- أن القرآن كلام محمد ﷺ وليس كلام الله المنزل وتشكيكهم فى طريقة جمعه وتواتره.

٥- إنكارهم نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء.

والكتاب ناقش هذه المسائل الخمس مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة فى باب وزاد بابا سادسا تناول فيه العهدين القديم والجديد مع مقدمة وبحث فى كل منها ما يلى:

(أ) المقدمة وتشمل ثمانى ملاحظات عامة بين يدى الكتاب يذكر فى بعضها مراجع الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت، ويذكر بعض عادات المبشرين فى بعضها ويعتذر فى بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم يستعملون أشد منها مئات المرات.

(ب) الباب الأول: تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من أبوابهما، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم فى كلتا الديانتين سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما فى كتب العهدين من الاختلاف والأغلاط، وبين أن ادعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم الهامية، ادعاء باطل، وساق برهانا على هذا البطلان سبعة عشر وجها لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق بينها، ثم إن الكاثوليك والبروتستانت يختلفون فى الاعتراف ببعض هذه الكتب، فما يعترف به الكاثوليك ينكره البروتستانت والعكس بالعكس.

(جـ) الباب الثانى: أثبت فيه وجود التحريف فى كتب العهدين القديم والجديد مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ [النساء:٤٦]

وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد وكان يأتى هذا التحريف أحيانا بالزيادة وأحيانا بالنقصان، وأحيانا بالتبديل اللفظى، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا كما ساق على التبديل اللفظى خمسة وثلاثين شاهدا، واكتفى بهذا القدر مخافة الاطالة. أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهدا، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها ببراهين ساطعة، ثم نقل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولا مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم وبلسان علمائهم، وفى ختام هذا الباب أورد أمورا يزول بها استبعاد وقوع التحريف فى كتبهم بل تثبت وقوع التحريف.

(د) البـاب الثـالث: أثبت فيـه بالأدلة القـاطعـة نسخ بعض الأحكام فى الشريعتين الموسوية والمسيحية بعد أن بين ماهية النسخ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى، وأن لفظ النسخ موجود فى كلام قديسيهم، إلى غير ذلك من الأمور الهامة، مبينا أكاذيبهم فى اختصاص الشريعة الاسلامية بالنسخ، مبرهنا على أن النسخ فى اصطلاح الشريعة الاسلامية موجود مثله عند اليهود والنصارى.

(هـ) الباب الرابع: فى إبطال التثليث.

وهذا الباب ينقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول.

١- المقدمة وهى كمدخل إلى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنتى عشرة قضية، ككون التوراة مصرحا فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصريح العهد الجديد والقديم بأن الله ليس كمثله شئ، وأن النصوص المتشابهة محمولة على هذا التنزيه.

٢- الفصل الأول: فى إبطال التثليث بالبراهين العقلية، ويأتى على ذلك بسبعة براهين كلها دامغة فى استحالة التثليث من الناحية العقلية.

٣- الفصل الثانى: فى إبطال التثليث بأقوال المسيح، ويأتى فيه باثنى عشر قولا عن السيد المسيح من الإنجيل الحالى، كلها تثبت أن المسيح دعا إلى التوحيد الخالص وأنه رسول فقط وكمثال:

(أ) من إنجيل يوحنا إصحاح سابع جملة (٣): «وهذه هي الحياة الأبدية ان يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته».

(ب) فى الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا: «.. (١٦) وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية. (١٧) فقال له: لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله».

٤- الفصل الثالث: فى مناقشة النصوص الإنجيلية التى يتمسك بها المثلثون وإثبات أن فهمهم لها خاطئ هذا على فرض ثبوتها ومن المؤكد تاريخيا بطلان بعضها.

فمثلا يعتمدون على إطلاق كلمة ابن الله فى الإنجيل على مرادهم مع ان الانجيل نفسه يطلقها على كل صالح «طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون» (انجيل متى باب خامس: ٤٤) «وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات» (٤٥: نفس المصدر)، «لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى» (يوحنا باب ٨:٤٢).

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثليث قد استعمله المسيح على غير ما فهموه فى خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك.

(و) الباب الخامس: أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثنى عشر وجها، وكل وجه كاف لإقامة الحجة، وناقش الشبهات التى يذكرها بعض المبشرين، وتحدث بعد ذلك على السنة وثبوتها، وبرهن على وجود الروايات اللسانية عند اليهود والنصارى التى سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزا فى موضوع النقل إذا كان لصالح الشريعة. أما المسلمون فعلى عكس هذا تماما، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد فى العالم عرف أو سيعرف هونقد علماء السنة للوصول الى الحديث الصحيح.

(ز) الباب السادس: أثبت فيه نبوة سيدنا محمد ﷺ ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسس الذين هاجموا الإسلام أو ادعوا أنهم توهموه وقسم الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: فى إثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل، كل سبيل يؤدى إلى إقامة الحجة بأن محمدا ﷺ رسول الله.

١- معجزاته.

٢- أخلاقه.

٣- كمال شريعته.

٤- انتصاره.

٥- حاجة الناس إليه وإلى شريعته.

٦- تبشير الأنبياء السابقين عليه بنبوته عليه السلام.

الفصل الثانى: فى دفع المطاعن التى يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد، وأنبياء العهدين ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فإنه يذكر المطاعن التى وجهوها الى السيد الرسول ﷺ. ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها، وأكثر من هذا يثبت أن بيتهم كله من زجاج، وأن ما يذكرونه فى العهدين فى حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلا عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مذمة.

ويبدأ الفصل فى ذكر تصوراتهم الفاسدة فى نصوصهم المحرفة عن الرسل، وما يتكلمون فى حقهم من الكلام القبيح، كنسبة الزنا إليهم والمعاصى، ويأتى هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمه مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين، فإذا كان هذا مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأى شئ يعترضون على محمد ﷺ ولم يقع فى أدنى ما ذكروه عن رسلهم كذبا.

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحدا واحدا:

المطعن الأول: فى عملية الجهاد الإسلامى وكيف أنهم يرون أن ذلك متناف مع مقام الرسالة، ويذكر للرد على هذا الطعن خمسة أمور:

١- حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم فى الدنيا والآخرة، ويذكر ذلك عن كتبهم.

٢- أن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذراريهم ، ويأتى كدليل على ذلك بعشرات الشواهد من العهد القديم المعترف عليه عندهم.

٣- أن الجهاد فى الإسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه فى كتبهم عن عمليات القتال السابقة.

٤- أن عملية الجهاد عندنا لا تعنى الإكراه على الدخول فى الإسلام ولكن تاريخهم هم وخاصة النصارى مليء بجرائم الاغارة على عقائد البشر وإكراههم، ويذكر من ذلك أمثلة تقشعر منها جلود الإنسان. محاكم تفتيشهم، مذابحهم الفظيعة، طريقتهم القذرة فى الحرب، وطريقتنا الرحيمة. إن التاريخ كله ضدهم وكله معنا.

٥- يتحدث عن الجهاد فى الشريعة الاسلامية.

المطعن الثانى: أن محمدا لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبيا ، ويرد على هذا أولا: يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطا عندهم وجود المعجزة للنبى فحتى على صحة دعواهم فليس هذا مطعنا بالنسبة لعقيدتهم، ولكن الحقيقة غير ذلك فان معجزات محمد ﷺ أكثر من معجزات أى رسول ويثبت هذا.

المطعن الثالث: موضوع زواجه ﷺ بكثيرات وخاصة بزينب وتحريم زواج زوجاته بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بثمانية مقاطع:

١- أن الانبياء الذين يعترفون على نبوتهم فى الكتب المعتبرة عندهم تزوجوا أكثر من عدد زوجات الرسول ﷺ بكثير فما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام.

٢- أن قصة زواجه بزينب كما يوردونها باطلة لا أساس لها، وقد ذكرت فى القرآن، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقلوه.

٣- أن التحريم والتحليل بيد الله، ولذلك نجد شيئا تقصه كتب العهدين فعله أنبياء سابقون وحرمه أنبياء لاحقون، وإذ ثبت أن القرآن وحى من الله فما أحله حلال وما حرمه حرام. ورسول الله لم يفعل ما حرمه الله.

٤- أن هؤلاء يطعنون بمحمد ﷺ وما خالف لله أمرا مما ذكر فى القرآن وينسون أن كتبهم تذكر عن رسلهم كذبا أنهم خالفوا الوحى الذى نزل عليهم.

٥- يذكر فى هذا المقطع أمورا فظيعة مذكورة فى كتبهم تجرح مقام عيسى وحوارييه وحاشاهم من كلام هؤلاء الأتباع المارقين وكذلك مما حدث فى تاريخ كنائسهم من الاثم والزنا والفجور مما لا يطيق أحد أن يسمعه.. أفيطعنون بعد ذلك بنا وبماذا؟ ونحن أطهر أهل الأرض ذيلا.

٦- خطؤهم فى فهم بعض الآيات القرآنية.

٧- إذا صدر للنبى أمر ولم يفعله يكون عاصيا، أما إذا فعل شيئا مباحا له فى الأصل فلا حرج فإذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه.

٨- يذكرون فى كتبهم أن هوشع النبى أمره الله أن يتزوج بزانية وأن يتعشق بامرأة فاسقة محبوبة لزوجها - وحاشاه - وأمثال هذا كثير فى كتبهم ويذكر بعضا منه فكيف ينكرون على محمد ﷺ زواجه بزينب بعض طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله، ويذكر فى ذلك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعض أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم، ومحمد رسول الله . فاذا خص بحكم فأى وجه للطعن عليه مع ملاحظة تفرده بكل كمال مما لا تتطاول إليه أعناق الرجال.

المطعن الرابع: يدعون فيه أن محمدا أذنب والمذنب لا يكون رسولا ويرد على كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول ﷺ عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنبا قط.

وبذلك ينتهى الكتاب، والكتاب فى الحقيقة أنفس كتاب فى علمنا، ناقش الديانة النصرانية واليهودية نقاشا دقيقا فى النصوص والمضمون معتمدا على كلام علمائهم نفسه، وفى تصورنا أن أى منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كله مضطر لنبذ دينه والدخول فى الإسلام.

ونبدأ الآن بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب السادس لأنه هو المقصود هنا، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكان الذى تم فيه حذف نشير إليه بثلاث نقط وكل ما نذكره هنا هو كلامه بنصه:

قال في المسلك السادس من مسالكه لإثبات نبوة محمد عليه السلام تحت عنوان : اخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ما يلي :

ولما كان القسيسون يغلطون العوام في هذا الباب تغليطا عظيما إستحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أمورا ثمانية تفيد للناظر بصيرة «الأمر الأول» أن الأنبياء الاسرائيلين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش واسكندر وخلفائه، وحوادث أرض آدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذى كان وقت ظهوره، كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تتآوى طيور السماء فى أغصانها، فكسر الجبابرة والأكاسرة، بلغ دينه شرقا وغربا، وغلب الأديان وامتد دهرا بحيث مضى على ظهوره ومولده ألف ومائتين وثمانين الى هذا الحين، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا، وظهر فى أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين، والحكماء المتقين، والأولياء ذوى الكرامات والمجاهدات والسلاطين العظام، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما . فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الأخبار عن الحادثة العظيمة .

«الأمر الثانى» أن النبى المقدم إذا أخبر عن النبى المتأخر لا يشترط فى إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية فى السنة الفلانية فى البلد الفلانى، وتكون صفته كيت وكيت، بل يكون هذا الاخبار فى غالب الأوقات مجملا عند العوام، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبى اللاحق أن النبى المتقدم أخبر عنه، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامة النبوة، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب، ولذلك يعاتبون ، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله : «ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتوهم» كما هو مصرح به فى الباب الحادى عشر من إنجيل لوقا .

«الأمر الثالث» : ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايلياء ادعاء باطل لا أصل له، بل كانوا منتظرين لغيرهم أيضا لما علمت فى الأمر

الثانى أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا: أنت المسيح؟ ولما أنكر سألوه: أنت إيلياء؟ ولما أنكر سألوه: أنت النبى؟ أى النبى المعهود الذى أخبر به موسى، فعلم أن هذا النبى كان منتظرا مثل المسيح وايلياء وكان مشهورا بحيث ما كان محتاجا إلى ذكر الاسم، بل الاشارة إليه كانت كافية. وفى الباب السابع من إنجيل يوحنا بعد نقول قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبى» ٤١ «وآخرون قالوا هذا هو المسيح» وظهر من هذا الكلام أيضا أن النبى المعهود عندهم كان غير المسيح ولذلك قابلوا المسيح.

«الأمر الرابع»: ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبى بعده باطل لما عرفت فى الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبى المعهود الآخر الذى يكون غير المسيح وايلياء عليهم السلام ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده. وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول فى الآية الخامسة عشر من الباب السابع من انجيل متى هكذا: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثبات الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة» والتمسك به عجيب لان المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضا ولذلك قيد بالكذبة. نعم لو قال احترزوا من كل نبى يجئ بعدى لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك.. فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الانبياء الكذبة والمسحاء الكذبة لا من الأنبياء الصادقين أيضا، ولذلك قال بعد القول المذكور فى الباب السابع: «من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا» ومحمد ﷺ من الأنبياء الصادقين كما يدل عليه ثماره على ما عرفت فى المسالك المتقدمة.

«الأمر الخامس»: الاخبارات التى نقلها المسيحيون فى حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم، ولذلك هم ينكرونه أشد الإنكار والعلماء المسيحية لا يلتفتون فى هذا الباب الى تفاسيرهم وتأويلاتهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق فى زعمهم على عيسى عليه السلام. قال صاحب «ميزان الحق» فى الفصل الثالث من الباب الأول فى الصفحة ٤٦ من النسخة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨٤٩ : «المعلمون القدماء من الملة المسيحية ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط : إن اليهود أولوا الآيات التى كانت إشارة إلى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لائقة وبينوها خلاف الواقع» انتهى . وقوله : ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط غلط يقينا ، لأن المعلمين القدماء كما ادعوا هذه الدعوى أن اليهود حرفوا الكتب تحريفا لفظيا كما عرفت فى الباب الثانى . لكنى أقطع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود فى الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين فى الاخبارات التى هى فى حق محمد ﷺ مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى أن الاخبارات التى ننقلها فى حق محمد ﷺ أظهر صدقا من الاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام . فلا بأس علينا إن لم نلتفت الى تأويلاتهم الفاسدة . وكما أن اليهود ادعوا فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها فى حق مسيحهم المنتظر أو فى حق غيره أو ليست فى حق أحد ، والمسيحيون يدعون أنها فى حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم . فهكذا نحن لا نبالى بمخالفة المسيحيين فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق محمد ﷺ ولو قالوا إنها فى حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضا أن صدقها فى حق محمد ﷺ أليق من صدقها فى حق عيسى عليه السلام فادعاؤنا أحق من ادعائهم . . .

«الامر السادس» : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء فى تراجمهم ويوردون بدلها معانيها وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير فى الكلام الذى هو كلام الله فى زعمهم ، ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الامران بمنزلة الأمور العادية عندهم ومن تأمل فى تراجمهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد لتلك الأمور الكثيرة .

وإذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : إن الاخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضا ، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب ومن عرف أولا طريق إخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر على ما عرف فى الأمر الثانى جزم بأن الاخبارات

المحمدية فى غاية القوة. وأنقل فى هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت ثمانى عشرة بشارة[1]:

البشارة الأولى: «فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا: ١٧ - فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ - وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شئ آمره به ١٩ - ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ - فأما النبى الذى يجترئ بالكبرياء فى اسمى ما لم آمره به بأن يقوله أم باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ - فإن أحببت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب ما تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه». وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هى بشارة محمد ﷺ لعشرة أوجه:

«الوجه الأول»: قد عرفت فى الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام.

«الوجه الثانى»: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ «مثلك» ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولا فلأنهما من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهى هكذا: «ولم يقم بعد ذلك فى بنى إسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجها لوجه» فان قام أحد مثل موسى بعده من بنى إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول..

«الوجه الثالث»: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ «من بين إخوتهم» ولا شك أن الأسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبى المبشر به منهم قال «منهم» لا من بين اخوتهم، لأن

---

(١) بعض البشارات آثرنا عدم نقلها لصعوبة إدراك مضمونها إلا بتأمل طويل.

الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل، كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله هاجر فى حق إسماعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا: «وقبالة بجميع إخوته ينصب المضارب».

وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا: «بحضرة جميع إخوته يسكن» وجاء بهذا الاستعمال أيضا فى الآية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق إسماعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا «منتهى اخوته جميعهم سكن» وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا «أقام بحضرة جميع إخوته» والمراد بالاخوة هاهنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء ابراهيم عليه السلام. وفى الباب الثانى من سفر الاستثناء هكذا «وقال لى الرب: ثم أوصى الشعب أنكم ستجوزون فى تخوم اخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم فلما جزنا اخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير إلخ» والمراد باخوة بنى اسرائيل بنو عيسو ولا شك أن استعمال لفظ اخوة بنى إسرائيل فى بعضهم مفهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجاز ما لم يمنع عن الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى. ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما.

«الوجه الرابع»: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ: «سوف أقيم» ويوشع عليه السلام كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا فى بنى إسرائيل نبيا فى هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ.

«الوجه الخامس»: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ «أجعل كلامى فى فمه» وهو اشارة إلى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب وإلى أنه يكون أميا حافظا للكلام وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه.

«الوجه السادس»: أنه وقع فى هذه البشارة «ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك» فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشر به فلابد أن

يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء فلا يجوز أن يراد به بالانتقام من المنكر العذاب الأخروى الكائن فى جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار نبى بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعى فظهر منه أن هذا النبى يكون مأمورا من جانب الله بالانتقام من منكره فلا تصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزيز والجهاد.

«**الوجه السابع**»: فى الباب الثالث من كتاب الأعمال فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا: «١٩- فتوبوا وارجعوا كى تمحى خطاياكم ٢٠ - حتى إذا تأتى أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١- الذى إياه ينبغى للسماء أن تقبله الى الزمان الذى يسترد فيه كل شئ تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢- ان موسى قال إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من إخوتكم مثلى له تسمعون فى كل ما يكلمكم به ٢٣- ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبى تهلك من الشعب». فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبى غير المسيح عليه السلام وأن المسيح لابد أن تقبله السماء الى زمان ظهور هذا النبى ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل فى عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفى لابطال ادعاء علماء بروتستنت. ان هذه البشارة فى حق عيسى عليه السلام وهذه الوجوه السبعة التى ذكرتها تصدق فى حق محمد ﷺ على أكمل وجه لانه غير المسيح عليه السلام ويماثل موسى عليه السلام فى أمور كثيرة ١، ٢ - كونه عبد الله ورسوله ٣- كونه ذا نكاح وأولاد ٤- كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية ٥- كونه مأمورا بالجهاد ٦- اشترط الطهارة وقت العبادة فى شريعته ٧- وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء فى شريعته ٨- اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز ٩- حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان ١٠- كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية ١١- أمره بحد الزنا ١٢- تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص ١٣- كونه قادرا على إجرائها ١٤- تحريم الربا ١٥- أمره بانكار من يدعو إلى غير الله ١٦- أمره بالتوحيد الخالص

١٧- أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله والعياذ بالله ١٨- موته على الفراش ١٩- كونه مدفونا كموسى ٢٠- وعدم كونه ملعونا لأجل أمته. وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمل في شريعتهما ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ [المزمل:١٥] وكان من اخوة بني إسرائيل لأنه من بني إسماعيل وأنزل عليه الكتاب وكان أميا جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:٣-٤] وكان مأمورا بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والأكاسرة والقياصرة وغيرهم وظهر قبل نزول المسيح...

«الوجه الثامن»: أنه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل، فلو لم يكن محمد ﷺ نبيا حقا لكان يقتل، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضا: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦] وما قتل بل قال الله في حقه: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧].

«الوجه التاسع»: أن الله بين علامة النبي الكاذب أن إخباره عن الغيب المستقبل لا يخرج صادقا. ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلة كما علمت.. وظهر صدقه فيها، فيكون نبيا صادقا لا كاذبا.

«الوجه العاشر» أن علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة ولكن بعضهم أسلم وبعضهم بقي في الكفر...

البشارة الثانية: الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من سفر الاستثناء هكذا: «هم أغاروني بغير اله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة. وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم»، والمراد بشعب جاهل العرب، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر الجارية، فمقصود الآية أن بني اسرائيل أغاروني بعبادة

المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرين وجاهلون فأوفى بما وعد، فبعث من العرب النبي ﷺ فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطاطاليس وأرشميدس وبليناس واقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة.

البشارة الثالثة: في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا: «وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار» فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة، ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال اسماعيل عليه السلام هكذا: «٢٠ - وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرمي بالسهام ٢١- وسكن برية فاران» ولاشك أن إسماعيل عليه السلام كانت سكونته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا فانتشرت في هذه المواضع لأن الله لو خلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا أتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك وقد اعترفوا أن الوحي اتبع تلك في طور سيناء فكذا لابد أن يكون في ساعير وفاران.

البشارة الرابعة: فى الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله فى حق اسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا: «وعلى إسماعيل استجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسيلد اثنى عشر رئيسا وأجعله لشعب كبير». وقوله: أجعله لشعب كبير. يشير إلى محمد ﷺ لانه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره، وقد قال الله تعالى ناقلا دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

البشارة الخامسة: الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين هكذا كما فى الترجمة العربية سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤:

«فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من تحت فخذه حتى يجئ الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم».

وفى الترجمة العربية سنة ١٨١١ هكذا: «فلا يزول القضيب من يهوذا والرسم من تحت أمره إلى أن يجئ الذى هو له وإليه تجتمع الشعوب».

«يذكر المؤلف هنا كلاما طويلا محتواه أن القضيب هنا لا يفسر إلا بالنبوة ويفند كل تفسير آخر مستشهدا بالتاريخ والوقائع المذكورة فى كتب اليهود والنصارى أنفسهم ومقتضى كلامه أن الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم لابد أن يكون محمد عليه السلام ولا يصح أن يفسر به غيره لأنه لو فسرنا أن المقصود بذلك المسيح لكان فهمنا متناقضا من النص إذ المسيح من آل إسرائيل ومن ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية إسرائيل إلى إنسان تجتمع إليه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه السلام».

البشارة السادسة: الزبور الخامس والأربعون هكذا:

«فاض قلبى كلمة صالحة أنا أقول أعمالى للملك (١) لسانى قلم كاتب سريع الكتابة (٢) بهى فى الحسن أفضل من بنى البشر (٣) انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله الى الدهر (٤) تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسنك

وجمالك (٥) استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (٦) نبلك مسنونة أيها القوى فى قلب أعداء الملك الشعوب تحتك يسقطون (٧) كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين عصا الاستقامة عصا ملكك (٨) أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله الهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك (٩) المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التى أبهجتك (١٠) بنات الملوك فى كرامتك قامت الملكة عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى (١١) اسمعى يا بنت وانظرى وأنصتى بأذنيك وانسى شعبك وبنت أبيك (١٢) فيشتهى الملك حسنك لأنه هو الرب الهك وله تسجدين (١٣) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلى كل أغنياء البشر (١٤) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (١٥) يبلغن إلى الملك عذارى فى أثرها قريباتها إليك يقدمن (١٦) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك (١٧) ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (١٨) سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر والى دهر الداهرين» ا.هـ. وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب أن داوود عليه السلام يبشر فى هذا الزبور بنبى يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبى يكون موصوفا بالصفات المذكورة فى هذا الزبور ويدعى علماء بورتستنت أن هذا النبى عيسى عليه السلام ويدعى أهل الإسلام سلفا وخلفا أن هذا النبى محمد ﷺ فأقول إنه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبى المبشر به هذه الصفات (١) كونه حسنا (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركا إلى الدهر (٥) كونه متقلدا بالسيف (٦) كونه قويا (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كونه هداية يمينه بالعجب (٩) كون نبله مسنونة (١٠) سقوط الشعب تحته (١١) كونه محبا للبر ومبغضا للاثم (١٢) خدمة بنات الملوك إياه (١٣) إتيان الهدايا إليه (١٤) انقياد كل أغنياء الشعب له (١٥) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم (١٦) كون اسمه مذكورا جيلا بعد جيل (١٧) مدح الشعوب إياه إلى دهر الداهرين. وهذه الأوصاف كلها توجد فى محمد ﷺ على أكمل وجه. أما الأول فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه». وعن أم معبد رضى الله

عنها قالت فى بعض ما وصفته به: «أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب». وأما الثانى فلأن الله تعالى قال فى كلامه المحكم: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية. وقال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] محمداً ﷺ أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشبع الكلام فى تفسير هذه الآية الإمام الهمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير. وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» أى لا أقول ذلك فخرا لنفسى بل تحدثا بنعمة ربى. وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف، وقال الرواة فى وصف كلامه: انه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الأكمل. وأما الرابع فلأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الاحزاب: ٥٦] وألوف ألوف من الناس يصلون عليه فى الصلوات الخمس. وأما الخامس: فظاهر وقد قال هو بنفسه: «أنا رسول الله بالسيف». وأما السادس: فكانت قوته الجسمانية على الكمال. وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضى الله عنه: «ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله ﷺ» وقال على كرم الله وجهه: «وإنا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب الى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا». وأما السابع: فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له ﷺ كما قال النضر بن الحرث لقريش: «قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم انه ساحر، لا والله.. ما هو بساحر» وسأل هرقل عن حال النبى ﷺ أبا سفيان فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. وأما الثامن: فلأنه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسرا فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه. وأما التاسع: فلأن كون أولاد إسماعيل أصحاب النبل فى سالف الزمان غير محتاج الى البيان وكان هذا الأمر مرغوبا له وكان يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» ويقول: «ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا» ويقول عليه السلام: «من تعلم الرمى ثم

تركه فليس راميا» . وأما العاشر: فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا فى دين الله فى مدة حياته. واما الحادى عشر: فمشهور يعترف به المعاندون أيضا كما عرفت فى المسلك الثانى. وأما الثانى عشر: فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين فى الطبقة الأولى ومنها شهريانو بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الامام الهمام الحسين رضى الله عنه. وأما الثالث عشر والرابع عشر: فلأن النجاشى ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا، وهرقل قيصر الروم أرسل اليه بهدية والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوارى وغلاما أسود وبغلة شهباء وحمارا أشهب وفرسا وثيابا وغيرها. وأما الخامس عشر: فقد وصل من أبناء الامام الحسن رضى الله عنه إلى الخلافة فى أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها.

أما السادس عشر والسابع عشر: فلأنه ينادى ألوف ألوف، جيل بعد جيل فى الأوقات الخمسة بصوت رفيع فى أقاليم مختلفة: «أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» ويصلى عليه فى الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين والقراء يحفظون منشوره والمفسرون يفسرون معانى فرقانه والوعاظ يبلغون وعظه. والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب - أى باب قبره عليه السلام.

البشارة السابعة: فيها: «لأن الرب يسير بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص تفتخر الأبرار بالمجد ويبتهجون على مضاجعهم نرفيع الله فى حلوقهم وسيوف ذات فمين فى أياديهم وانتقامهم من الأمم وتوبيخاتهم ليصنعوا انتقاما فى الأمم وتوبيخات فى الشعوب ليقيدوا ملوكهم بالقيود وأشرافهم بأغلال من حديد ليضعوا بهم حكما مكتوما هذا المجد يكون لجميع الأبرار» .. (لم تتحقق هذه البشارة إلا بالمسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله ولله).

البشارة الثامنة: فى الباب الثانى والأربعين من كتاب أشعيا هكذا:

٩- «التى قد كانت أولاها قد أتت وأنا مخبر أيضا بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم إياها».

١٠- « سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقاصى الأرض راكبين فى البحر وملؤه الجزائر وسكانهن » .

١١- « يرتفع البرية ومدتها فى البيوت تمل قيدار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون » .

١٢- « يجعلون للرب كرامة وحمده يخبرون به فى الجزائر » .

١٣- « الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة بصوت ويصيح على أعدائه بتقوى » .

١٤- « سكت دائما صمت صبرت صبرا فاتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معا » .

١٥- « أخرب الجبال والآكام وكل نباتهن أجفف وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجففهن » .

١٦- « وأقيد العمى فى طريق لم يعرفوها والسبل لم يعلموا أسيرهم فيها أصير أمامهم الظلمة نورا والعقب سهلا هذا الكلام صنعته ولا أخذلهم » .

١٧- « اندبروا إلى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون للمسبوكة إنكم آلهتنا ليخزون خزيا » وظهر من الآية التاسعة أن أشعيا عليه السلام أخبر أولا عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية فى المستقبل فالحال الذى يخبر عنه من هذه الآية إلى آخر الباب غير الحال الذى أخبر عنه قبلها ولذلك قال فى الآية الثالثة والعشرين هكذا : « من هو بينكم ان يسمع هذا يصغى ويسمع الآية » والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التى هى فى الشريعة المحمدية وتعميمها على سكان أقاصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى، إشارة إلى عموم نبوته ﷺ ولفظ قيدار أقوى إشارة إليه لأن محمدا ﷺ فى أولاد قيدار بن اسماعيل . وقوله : « من رؤوس الجبال يصيحون » إشارة الى العبادة المخصوصة التى تؤدى فى أيام الحج يصيح ألوف ألوف من الناس : لبيك اللهم لبيك . وقوله : « حمده يخبرون به فى الجزائر » إشارة إلى الآذان يخبر به ألوف ألوف فى أقطار العالم فى الأوقات الخمسة بالجهر . وقوله : « الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة » يشير الى مضمون

الجهاد اشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خاليا عن حظوظ الهوى النفسانية ولذلك عبر الله عن خروج هذا النبى وخروج تابعيه بخروجه وبين فى الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار فى الآية السادسة عشر إلى حال العرب لأنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله وكانوا يعبدون الاصنام وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة الجاهلية كما قال الله تعالى فى حقهم: ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله: «لا أخذلهم» إشارة الى كون أمته مرحومة ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] والى تأييد شريعته. وقوله: «والمتوكلون على المنحوتة القائلون للمسبوكة إنكم آلهتنا ليخزون خزيا» وعد بأن عابدى الأصنام والأوثان كمشركى العرب وعابدى الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزى والهزيمة التامة ووفى بما وعد فان مشركى العرب وهرقل عظيم الروم وكسرى فارس ما قصروا فى إطفاء النور الأحمدى لكنهم ما حصل لهم سوى الخزى التام وعاقبة الأمر لم يبق أثر الشرك فى إقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلقا وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلقا وأما فى الأقاليم الآخر فمن بعضها انمحى أثره مطلقا كبخارى وكابل وغيرهما ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقا وغربا.

البشارة التاسعة: فى الباب الرابع والخمسين من كتاب اشعيا هكذا: ١ «سبحى أيتها العاقر التى لست تلدين انشدى بالحمد وهللى التى لم تلدى من أجل أن الكثيرين من بنى الوحشة أفضل من بنى ذات رجل يقول الرب» ٢ «أوسعى موضع خيمتك وسرادق مضاربك اسطى لا تشفقى طول حبالك ثبتى أوتادك» ٣ «لأنك تنفذين يمنة ويسرة زرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة» ٤ «لا تخافى لأنك لا تخزين ولا تخجلين فإنك لا تستحيين من أجل إنك خزى صبائك تنسين وعار ترملك لا تذكرين أيضا» ٥ « فانه يتولى عليك الذى صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس إسرائيل إله جميع الأرض يدعى» ٦ «إنما الرب دعاك مثل الامرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال إلهك» ٧ « لساعة فى قليل تركتك وبرحمة عظيمة أجمعك» ٨ « فى ساعة الغضب أخفيت قليلا وجهى عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب» ٩ «مثلما فى أيام نوح لى هذا حلفت له أن لا

أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك »
١٠ « فإن الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك قال رحيمك الرب » ١١ « فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية ها أنذا أبلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير » ١٢ « وأجعل يسبا محاضك وأبوابك حجارة منقوشة وجميع حدودك لأحجار مشتهية » ١٣ « جميع بنيك متعلمين من الرب وكثرة السلام لبنيك » ١٤ « وبالبر تؤسسين فابتعدى من الظلم لأنك لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا تقرب منك » ١٥ « ها يأتى الجار الذى لم يكن معى والذى قد كان قريبا يقترب منك » ١٦ « ها أنا ذا خلقت صائغا الذى ينفخ فى النار جمرا ويخرج اناء لعمله وأنا خلقت قتولا للاهلاك » ١٧ « كل اناء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك فى القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعدلهم عندى يقول الرب » ا.هـ.

فأقول: المراد بالعاقر فى الآية الأولى مكة المعظمة لأنها لم يظهر منها نبى بعد اسماعيل ولم ينزل فيها وهى بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون وكثر فيها نزول الوحى. وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة فى البرية ولذلك وقع فى حق اسماعيل فى وعد الله هاجر « هذا سيكون إنسانا وحشيا » كما هو مصرح به فى الباب السادس عشر من سفر التكوين. وبنو ذات رجل، عبارة عن أولاد سارة فخاطب مكة الله آمرا لها بالتسبيح والتهليل وانشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها، ووفى بما وعد بان بعث محمدا ﷺ رسولا أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها فى أولاد هاجر. وهو المراد بالصائغ الذى ينفخ فى النار جمرا وهو القتول الذى خلق لإهلاك المشركين وحصل لها السنة بواسطة هذا النبى وما حصل لغيرها من المعابد فى الدنيا إذ لا يوجد فى الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد ﷺ إلى هذا الحين والتعظيم الذى يحصل لها من القرابين فى كل سنة من مدةألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين مرة فى عهد سليمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة فى السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ويبقى هذا التعظيم لمكة الى آخرَ الدهر إن شاء الله كما وعد الله بقوله: لا تخافى لأنك لا تخزين ولا تخجلين لأنك لا تستحيين. وبقوله: برحمات عظيمة أجمعك

وبالرحمة الأبدية رحمتك. وبقوله: حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك. وبقوله: رحمتى لا تزول عنك وعهد سلامى لا يتحرك. وملك زرعها شرقا وغربا وورثوا الأمم وعبروا المدن فى مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ومثل هذه الغلبة فى مثل هذه المدة القليلة لم يسمع من عهد آدم عليه السلام إلى زمان محمد عليه السلام لمن يدعى الدين الجديد وهذا مفاد قول الله: وزرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة. سلاطين الإسلام سلفا وخلفا اجتهدوا اجتهادا تاما فى بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما وحفر الآبار والبرك والعيون فى مكة ونواحيها والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الإسلام إلى هذا الحين سيما فى هذا الزمان وألوف من الناس يصلون إليها فى كل سنة من أقاليم مختلفة وديار بعيدة ووفى بما وعد بقوله: «كل إناء مجبول بضدك لا ينجح» لأن كل شخص من المخالف قام بضدها أذله الله كما وقع بأصحاب الفيل...

البشارة العاشرة: فى الباب الخامس والستين من كتاب أشعيا هكذا:

١ «طلبنى الذين لم يسألونى قبل

ووجدنى الذين لم يطلبونى

قلت ها أنذا الى الأمة الذين لم يدعوا باسمى».

٢ «بسطت يدى طول النهار

الى شعب غير مؤمن

الذى يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم».

٣ «الشعب الذى يغضبنى أمام وجهى دائما».

«الذين يذبحون فى البساتين ويذبحون على اللبن» ٤ «الذين يسكنون فى القبور فى مساجد الأوثان يرقدون الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس فى آنيتهم» ٥ «الذين يقولون ابعد عنى لا تقرب منى لأنك نجس هؤلاء يكونون دخانا فى رجزى نارا متقدة طول النهار» ٦ «ها مكتوب قدامى لا أسكت بل أرد وأكافى جزاء فى حضهم» فالمراد بالذين لم يسألونى والذين لم يطلبونى العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطالبين له كما قال الله تعالى

في سورة آل عمران: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشارة الثانية، والوصف المذكور في الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنصارى، والأوصاف المذكورة في الآية الرابعة ألصق بحال النصارى، كما أن الوصف المذكور في الخامسة ألصق بحال اليهود فردهم البارى واختار الأمة المحمدية.

البشارة الحادية عشرة: في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رآها بختنصر ملك بابل ونسي ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا وتفسيرها: ٣١ «فكنت أنت الملك وترى واذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيما ورفيع القامة واقفا قبالك ومنظره مخوفا» ٣٢ «رأس هذا التمثال هو من ذهب ابريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس» ٣٣ «والساقان من حديد والقدمان قسم منهما من حديد وقسم منهما من خزف» ٣٤ «فكنت ترى هكذا حتى انقطع حجر من جبل لا بيدين وضرب التمثال في قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما» ٣٥ «فانسحق حينئذ مع الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر في الصيف فذرتها الريح ولم يوجد لها مكان والحجر الذي قد ضرب التمثال صار جبلا عظيما وملأ الأرض بأسرها» ٣٦ «فهذا هو الحلم وتنبئ أيضا قدامك يا أيها الملك بتفسيره» ٣٧ « أنت هو ملك الملوك واله السماء أعطاك الملك والقوة والسلطان والمجد» ٣٨ «وجميع ما يسكن فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطى بيدك طير السماء أيضا وأجعل الأشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب» ٣٩ «وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك من فضة ومملكة ثالثة أخرى من نحاس وتتسلط على جميع الأرض» ٤٠ «والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميع هكذا هي تسحق وتكسر جميع هذه» ٤١ «أما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخزف الفاخوري وقسما من حديد تكون المملكة مفترقة وإن كان يخرج من نصبة الحديد حسبما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين» ٤٢ «وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة بقسم صلبة وبقسم مسحوقة» ٤٣ «فيما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين انهم يختلطون بزرع

بشرى بل لا يتلاصقون مثل ما ليس بممكن أن يمتزج الحديد بالخزف » ٤٤ « فأما فى أيام تلك الممالك يبعث إله السماء مملكة وهى لن تنقضى قط ملكها لا يعطى لشعب آخر وهى تسحق وتفنى جميع هذه الممالك اجمعين وهى تثبت الى الأبد » ٤٥ « وكما رأيت أن من جبل انقطع حجر لا بيدين وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب فالاله العظيم أظهر للملك ما سيأتى من بعد والحلم هو حقيقى وتفسيره صحيح » ا.هـ.

فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر وبالمملكة الثانية سلطنة المادنين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنصر هو مصرح به فى الباب الخامس من الكتاب المذكور وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة الى سلطنة الكلدانيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك ايران الذى هو بزعم القسيسين كيخسر وتسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون على السلطنة القاهرة فكأنهم كانوا متسلطين على جميع الأرض ، والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومى الذى تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثماية وثلاثين سنة، فهذا السلطان كان فى القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة إلى ظهور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة وقوية تارة وتولد فى عهد انوشيروان « محمد بن عبد الله » ﷺ وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعوه فى مدة قليلة شرقا وغربا وعلى جميع ديار فارس التى كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها، فهذه هى السلطنة الأبدية التى لا تنقضى وملكها لا يعطى لشعب آخر..

فهذا الحجر الذى انقطع لا بيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلا عظيما وملأ الأرض بأسرها هو محمد ﷺ.

البشارة الثانية عشرة: نقل يهوذا الحوارى فى رسالته الخبر الذى تكلم به أخنوخ الرسول.. وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤:

« الرب قد جاء فى ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكت جميع المنافقين على

كل أعمال نفاقهم التى نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذى تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون » .

فجاء محمد فى ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم التبيحة فى الله ورسله فبكت المشركين لعدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقا وعبادتهم الأصنام والأوثان، وبكت اليهود على تفريطهم فى حق عيسى ومريم عليهما السلام، وبعض عقائدهم الواهية وبكت أهل التثليث مطلقا على تفريطهم فى توحيد الله وافراطهم فى حق عيسى عليه السلام، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم الواهية.

البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر :

ملاحظة : لقد تصرفنا هنا فى الكلام فدمجنا البشارات الثلاث وصغناها صياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكنا رأينا أن الموضوع واحد فدمجنا وأحببنا الاختصار.

فى الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا :

٣١ « قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله » ٣٢ « وهى أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها » ا.هـ.

وفى الباب العشرين من انجيل متى هكذا :

١٠ « فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج من الصبح ليستأجر فعلة لكرمه فاتفق مع العملة على دينار فى اليوم وأرسلهم إلى كرمه ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا وخرج ايضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم اذهبوا أنتم أيضا، إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئا من الآخرين إلى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر

وأخذوا دينارا دينارا فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا ديناراً ديناراً وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم منا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب.. ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار فخذ الذى لك واذهب فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى أم عينك شريرة لأنى أنا صالح، هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون».

وفى الباب الثالث عشر من انجيل متى:

«يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرعا جيدا فى حقله».

«يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله».

«يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع».

وفى الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا:

«لذلك أقول إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره»

وفى الباب الثالث من إنجيل متى هكذا:

١١ «وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات».

وفى الباب الرابع من انجيل متى هكذا:

١٢ «ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف الى الجليل من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات».

هذه النصوص كلها تشير الى نبوة محمد عليه السلام.

فالأمة البطالة التى هى الأخيرة والأولى هى أمته.

والأمة التى ورثت ملكوت الله وعملت أثماره هى أمته.

وحبة الخردل التى هى أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هى أمته: وهكذا

لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهما مستقيما إلا إذا طبقتها على محمد رسول الله وأمته.

البشارة السادسة عشرة: فى الباب الحادى والعشرين من إنجيل متى هكذا:

٣٣ «اسمعوا مثلا آخر: كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار أرسل عبيده الى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك، فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابنى، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه»...

٤٠ «فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين» ٤١ «قالوا له: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها» ٤٢ «قال لهم يسوع: أما قرأتم قط فى الكتب: الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا» ٤٣ «لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره» ٤٤ «ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه» ٤٥ «ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون امثاله عرفوا أنه تكلم عليهم» ا.هـ.

أقول: إن رب البيت كناية عن الله والكرم كناية عن الشريعة وإحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهى وأن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود، وكما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام، والابن كناية عن عيسى عليه السلام، وقد عرفت فى الباب الرابع أنه لا بأس باطلاق هذا اللفظ عليه وقد قتله اليهود أيضا فى زعمهم، والحجر الذى رفضه البناؤون كناية عن محمد...

وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه، وما ادعى العلماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه:

الأول: أن داوود عليه السلام قال فى الزبور المائة والثامن عشر **هكذا**:

٢٢ «الحجر الذى رذله البناؤون هو صار رأسا للزاوية» ٢٣ «من قبل الرب كانت هذه وهى عجيبة فى أعيننا» فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داوود عليه السلام فأى عجب فى أعين اليهود عموما لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما فى عين داوود عليه السلام خصوصا لأن مزعوم المسيحيين أن داوود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام فى مزاميره تعظيما بليغا ويعتقد الألوهية فى حقه، بخلاف آل إسماعيل، لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير، وكان كون أحد منهم رأسا للزاوية عجيبا فى أعينهم.

والثانى: أنه وقع فى وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال: «وإن سمع أحد كلامى ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم» كما هو فى الباب الثانى عشر من انجيل يوحنا، وصدقه على محمد غير محتاج إلى البيان لانه كان مأمورا بتنبيه الفجار والأشرار فان سقطوا عليه ترضضوا وان سقط هو عليهم سحقهم.

الثالث: قال النبى ﷺ: «مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه الا موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل» ولما ثبتت نبوته بالأدلة الأخرى كما ذكرت نبذا منها فى المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل فى هذه البشارة بقوله أيضا.

والرابع: أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن.

البشارة السابعة عشرة: فى الباب الثانى من المشاهدات هكذا: ٢٦ «ومن يغلب ويحفظ أعمالى الى النهاية فسأعطيه سلطانا على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أيضا من عند أبى وأعطيه كوكب الصبح، من له أذنان فليسمع ما يقول الروح بالكنائس».

ونصوغ بعض تحليله لهذه البشارة باختصار:

«إن صاحب قضيب الحديد الذى يرعى به الأمم رسول الله ﷺ إذ اجتمع له سلطان الدين والدنيا ولخلفائه الراشدين ودول المسلمين».

والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلى «تياثيرا» كما قال القسيسان «ويت ووليم» اللذان ناظرا صاحب كتاب «صولة الضيغم» وهذه الكنيسة قريبة من القسطنطينية التى حكمها المسلمون من مئات السنين.

البشارة الثامنة عشرة: وهذه البشارة واقعة فى آخر أبواب إنجيل يوحنا وأنا أنقل عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ فى بلدة لندن فاقول فى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا:

١٥ «إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الأبد روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لانه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لانه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم» ٢٦ «والفارقليط روح القدس الذى يرسله الآب باسمى وهو يعلمكم كل شئ وهو يذكركم كل ما قلته لكم» ٣٠ «والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون»...

وفى الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا: ٧ «لكنى أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته اليكم» ٨ «فاذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم» ٩ «أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بى» ١٠ «وأما على البر فلأنى منطلق الى الآب ولستم تروننى بعد» ١١ «وأما على الحكم فان اركون هذه قد دين» ١٢ «وأن لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن» ١٣ «وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتى» ١٤ «وهو يمجدنى لانه يأخذ مما هو لى ويخبركم».

وانا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين:

الأمر الأول: أنك عرفت فى الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم أن يترجموا غالبا الاسماء وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى لا باليونانى، فاذن لا يبقى شك فى أن الانجيل الرابع ترجم اسم المبشر به باليونانى بحسب عادتهم، ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليونانى «بفارقليط» وقد وصلت الى رسالة صغيرة فى لسان أردو من رسائل القسيسين فى سنة ألف ومائتين وثمان وستين

من الهجرة وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكته وكانت في تحقيق لفظ «فارقليط» وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ «فارقليط» وكان ملخص كلامه: أن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني فان قلنا: ان هذا اللفظ اليوناني الأصل باراكلى طوس فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل، وان قلنا إن اللفظ الأصلى بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد واحمد، فمن استدل من علماء الاسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصلى بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلى طوس. انتهى ملخصا من كلامه فأقول: إن التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل بيركلوطوس بـ باركلى طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخر ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ أنهم مصاديق لفظ «فارقليط» مثلا منتنس المسيحى الذى كان في القرن الثاني من الميلاد، وكان مترِاضا شديدا واتقى عهده، ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال إني هو الفارقليط الموعود به الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون، ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ، وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان أردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا:

«إن البعض قالوا إنه ادعى أنى فارقليط، يعنى المعزى روح القدس وهو كان أتقى ومرتاضا شديدا ولأجل ذلك قبله الناس قبولا زائدا» انتهى كلامه.. فعلم أن انتظار فارقليط كان في القرون الأولى من المسيحية أيضا، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم وقال صاحب «لب التواريخ»: «أن اليهود والمسيحين من معاصرى محمد – ﷺ – كانوا منتظرين لنبى فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أنى هو ذاك المنتظر» انتهى ملخص كلامه.

فيعلم من كلامه أيضا أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبى فى زمان النبى ﷺ وهو الحق لأن النجاشى ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد ﷺ «فقال أشهد بالله أنه النبى الذى ينتظره أهل الكتاب» وكتب فى الجواب: «أشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك - أى جعفر بن أبى طالب - وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

وهذا النجاشى قبل الإسلام كان نصرانيا، وكتب المقوقس ملك القبط فى جواب كتاب النبى ﷺ هكذا: «لمحمد ابن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك.
أما بعد..

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك».

والمقوقس هذا وان لم يسلم لكنه أقر فى كتابه أنى قد علمت أن نبيا قد بقى وكان نصرانيا. فهذان الملكان ما كانا يخافان فى ذلك الوقت من محمد ﷺ لأجل شوكته الدنيوية، وجاء الجارود بن العلاء فى قومه الى رسول الله ﷺ فقال: «والله لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق و الذى بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك فى الانجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لك والشكر لن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله» ثم آمن قومه.

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر بك ابن البتول، اى عيسى عليه السلام، فظهر أن المسيحيين أيضا كانوا منتظرين لخروج نبى بشر به عيسى عليه السلام.

فإذا علمت ذلك، فأقول أن اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود ترجمة لكنى أترك البحث عن الأصل وأتكلم عن هذا اللفظ اليونانى وأقول إن كان اللفظ اليونانى الأصل بيركلوطوس فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح فى حق محمد ﷺ بلفظ هو قريب من محمد وأحمد وهذا وإن كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكنى أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزاما، وأقول ان كان اللفظ اليونانى الأصل باراكلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضا

لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعانى كلها تصدق على محمد ﷺ وأنا أبين الآن أولا أن المراد بفارقليط النبى المبشر به، أعنى محمد ﷺ لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال وأذكر ثانيا شبهات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول: أما الأول فيدل عليه أمور:

١- أن عيسى عليه السلام قال أولا: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى» ، ثم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضرورى واجب الرعاية، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأن ما كان مظنونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستفيضين به من قبل أيضا، بل لا مجال للاستبعاد وأيضا لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورا بينا فلا يتصور إنكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم فى صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد فهو عبارة عن النبى المبشر به . فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبى المبشر به عند ظهوره فأكد أولا بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

٢- أن هذا الروح على زعمهم متحد بالأب مطلقا وبالابن نظرا إلى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق فى حقه فارقليط آخر، بخلاف النبى المبشر به فإنه يصدق هذا القول فى حقه بلا تكلف .

٣- أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله - على زعمهم - فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبى المبشر به بلا تكلف .

٤- أن عيسى عليه السلام قال: «هو يذكركم كل ما قلته لكم» ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام . وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

٥- أن عيسى عليه السلام قال: «والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا

كان تؤمنون» . وهذا يدل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت فى الأمر الأول أنه ما كان عدم الايمان مظنونا منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضا فلا حاجة الى هذا القول، فلو أردنا به النبى المبشر به يكون هذا الكلام فى محله وفى غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية.

٦- أن عيسى عليه السلام قال: «هو يشهد لأجلى» وهذا الروح ما شهد لأجله بين يدى أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضا فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم، بخلاف محمد ﷺ فانه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الألوهية الذى هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما فى القرآن فى مواضع متعددة وفى الأحاديث فى مواضع غير محصورة.

٧-أن عيسى عليه السلام قال: «وأنتم تشهدون أيضا لأنكم معى من الابتداء» وهذه الآية فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا: «وتشهدون أنتم أيضا لأنكم كنتم معى من الابتداء» وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦١ هكذا: «وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء» . فيوجد فى هذه التراجم الثلاث لفظ «أيضا» وكذا يوجد فى التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفى ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ «أيضا» فلفظ «أيضا» سقط من التراجم التى نقلت عنها عبارة يوحنا سهوا أو قصدا. فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هى شهادته بعينها. فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبى المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين.

٨- أن عيسى عليه السلام قال: «إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم».

فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين فى حضوره لما

أرسلهم إلى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس مشروط بذهابه فلا يكون مرادا بفارقليط، بل المراد به شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لان وجود رسولين ذوى شريعتين مستقلتين فى زمان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لأنه يجوز فى هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر فى زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام.

٩- أن عيسى عليه السلام قال: «يوبخ العالم» فهذا القول بمنزلة النص الجلى لمحمد ﷺ لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم ايمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه الا معاند بحت، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فان توبيخه لا يصح على أصول أحد، وماكان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون الى الملة بالترغيب والوعظ وما قال «رانكين» فى كتابه المسمى بـ«دافع البهتان» الذى هو بلسان أردو فى رده على خلاصة صولة الضيغم: «إن لفظ التوبيخ لا يوجد فى الانجيل ولا فى ترجمة من تراجم الأنجيل، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينا لأجل أن محمدا ﷺ وبخ وهدد كثيرا إلا أن مثل هذا التغليظ ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله». انتهى كلامه فمردود.

وهذا القسيس إما جاهل غالط أو مغلط ليس له ايمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفظ يوجد فى التراجم العربية المذكورة التى نقلت عنها عبارة يوحنا ومن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا: «ومتى ذاك يبكت العالم على خطية الخ» وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفى التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ و ١٨٤١ يوجد لفظ الالزام، ولفظ التبكيت والإلزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بوتستنت ولذلك ترى أن مترجمى الفارسية وأردو تركوا لفظ «فارقليط» لشهرته عند المسلمين فى حق محمد ﷺ ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فان هؤلاء أسلافه أيضا حيث

أرجع الى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ مؤنث وليس بمذكر.

١٠- قال عيسى عليه السلام: «أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي» وهذا يدل على أن فارقليط يكون ظاهرا على منكرى عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الايمان به، والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهرا على الناس موبخا لهم.

١١- قال عيسى عليه السلام: «إن لي كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن» وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكما على أحكام عيسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله فأى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قال لهم إلى زمان صعوده، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحللوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في حقه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة الذي كان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحا موعودا به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة الى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليط نبي تزاد في شريعته أحكام بالنسبة الى الشريعة العيسوية ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد ﷺ.

١٢- أن عيسى عليه السلام قال: «ليس ينطق من عنده بل يتكلم كل ما يسمع» وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ولا مجال لمظنة التكذيب في حق هذا الروح النازل يوم الدار على أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله: بل يتكلم بما يسمع. فمصداقه محمد ﷺ فانه كان في حقه مظنة التكذيب، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى اليه كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم: ٣-٤] وقال: ﴿ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ [الانعام: ٥٠].

١٣- أن عيسى عليه السلام قال: «إنه يأخذ مما هو لى» وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل، فلابد أن يكون الموعود به من الجنس الذى يكون له كمال منتظر، ولما كان هذا الكلام موهما أن يكون هذا النبى متبعا لشريعته دفعه بقوله فيما بعد: «جميع ما للأب فهو لى فلأجل هذا قلت مما هو لى يأخذ» يعنى أن كل شئ يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل منى كما اشتهر من كان لله كان الله له، فلأجل هذا قلت: ان مما هو لى يؤخذ.

وأما الثانى: أعنى الشبهات التى توردها علماء بروتستنت فخمسة:

الشبهة الأولى: جاء فى هذه العبارة تفسير «فارقليط» بروح القدس وروح الحق وهما عبارتان فى الأقنوم الثالث فكيف يصح أن يراد «بفارقليط» محمد - ﷺ - ؟

أقول فى الجواب: إن صاحب «ميزان الحق» يدعى فى تاليفاته كون ألفاظ روح الله وروح القدس وروح الحق وروح الصدق وروح فم الله بمعنى واحد، قال فى الفصل الأول الباب الثانى من مفتاح الأسرار فى الصفحة ٥٣ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : «إن لفظ روح الله ولفظ روح القدس فى التوراة والإنجيل بمعنى واحد» انتهى.

فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد فى العهدين وقال فى حل الإشكال فى جواب كشف الأستار: «من له شعور ما بالتوراة والانجيل فهو يعرف أن ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله، فلذلك ما رأيت إثباته ضروريا» انتهى.

فإذا ما عرفت هذا القول نحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته هاهنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه لكنا ننكر أن استعمالها فى كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الأقنوم الثالث ونقول قولا مطابقا لقوله: من له شعور ما بكتب العهدين يعرف أن هذه الألفاظ تستعمل فى غير الأقنوم الثالث كثيرة، فى الآية الرابعة عشر من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى فى خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا: «فأعطى فيكم روحى» ففى

هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الإنسانية لا بمعنى الأقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم.

وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا: ترجمة عربية سنة ١٧٦٠: ١ «أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله، لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم».

٢ «بهذا تعرفون روح الله كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله».

٦ «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال».

وهذه الجملة الواقعة فى الآية الثانية: «بهذا تعرفون روح الله» وفى التراجم الأخر هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ «وبهذا يعرف روح الله» ترجمة عربية سنة ١٨٢٥ «فإنكم تميزون روح الله» ولفظ روح الله فى الآية الثانية ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الأقنوم الثالث ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ولفظ الأرواح بالواعظين فى الآية الأولى ولفظ روح فى الآية الثانية بالواعظ من جانب الله، ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بالواعظ الصادق، وترجم لفظ روح الضلال بالواعظ المضل، وليس المراد بروح الله وروح الحق الأقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم وهو ظاهر، فتفسير «فارقليط» بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لأنهما بمعنى الواعظ الحق، كما أن لفظ روح الحق وروح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا فيصح إطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب.

الشبهة الثانية: أن المخاطبين بضمير «كم»: الحواريون فلابد أن يظهر «فارقليط» فى عهدهم ومحمد – ﷺ – لم يظهر فى عهدهم.

أقول هذا أيضا ليس بشئ لأن منشأه أن الحاضرين وقت الخطاب لابد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب، وهو ليس بضرورى فى كل موضع، ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام فى الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى فى

خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا: «وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء» وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا ومضت على موتهم مدة هي أزيد من ألف وثمانمائة سنة وما رأوه آتيا على سحاب السماء، فكما أن المراد بالمخاطبين هاهنا الموجودين من قومهم وقت نزوله من السماء فكذلك فيما نحن فيه.

الشبهة الثالثة: أنه وقع فى حق «فارقليط» أن العالم لا يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه وهو لا يصدق على محمد - ﷺ - لأن الناس رأوه وعرفوه.

أقول: هذا أيضا ليس بشئ وهم أحوج الناس تأويلا فى هذا القول بالنسبة الينا لأن روح القدس عين الله عندهم والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد ﷺ فلابد أن نقول إن المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة، ففى صورة التأويل لا اشتباه فى صدق هذا القول على محمد ﷺ ويكون المقصود أن العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة والمراد بالرؤية المعرفة، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم، بل قال: وأنتم تعرفونه. ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفى الرؤية محمولا على ما هو المراد من قول الانجيل الأول فى الباب الثالث عشر من إنجيله. وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥:

١٣ «فلذلك أضرب لهم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون» ١٤ «وقد كمل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال: إنكم تستمعون سمعا ولا تفهمون وتنظرون نظرا ولا تبصرون» فلا إشكال أيضا وأمثال هذين الأمرين وإن كانت معانى مجازية، لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت فى كلام عيسى عليه السلام كثيرا فى الآية السابعة والعشرين من الباب الحادى عشر من انجيل متى هكذا: «وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن إراد الابن أن يعلن له» وفى الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا: «الذى أرسلنى حق، الذى أنتم لستم تعرفونه» وفى الباب الثامن من إنجيل يوحنا هكذا: ١٩ «لستم تعرفونى أنا ولا أبى، لوعرفتمونى لعرفتم أبى أيضا» ٥٥ «ولستم تعرفونه أى

الله» وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «أيها الآب إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك» وفى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا: «لو كنتم عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» ٨ «قال له فيلبس يا سيد أرنا الآب وكفانا».

٩ «قال له يسوع: أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفنى يا فيليبس الذى رآنى فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب» فالمراد بهذه الأقوال بالمعرفة المعرفة الكاملة وبالرؤية المعرفة وإلا لا تصح هذه الأقوال يقينا لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايخ والحواريين ورؤية الله بالبصر فى هذا العالم ممتنعة عند أهل التثليث أيضا.

الشبهة الرابعة: أنه وقع فى حق فارقليط «انه مقيم عندكم وثابت فيكم» ويظهر من هذا القول ان فارقليط كان فى وقت الخطاب مقيما عند الحواريين وثابتا فيهم فكيف يصدق على محمد - ﷺ.

أقول: هذا القول فى التراجم الأخرى هكذا: ترجمة عربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ «لأنه مستقر معكم وسيكون فيكم» والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ «هكذا ماكث معكم ويكون فيكم» ظهر أن المراد بقوله: ثابت فيكم، الثبوت الاستقبالى يقينا فلا اعتراض به لوجه من الوجوه وبقى قوله مقيم عندكم فأقول: لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لأنه ينافى قوله: «أنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر» وقوله: «قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون» وقوله: «ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط» وإذا أول نقول بمعنى الاستقبال كما أن القول الذى بعده بمعنى الاستقبال ومعناه مقيما عندكم فى الاستقبال فلا خدشة فى صدقه أيضا على محمد ﷺ والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضى فى الأمور المتيقنة كثير فى العهدين، ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج فى الزمان المستقبل واهلاكهم حين وصولهم إلى جبال إسرائيل ثم قال فى الآية الثانية من

الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا: «ها هو جاء وصار يقول الرب الإله هذا هو اليوم الذى قلت عنه» فانظروا إلى قوله: ها هو جاء وصار.. فعبر عن الحال المستقبل بالماضى لكونه يقينا لا شك فيه وقد مضت مدة أزيد من ألفين وأربعمائة وخمسين سنة ولم يظهر خروجهم، وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من إنجيل يوحنا هكذا: «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتى ساعة وهى الآية حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» فانظروا إلى قوله: وهى الآن، وقد مضت مدة أزيد من ألف وثمانمائة ولم تجئ هذه الساعة وإلى الآن أيضا مجهولة، لا يعرف أحد متى تجئ.

الشبهة الخامسة: فى الباب الأول من كتاب الأعمال هكذا: «وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذى سمعتموه منى. لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير» وهذا يدل على أن فارقليط هو الروح النازل يوم الدار لأن المراد بموعد الآب هو فارقليط.

أقول: الادعاء بأن المراد بموعد الآب هو «فارقليط» ادعاء محض بل هو غلط لثلاثة عشر وجها وقد عرفتها، بل الحق أن الإخبار عن فارقليط شئ والوعد بإنزال الروح عليه مرة أخرى شئ آخر وقد وفى الله بالوعدين وقد عبر بالوعد الأول بمجئ فارقليط وهاهنا بموعد الآب، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة فارقليط ولم ينقلها الانجيليون الباقون ولوقا نقل موعد نزول الروح الذى نزل يوم الدار ولم ينقله يوحنا ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون فى نقل الأقوال الخسيسة كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب إلى أورشليم. اتفق على نقله الأربعة وقد يتخالفون فى نقل الأحوال العظيمة. إلا ترى أن لوقا انفرد بذكر إحياء ابن الأرملة من الأموات فى نابين ويذكر إرسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذا، أو يذكر إبراء عشرة برص. ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين مع أنها من الحالات العظيمة، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس فى قانا الجليل وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرا وهذه المعجزة اول معجزاته، وسبب ظهور مجده وإيمان التلاميذ به ويذكر إبراء السقيم فى بيت

صيدا فى أورشليم وهذه أيضا معجزة عظيمة، والمريض كان مريضا من ثمانية وثلاثين سنة، ويذكر قصة امرأة أخذت فى زنا ويذكر إبراء الأكمه وهذا أيضا من أعظم معجزاته وهى مصرحة بهما فى الباب التاسع، ويذكر إحياء العاذار من بين الأموات ولم يذكرها أحد من الإنجيليين مع أنها حالات عظيمة وهكذا حال متى ومرقس فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التى لم يذكرها غيرهما ولما طال البحث فى هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التى نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم فى زماننا ا.هـ.

* * *

(٦)

وهناك كتاب ظهر فى أوروبا وأحدث ضجة وأخذا وردا ثم كانت النتيجة ان رفضه العالم النصرانى بلا مبرر. هذا الكتاب يسمى «انجيل برنابا» والكتاب أعطى قولا فصلا فى المسائل الثلاث الأساسية وهى رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح.

فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب:

١- يذكر التاريخ أن البابا جيلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أى قبل ميلاد الرسول محمد ﷺ بحوالى قرن أصدر أمرا ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها كتاب اسمه «إنجيل برنابا» . إذن من المعروف تاريخيا أن هناك كتابا اسمه «إنجيل برنابا» موجود قبل الاسلام.

٢- وقد عثر لهذا الإنجيل على نسختين: إيطالية وأسبانية أما الأسبانية فقد أقرضها الدكتور «هلم» من هدلى - بلدة من أعمال همبشير - المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكموس أحد أعضاء الكلية الملكية فى أكسفورد فنقلها الى الإنجليزية ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤ الى الدكتور هويت أحد مشاهير الأساتذة ثم بعد ذلك طمس خبرها وامحى أثرها.

وأما النسخة الايطالية فموجودة فى مكتبة بلاط فيينا وأول من عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا وكان مقيما وقتئذ فى امستردام فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير وجهاء المدينة المذكورة فأقرضها كريم طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى البرنس ايوجين سافوى ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكى فى فيينا حيث لا تزال هنالك. وإذن هذا الكتاب فى ورده وصدره أوروبى.

٣- أنه لم يعرف بتاتا عند المسلمين إن هناك كتابا اسمه «انجيل برنابا» قبل ظهوره فى أوروبا ولو أن للمسلمين يدا فى صنع هذا الانجيل لذكروه وحاولوا نشره وكان مشهورا.

٤- يذكر سايل أنه مذكور فى النسخة الأسبانية المفقودة أنها مترجمة عن النسخة الايطالية وفيها مقدمة عن الراهب الذى اكتشف النسخة الايطالية والقصة هى ما يلى: أن الراهب اللاتينى فرامرينو عثر على رسائل لايرينايوس وفى عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولس الرسول وأن أرينايوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب فرامرينو المشار إليه شديد الشغف بالعثور على الإنجيل واتفق أنه أصبح حينا من الدهر مقربا من البابا سكتس الخامس فحدث يوما انهما دخلا معا مكتبة البابا فأخذت البابا سنة من نوم فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت فى المطالعة إلى أن يفيق البابا فكان الكتاب الأول الذى وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه فكاد أن يطير فرحا من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة الثمينة فى أحد ردنيه ولبث إلى أن استفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملا ذلك الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلامى.

٥- إن الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيل له فى كتب العهد القديم وفيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح خفايا فى حياة المسيح عليه السلام وتشابه كثير بين بعض مقاطعه والأناجيل الاخرى كل ذلك يجعل احتمال نسبته إلى برنابا أكبر من أى احتمال آخر.

٦- إن الكتاب لا يوجد فيه ما يشير إلى تأثره بالمفاهيم الإسلامية بتاتا ولا

يوجد فيه ما يشتم منه أن صاحبه قد قرأ القرآن او عرف دين النبى محمد ﷺ مما يؤكد أن الكتاب لم يؤلفه مسلم وأنه كتب قبل الإسلام.

٧- والدارس للكتاب يرى أن له صولة فى تهذيب النفس وترقيتها ويحس صدق العبارة وحرارة الاخلاص فيفتح له الكتاب آفاقا روحية لا يستطيع الإنسان أن يتصور بعدها أن رجلا اختلق هذا الكتاب كذبا وزورا. وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب مما له علاقة ببحثنا من البشارات الصادرة على لسان المسيح به فى رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام:

١- فى الفصل السابع عشر يقول: ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار فيشرق نورا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله أى يبين غامض أقوالهم.

٢- فى الفصل الثالث والأربعين يقول: الحق أقول لكم إن كل نبى متى جاء فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا إليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتى بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا: انظر فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيما، هكذا سيفعل نسلك أجاب يعقوب: يا معلم.. قل لنا بمن صنع هذا العهد فان اليهود يقولون بإسحاق والاسماعيليون يقولون باسماعيل. أجاب يسوع ابن من كان داوود ومن أى ذرية، أجاب يعقوب من إسحاق لأن إسحاق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا الذى من ذريته داوود. فحينئذ قال يسوع: ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون؟ أجاب التلاميذ: من داوود، فأجاب يسوع: لا تغشوا أنفسكم لأن داوود يدعوه فى الروح ربا قائلا هكذا: قال الله لربى اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك فاذا كان رسول الله الذى تسمونه مسيا ابن داوود فكيف يسميه داوود ربا صدقونى لأنى أقول لكم الحق ان العهد صنع باسماعيل لا بإسحاق.

٣- وفى الفصل الرابع والأربعين يقول: لذلك أقول لكم إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريبا لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والمحبة روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى روح اللطف والصبر التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم صدقونى أنى رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبى لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا: يا محمد.. ليكن الله معك وليجعلنى أهلا أن أحل سير حذائك لأنى إذا نلت هذا صرت نبيا عظيما وقدوس الله.

٤- وفى الفصل الرابع والخمسين يقول: فمتى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حى إلا الله وحده الذى له الإكرام والمجد إلى الابد ومتى مرت الأربعون سنة يحيى الله رسوله الذى سيطلع أيضا كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم.. وسيقيم الله أيضا الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله فمتى وجدوه قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراسا له ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله ثم يحيى الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم فى كنف حمايته ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: اذكرنا يا محمد فتتحرك الرحمة فى رسول الله لصراخهم ١٧,٠٠٠ ثم قال يسوع: ارجو الله ألا أرى هذه الهولة فى ذلك اليوم إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده ٢١,٠٠٠ عند ذلك يخاف رسول الله لأنه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يحب ٢٣,٠٠٠ ولكن إذا خاف رسول الله فماذا يفعل الفجار المملؤون شرا..

٥- فى الفصل الثانى والثمانين يقول: ولكن صدقينى أنه يأت وقت يعطى الله فيه رحمته فى مدينة أخرى ويمكن السجود له فى كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية فى كل مكان برحمته. أجابت المرأة: إننا ننتظر مسيا فمتى جاء يعلمنا؟.. أجاب يسوع: أتعلمين أيتها المرأة أن مسيا لابد أن يأتى. أجابت: نعم يا سيد حينئذ

تهلل يسوع وقال: يلوح لى أيتها المرأة أنك مؤمنة فاعلمى أنه بالايمان بمسيا سيخلص كل مختارى الله إذن وجب أن تعرفى مجئ مسيا قالت المرأة: لعلك أنت مسيا أيها السيد. أجاب يسوع: إنى حقا أرسلت الى بيت إسرائيل نبى خلاص ولكن سيأتى بعدى مسيا المرسل من الله لكل العالم الذى لأجله خلق الله العالم، وحينئذ يسجد لله فى كل العالم وتنال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التى تجيء الآن كل مئة سنة سيجعلها مسيا كل سنة فى كل مكان.

٦- وفى الفصل الثالث والثمانين «وبعد صلاة نصف الليل اقترب التلاميذ من يسوع فقال لهم: ستكون هذه الليلة فى زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوى الذى يجئ الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلى».. ولعله أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أى ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مئة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة.. أن سنة اليوبيل التى تجئ الآن كل مئة سنة فى الفقرة السابقة، أن المقصود منها اصطلاح خاص بهذه الليلة.. والله أعلم.

٧- فى الفصل السادس والتسعين: «أجاب يسوع: لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى أنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا».

٨- فى الفصل السابع والتسعين: فقال حينئذ الكاهن: ماذا يسمى مسيا وما هى العلامة التى تعلن مجيئه؟ أجاب يسوع: إن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى قال الله: اصبر يا محمد لأنى لأجلك

أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم اجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن إن اسمه المبارك محمد .

هذه شذرات مما ورد فى هذا الكتاب وإذا ثبت أن الكتاب كان موجودا قبل الإسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقى صحيحا من آثار عيسى . . والله أعلم .

* * *

(٧)

ونختم البحث بنصين كل منهما يدل بما لا يقبل الشك أن النصارى أثناء بعثة محمد رسول الله ﷺ كانوا ينتظرون رسولا أوصافه هى نفس أوصاف السيد الرسول ﷺ :

١- قصة سلمان الفارسى الذى هرب من الأرض الفارسية باحثا عن الدين الحق يقول سلمان : لما قدمت الشام قلت من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة . قال : فجئته فقلت : أنى رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك . قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فاذا جمعوا له أشياء اكتنزها لنفسه ولم يعطها المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال : وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعت اليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا ، قالوا : وما علمك بذلك؟ قال : قلت : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه . قال : فأريتهم موضعه قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا فصلبوه ثم رجموه بالحجارة . ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل

منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أداب ليلا ونهارا منه قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبل وأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له: يا فلان.. إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى من توصى بى وما تأمرني؟ فقال: يا بنى.. والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به. قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان.. إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندى. فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان.. إن فلانا أوصى بى إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فإلى من توصى بى وما تأمرني؟ قال: يا بنى.. والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به. فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبرى وما أمرني به صاحبى قال: فأقم عندى. فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له: يا فلان.. إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصىَ بى وما تأمرني؟ قال: أى بنى.. والله ما نعلمَ أحدا بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية فانه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا. قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى فقال: اقم عندى. فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم قال: واكتسبت حتى كان لى بقرات وغنيمة قال: ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يا فلان.. إنى كنت مع فلان فأوصى بى فلان إلى فلان وأوصى بى فلان إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك فالى من توصى بى وما تأمرني؟ قال: أى بنى.. والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. والرواية متصلة السند رواتها عدول.

٢- وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: حدثنى أبو سفيان بن حرب قال: انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ إلى الشام فبينا أنا بها اذ جيء بكتاب من النبى ﷺ الى هرقل جاء به دحية الكلبى فدفعه الى عظيم بصرى فدفعه الى عظيم الروم هرقل فقال هرقل: هل هنا احد من قوم هذا الرجل الذى يزعم انه نبى؟ قالوا: نعم. فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا عليه فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسبا منه؟ فقلت: أنا. فأجلسنى بين يديه وأصحابى خلفى ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهؤلاء إنى سائل هذا عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه. قال أبو سفيان: وأيم الله لو لا أن يؤثر على الكذب لكذبته. ثم قال لترجمانه: سله كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا . قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا، بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: كيف قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا، يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه فى هذه المدة ما ندرى ما هو صانع. قال أبو سفيان: فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا . فقال لترجمانه: قل له إنى سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها. وسألتك هل كان فى آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا فقلت لو كان فى آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أن لا، فكذلك الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم

سجالا ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت أن لا، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم بقول قيل قبله. ثم قال: بم يأمركم؟ قلنا: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. فقال: إن يك ما تقول حقا فإنه نبى وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم. ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمى. ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه فإذا فيه... فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابى: لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة.. أنه ليخافه ملك بنى الأصفر.

* * *

(٨)

وأخيرا سأل الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب «قصص الأنبياء» الدكتور «كارلو نلينو» المستشرق الايطالى عن كلمة «بيركليتوس» الواردة فى الأناجيل فأجابه بقوله: إن القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها «المعزى» فقال له: إنى أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا. فقال: إن معناها الذى له حمد كثير. فسأله أيضا: هل ذلك يوافق «أفعل التفضيل» من حمد فقال: نعم. وهذا ما جاء فى القرآن على لسان المسيح:

﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا، وجبت له الجنة» أخرجه أبو داوود.

وإذا مر معك فى المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقينا نهيب بك أن ترضى بالله ربا.

وإذا مر معك فى المبحث الثانى عن الرسول ما أثلج صدرك يقينا نهيب بك أن ترضى به رسولا.

وها نحن سنبدأ بعرض الإسلام دين الله الذى بلغه لنا رسول الله فى المبحث الثالث ونهيب بك أن ترضاه دينًا .

لتكون بعد هذا كله أهلا لنيل رضوان الله وجنته ولتنجو بهذا من سخط الله وعقوبته . . والله ولى أمرنا وأمرك .

*   *   *

محتويات الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٠٠٧٩ / ١٩٩٤

الترقيم الدولى :

I.S.B.N . 977-225-062

دار التوفيق النموذجية للطباعة

٥١١٥٣٠٤